

النظرية الحركية في السياسة الشرعية

النظرية الحركية في السياسة الشرعية

محمد مصطفى النوباني

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٣٩٦ / ٥ / ٢٠١٥)

رقم التصنيف : ٢٦٠،١١

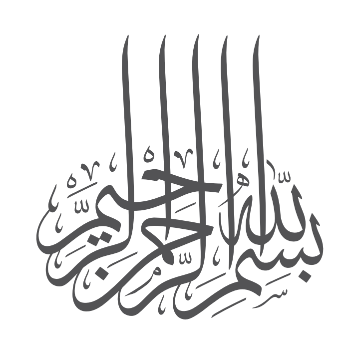
المواصفات : / الفقه الإسلامي // السياسة الشرعية/

الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة للناشر



د. محمد النوباني



المقدمة

الحمدُ لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم، خلق الكون في نظامٍ مُحكم، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، له الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ وهو الخبير العليم، هدانا لأحسن شرائعه، وأنزل علينا أفضل كُتبه، وجعلنا من أتباع خير رسله، محمد صلى الله عليه وسلم الذي بُعث رحمة للعالمين، وإماماً للمتَّقين، صلوات ربي وسلامه عليه، فهو الأُسوة الحسنة، والسِّراج المبين، وهو الذي أقام صرح الإسلام العظيم، وحطَّم أصنام الشِّرك والمشركين، وجاهد في الله حقَّ جهاده حتى أتاه اليقين، فصلِّ يا ربِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الطَّيبين الطَّاهرين وعلى من سار على دربه واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد:

فقد خلق الله تبارك وتعالى هذا الكون في نظام مُحكم، وجعل في كلِّ شيءٍ آيةً تدلُّ على حكمته وعظمته، وأبدع في خلقه، ومن بين هذه المخلوقات العديدة الهائلة، أعطى لبني آدم خَلْقاً خاصَّاً وهدْياً مميَّزاً، وكرَّمهم على سائر مخلوقاته.

وكان من بديع صُنعه سبحانه وتعالى، أنْ وجَّه البشر للانسجام مع هذا الكون وفقَ ما أراد، فقد جعل لكل شيءٍ نظاماً: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه ٥٠)، وأطلعنا على شيءٍ من دقَّة نظامه، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ (يس ٣٨-٤٠).

كلُّ شيءٍ مُنضبطٌ في حركته منسجمٌ مع غيره لتحقيق الغاية التي خلقهُ اللهُ من أجلها وهي التَّسخيرُ لك أيُّها الإنسان لتُعينك على تحقيق الغايات التي خُلقْتَ لأجلها: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية ١٣).

وإنَّ أيَّ مخلوقٍ يَخْرجُ بحركتِهِ عن تلك السُّنن والقوانين التي أودعها اللهُ -عزَّ وجلَّ- في كونه يكونُ مصيرُهُ **الهلاك والضياع**: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ (الحج ٣١).

وفي هذا عبرةٌ للعقلاء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية ١٣)، ثمَّ بعد كلِّ هذه الآيات يتمرَّدُ العقلُ البشريُّ القاصرُ على تلك السُّنن والقوانين التي تضبطُ حركةَ الكونِ كلِّه ظنّاً منهُ أنَّه قادرٌ على ابتداع قوانينَ حركتِهِ لوحده، وما علم أنَّه بذلك يكون تبعاً لعدوِّه المبين: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء ٨٣)، ويشذُّ في حركتِهِ عن حركة باقي المخلوقات: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ (الحج ١٨)، كمن يقوم يتخبَّطه الشَّيطان من المسِّ لا يحقِّقُ الغايات التي خلقهُ اللهُ من أجلها: عبادةُ الله وخلافته في هذه الأرض وعمارتها، فتأتي نتائج هذه الحركة غير المنسجمة مع حركة باقي المخلوقات **مُؤذنَةً** بظهورِ الفساد الذي لن ينحصر تأثيرُهُ على الإنسان وحدَهُ بل سيعمُّ **الخلائقَ كلها**: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم ٤١) قانونٌ لا يُحابي أحداً.

أمَّا إنْ ضبطَ الإنسانُ حركته وِفْقَ السُّنن والقوانين التي وضعها اللهُ له لينسجمَ مع حركةِ غيره من المخلوقات، فسيحصلُ على أعظمِ تسخيرٍ لهذا الكون: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف ٩٦)، **كما حصل مع ذي القرنين**: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ (الكهف ٨٤)، قانونٌ آخر لكنْ في الحركة الإيجابيَّة.

واليوم وقد ظهر الفساد في البرِّ والبحر فلا بدَّ لأمَّة الإسلام أنْ تتحمَّل مسؤوليَّتها، وتستمسك بسبب خيريتها، وتقوم بالمهمَّة المناطة بها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران ١١٠) لتضبطَ حركةَ البشريَّة جمعاء.

وهنا قد يسألُ سائلٌ: كيفُ السبيل إلى ما تدعو إليه ونحنُ اليومَ غُثاءٌ كغثاءِ السَّيل، يعبثُ بنا أراذل الخلق وشرذمتهم؛ يتداعون علينا تداعي الأكَلَة إلى قَصْعتها، قد تفرَّقنا وتنازعنا، بالرَّغم من تردُّدِ قولِ الله تعالى بيننا: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال ٤٦)، وأصبحنا كريشة في مهبِّ الرِّيح، لا مقام مريحٌ ولا سير صحيح، كمن يمشي مُكِبّاً على وجهه، لا نستطيع ضبطَ حركتنا فكيف نضبط حركة البشريَّة جمعاء؟!

وقد يخالُ للقارئ أنَّ ما ندعو إليه بحاجةٍ لعصا موسى تشقُّ البحر الذي يتلاطمها يَمْنةً ويَسْرة، فترسم لهذه الأمَّةِ طريقاً في البحر يَبَساً تنتقلَ به إلى الضِّفَّة الأخرى، أو مسحة عيسى ليُحييها من مواتها، ويبرئها من عللها، أو من يبني لها سفينة نوح لتنقلها على الجوديّ، أو أنْ يُرسل الله بقوَّته على أعدائها حاصباً من السَّماء، فتنجوَ ويهلكَ أعداؤُها.

فأقول لهذا السَّائل وهو مُحقٌّ: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- أرسلَ إلينا ما هو أعظم من عصا موسى ومسحة عيسى وسفينة نوح -عليهم السَّلام-؛ إنَّها رسالةُ أعظم الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، وهي التي لطالما نصرَ

اللهُ بها أولياءَهُ، وأهلك بها أعداءَهُ، بل كانت وما زالت وستبقى المعجزةَ التي تحدَّى اللهُ بها خلقَه جميعاً: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء ٨٨).

واليوم يتحدَّانا أعداؤُنا بنظريَّاتهم السياسيَّة وما نتج عنها من مشروعٍ سياسيٍّ يقودون به العالم وينظِّمون من خلاله جميعَ شؤونِ البشر، وتفاصيل حياتهم الدَّقيقة بقوَّة السِّلاح حيناً وقوَّة الإعلام والمال أحياناً؛ مشروعٌ في حركتِهِ غيرُ خاضعٍ لسُننِ اللهِ وقوانينهِ ويشذُّ عن حركة باقي المخلوقات في هذا الكون، ولهذا نرى الفساد يملأُ عالمنا.

ولكي نُنفِّذ أوامرَ اللهِ تعالى ونَنْتظِمَ في هذه الحياة بنظام الكون الواحد، لا بدَّ لنا من هدايةٍ وقيادةٍ وسياسة، فبغير ذلك لا نعرف أين نسير، ولا نستطيع أنْ نعيش بكفايَة وأمان، ولا أنْ نكونَ خيْرَ أمَّةٍ أُخرجت للنَّاس تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ويا للعجب!! فنحنُ من نزلت فينا معجزةُ الله الخالدة لا نملك منهاجاً سياسيَّاً نترجمه إلى مشروعٍ سياسيٍّ نضبط به حركة البشر وننقذ العالم من الفساد، وأصبحنا كالأيتام على موائد اللِّئام نقْتاتُ على فَضَلاتِ نظريَّات ومشاريع أعدائنا نُكيِّف الإسلام عليها، وكأنَّ نظامنا السياسيَّ سائلٌ غير مُتماسك يتشكَّل بكلِّ قالبٍ يُقدَّم إليه.

إنَّ السَّبب الرئيس فيما وصلنا إليه على ما نعتقد هو الرُّؤيا التي يُقدِّمها بعضُ العلماء والدُّعاة وقادة العمل الإسلاميِّ في العمليَّة السياسيَّة ودور القرآن والسُّنة في هذه العمليَّة؛ فقسمٌ منهم بحُسن نيَّة يقول: إنَّ هذا الواقع المتشابك المعقَّد لا نجد له في القرآن ولا في السُّنة حُكماً مُباشراً تفصيليَّاً، فينحوَ بذلك منحى إجماليَّة النُّصوص، وأنَّ القرآن والسُّنة يحتويان على نصوصٍ عامَّة في العمليَّة السِّياسيَّة، بل إنَّ منهم من قال إنَّ الآيات ذات المدلول السياسي في القرآن الكريم معدودة على أصابع اليد الواحدة، وذهبوا بهذا المذهب محاولين تبيان أن إعجاز القرآن الكريم هو في عدم اشتماله على التفاصيل، وبهذا يكون صالحاً لكلِّ زمانٍ ومكان.

وقسمٌ ثانٍ يدَّعي الاتصال بالإسلام، وراح ينادي بتحييد القرآن والسُّنة كليَّاً عن السياسة مدعياً أنَّ السياسة جهدٌ بشريٌّ تختبره التجربة فنبني على ما نظنه صائباً ونصحح ما نعتقده خاطئاً، ولا أدري ماذا أبقوا للإسلام من أحكام بعد أنْ جعلوا السياسة ومحاورها تخضع لعقولهم واجتهاداتهم، بخلاف أحكام العبادات وفقه المعاملات، وهم بذلك يطبقون العلمانيَّة منهجاً واعتقاداً.

وفئة ثالثة أخذت أجزاءً من النُّصوص الشَّرعية، وصنعتْ منها قالباً شاملاً للمشروع السياسي الإسلامي، فقدَّموا لنا مشروعاً فاقداً للتوازن بعيداً عن الواقعيَّة، جامداً بلا حركيَّة، بصفاتٍ يستحيلُ أنْ تكون من خصائص الرَّبَّانية، مقطوعاً عن عالميَّته، مبتوراً عن شموليَّته.

وبين هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء عُرف سببُ بقاء الأمَّة في تيه، لا نرى المخرجَ منهُ إلا أنْ نهتدي إلى نظريَّةٍ سياسيَّة خاصَّة مُنضبطةٍ بمرجعيَّاتها السِّياسيَّة، تُتَرْجَمُ إلى مشروعٍ حقيقيٍّ يكونُ للأمَّةِ عصا التغيير وسفينةَ النجاة التي ستنقُلنا إلى ضفَّة

التَّمكين، فتنضَبطَ حركتُها كما أراد الله لها أنْ تكون، فإذا انضبطَتْ تبدَّل حالُنا، وتغيَّرت أوضاعنا، وانتقلنا من هذه الحال إلى أنْ يتحقَّق فينا وعدُ الله لنا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (النور ٥٥).

بين طَيَّاتِ هذا الكتابِ ستجدون تفاصيلَ ما اجتهدْنا في تقديمِهِ للأمَّة عموماً ولمخلصيها من العاملين خصوصاً من نظريَّة سياسيَّة تؤمنُ بمرجعيَّةِ: القرآن الكريم، وسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته، والخلافة الراشدة أسميناها: (النَّظريَّة الحركيَّة في السيَّاسة الشرعيَّة) لعلَّها تكونُ نواةً تؤسِّسُ لمشروعٍ سياسيٍّ إسلاميٍّ مستقل يتحرَّك سويَّاً على صراطٍ مُستقيم.

وقد اجتهدنا في هذه النَّظريَّة بمحاكاةِ المشروع السياسيِّ الإسلاميِّ الأوَّل بقيادةِ رسول الله -صلَّى عليهِ وسلَّم- المؤيَّد بالوحي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ٥٢)، نقتفي خطواتِهِ وهو يتحرَّكُ مع أصحابِهِ مُنتقلاً بين المراحلِ والأطوار من شدَّة الاستضعافِ إلى قمَّة التمكين بحركةٍ مُنضبطةٍ بالنَّصِّ القرآنيِّ الذي كان يتنزَّلُ على هذه الكُتلة الكريمة، فيضبطَ حركتها على مدارِ ثلاثٍ وعشرين عاماً، ويستنفرَ طاقاتها وقدراتها، ويصحِّحَ عثَراتها، ويُحدِّدَ خطواتها القادمة، ويذكر تقسيماتها الدَّاخليَّة وحلفائها، ويحدِّدَ طبيعةَ الخطاب والسُّلوك الموجَّه لهم، ومواجهتهم لأعدائهم، ويمدُّها بكلِّ ما تحتاجُ من استراتيجيَّاتِ الصِّراع ومنهجيَّاتِ الخطابِ في كلِّ مرحلةٍ من مراحلها.

وما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى إلا وقد اكتملَ نزول القرآن الذي رعى تلك الكُتلة الكريمة، واكتمل منهجه التَّطبيقي صلى الله عليه وسلم للنصِّ القرآني بقيادة وإدارة تلك الكتلة المسلمة الأولى، فوظَّف تلك الطاقات والقدرات وفق منهج صحيح، فحقَّقت أقصى إنجاز في أقصر مدَّة من الممكن أنْ تحقِّقه كتلة بشريَّة دون خرْق للسُّنن والقوانين كما حدثَ مع الأنبياء من قبله صلى الله عليه وسلم، بل نزل القرآن وكشف تلك السنن والقوانينَ فوظَّفَتْها هذه الكُتلة المؤمنة في إنجاحِ مشروعها العالميِّ الخالد.

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم خَلَفَهُ في منهجه التطبيقيّ خمسةٌ من الخلفاء الرَّاشدين بتطبيقٍ بشريٍّ خالص غير مؤيَّد بالوحي المباشر في فترة هي استمرارٌ للمرجعيَّة التطبيقيَّة السياسيَّة الإسلاميَّة كما وصفها صلى الله عليه وسلم: (خلافةٌ على منهاج النُّبوَّة)، ودعا لاتباعها فقال صلى الله عليه وسلم: (عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديين من بعدي)[١]، وعالجت هذه الفترةالسِّياسيَّة المواضيع السِّياسيَّة التي حالت خصوصيَّة النبي صلى الله عليه وسلم من تطبيقها في حياته كما سنُبيِّنُ من خلال عددٍ من الضَّوابط قد فصَّل فيها هذا الكتاب.

إنَّ لهذه النظريَّة غايتين:

الغاية الأولى: ضبطُ حركةِ أيِّ كتلةٍ مسلمةٍ تؤمن بمرجعيَّة القرآن الكريم والسنة والسيرة النبويَّة والخلافة

(١) سنن أبي داود حديث رقم: (٤٦٠٧) ٧/ ١٦، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

الرَّاشدة في العمليَّة السياسيَّة إيماناً حقيقيَّاً يتخطَّى الشِّعارات إلى العمل والحركة والتطبيق، والسَّعي لتمكين هذه الكتلة من السَّير وِفْقَ حركةِ النصِّ الشَّرعيِّ..

الغاية الثانية: ضبطُ حركة الإنسان على هذه الأرض بحركة السُّنن والقوانين المستودَعة في القرآنِ لتحقيقِ الغاياتِ التي خلقَهُ الله من أجلها من عبادة الله وخلافته على الأرض وعمارتها؛ لتحقيق الفوز في الدُّنيا والآخرة.

إنَّنا في هذه النَّظرية نسعى لتقديم رؤيةٍ سياسيَّةٍ إسلاميَّةٍ تنهضُ بهذه الأمَّة المباركة، وتنقلها من غياهبِ التِّيهِ ودياجير الظلام إلى ضياء الإسلامِ ونورِ القرآن، وقد قدَّمنا في هذه النَّظريَّة المباركة مفاتيحَ لكثيرٍ من القضايا الشَّائكة المتعلِّقة بحركة هذه الأمَّة، وأشرنا إلى كثيرٍ منها، ولنا أنْ يعذرنا قارئُ هذا الكتاب إنْ وجد قصوراً أو عدم إسهاب أو تفصيلٍ في أيِّ مبحث من مباحثِ هذا الكتاب، فنحن إنما نقرع الباب ونُؤذنُ القوم بالدُّخول، وهذا الكتابُ يُعَدُّ مقدِّمةً لمشروعٍ بحثيٍّ ضخم يتمُّ العمل عليه الآن، وقد نشير إلى أجزاء منه في ثنايا الكتاب.

ولا أزعمُ أنَّ هذا الجهد كان جهداً فرديَّاً؛ بل هو جهدٌ جماعيٌّ ساهم به كثيرٌ من الإخوة المخلصين الجادِّين من أهل العلم -نحسبهم كذلك ولا نزكِّي على اللهِ أحداً-، وقد بدأنا هذا العمل منذُ عشرِ سنواتٍ في جهدٍ بحثيٍّ كانتْ أولى نتائجهِ التي نشرت كتاب «دليلُ المرابطين لتحرير فلسطين» مع أخي و رفيق دربي المهندس «موسى حداد»، حيث كانت محاولةً تطبيقيةً لتوصيفِ واقع القضية الفلسطينية من القرآن والسُّنة، وكان لأخي «موسى حداد» والدكتور «أسامة أبوبكر» دور فاعل وكبير في إنضاج فكرة النظرية.

كما أسهم في هذا العمل ثلَّةٌ من العلماء وطلبة العلم المباركين، أذكرُهُم إقراراً بجُهدِهِم، واعترافاً منِّي بفضلهم:

فقد كان للإخوة الأفاضل الدكتور «رأفت المصري» والدكتور «محمد النمرات» و الأستاذ «عدنان الديري» دور كبير في المساهمة في الضبط العلمي و المنهجي لمباحث هذه النظرية، بما يضمن أصالة الفكرة وسلامة منهجية الطرح.

وكان للأخوة الأستاذ «محمد الشرافي» والأستاذ «راتب القدسي» والأستاذ «محمد خضر» دور فاعل في التدقيق والإشراف والمتابعة والتوجيه.

ومجموعةٌ طيِّبة من الإخوة والأخوات الذين حرصوا على إنضاجِ هذا العمل وإثرائِه بالبحث العلميِّ أو بالنِّقاشِ المنهجيّ.

ويبقى الشُّكر موصولاً، والفضل لهم بعدَ الله ممدوداً، لعلمائنا الأفاضل، ومشايخنا الأوائل، الذين دَرَسْنا على أيديهم، وتتلمذْنا على كتبهم، والذين كان لهم نصيب كبير في إنضاج هذا العمل المبارك، والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

محمد النوباني

يوم الجمعة ٢/ رمضان/ ١٤٣٦هـ

١٩/ ٦/ ٢٠١٥م

nzryahrkya@gmail.com



التمهيد

إنَّ واقعَ الأمَّةِ الإسلامية وما آلتْ إليه شؤونها، يستدعي وقفةً لإعادة المياهِ إلى مجاريها، والصَّنعة إلى صانعها، واستعداداً للنُّهوض من ثقلة الأرض، وظلمات الذُّل، ووطأة المكرِ العالميِّ وتآمُرِ قوى الباطل إلى فضاءات الرِّيادة والقيادة والأستاذيَّة.

إلى ماذا نلجأ؟

ثمَّ إنَّنا في هذا الاستعدادِ للانطلاق إنما نعتمدُ على النُّور الذي بدَّدَ اللهُ به الظُّلَم، وهَدْي الرَّسولِ الذي أحيا اللهُ به العرب والعجَم؛ فأضحى أهلُ دينه أساتذةَ الخير والحضارة، ورُسُلَ العدالةِ والحريَّة بكلِّ جدارة، وسادَ منهجُهُم فسادَ معَه العدلُ وعلتْ فيه قيمةُ الحريَّة لكلِّ الشُّعوب التي نالتها بركاتُ المنهج الرَّباني، واحتكمت إلى روح الوحيِ الإلهيِّ.

إلى المصدر الأصيل:

ونحنُ اليومَ مطالَبون بالعودةِ سريعاً إلى المنبعِ الأصيل والمنهج النَّبيل؛ إلى حيثُ مصدر النور، وبؤرة السَّعادة والحُبور، إلى القرآن وسنَّة وسيرة العدنان، وما اتَّفق على تطبيقهِ وتنفيذهِ الأئمَّةُ الأعلامُ من الخلفاءِ الرَّاشدين المهديِّين الكرام، أصحاب السُّنة الرَّشيدة والآراء السديدة.

لكنَّ الدعوةَ إلى هذا العَودِ اليومَ ليست كسائر الدَّعوات، فنحن اليوم ندعو إلى استلهامِ المنهج الدَّقيق، واستنباط الأساس الحقيق، ورسم الخريطة التي تَبْلغُ بها الأمَّة موعودَ الله بالنَّصر والتمكين، والتحرير والتطهير بطريقة بعيدةٍ عن عُموميات الدَّعاوي، وفُسحة الشِّعارات.

طبيعة الخريطة:

نقدِّم إليكم في هذه الورقات أساساً لخريطةٍ واضحة المعالم، حثيثة الخطوات، لا يُخطئ السَّائل فيها موضِع قدمه أين يضعها، تهدفُ إلى بناء تصوُّرٍ واضحٍ لمرجعيَّةِ القرآن والسُّنة و السيرة النبوية والخلافة الراشدة في الحياة السياسيَّة بمحاورها المختلفة، في محاولةٍ جادَّةٍ للخروجِ من **فوضى الاستدلال والاستشهاد** التي قادت الأمَّة إلى فوضى المشاريع الإسلاميَّة، لننتقل بها إلى انضباطٍ حركيٍّ بالنصِّ الشرعيِّ لنرسم به طريقَ التَّمكينِ وخطى النَّصر القادم.

المرجعية الشاملة:

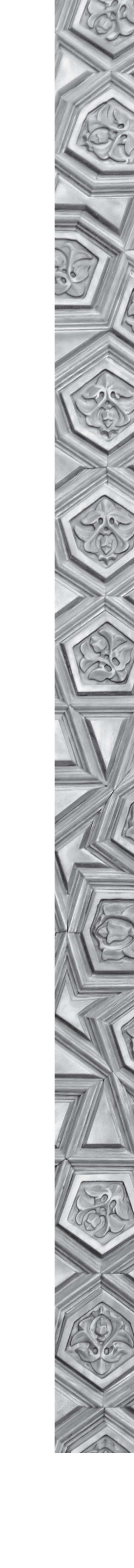
وهو ما ندعو إليه، ونرفع أصواتنا به «مرجعيَّةٌ كاملةٌ شاملةٌ للحياةِ السِّياسيَّةِ للأمَّة»، تقف فيها الأمَّة – عبرَ أهلِ الاستنباطِ فيها– لاستلهام الأصول الدقيقة لاتخاذ القرار السِّياسي، واستقاء المنهج التفصيلي لِمَا يجب على الأمَّة في ظروفها المختلفة، وملابسات أحوالها المتعددة، باستنباطِ ذلكَ من الوحيِ المنزَّل، وسيرة النبي المرسل صلى الله عليه وسلم، وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين.

هيَ مزاوجةٌ استنباطيَّةٌ بين تَنَزُّلِ آيات القرآن الكريم الرَّباني والواقع الذي نزلت فيه، يصحَبُها رصدٌ دقيقٌ لتغَيُّرِ بعض الأحكام وتبدُّلها بانتقال الدَّعوة الإسلامية من مرحلة إلى مرحلة، وترتكزُ على دراسة واقع السيرة وخصائص مراحلها، ودراسة ما نزل من توجيهات في كلٍّ منها، والبناء على ذلك والاستنباط منه والتفريعُ عليه؛ بحيث تتشكَّل المادَّة الأساسيَّة التي يمكن الرجوع إليها، فما على الباحث المتخصِّص إلا أنْ يرصدَ خصائصَ الواقعِ الذي يعيشُه، ويحدِّدَخطوطَه العامَّة، وملابساته الكبرى، ثمَّ يبحث عن المرحلة المشابهة لواقعه من وحي السيرة، فيُسقط عليه ما تمَّ تأصيلُه وتأسيسُه، ليكون الجواب المنهجيُّ حاضراً، ويْكأنَّه قالبٌ معَدٌّ سلفاً لتوضيح طريق الأمة في ظرفها وواقعها، مُستوحىً من التوجيه الرَّباني للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في مثل هذا الظرف وهذا الواقع.

ومن ثمَّ ستكون هذه المادَّة الأساسية مفتاحاً لدراساتٍ أكثرَ تفصيلاً وتأصيلاً، كلُّها مستمدَّةٌ من هذه المرجعيَّة العُظمى والهداية المثلى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء ٩).

ولعلَّنا بهذا نخطُّ الطَّريق، ونمهِّد السَّبيل، ونُسهم في عودة الأمَّة ولَمِّ الشَّعث، وإحياء الموات، وتعبيد الناس لخالقهم والدَّعوة إليه على بصيرة، ولعلَّنا نكون جزءاً من وعد الله في ظهور دينه، وغلبة شريعته وتحرير مقدَّساته، والاستخلاف في أرضه: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف ٢١).

هذا، وإنَّنا لمْ نألُ جهداً في تحرِّي الصَّواب، والتزام ضوابط المنهج الأصوليِّ العلميِّ المتَّفق عليه بين العلماء، وكان هذا المنهج عُمدة الدراسة، فإنْ أصبنا وأحسنَّا فبفضلِ الله ومَنِّهِ وتوفيقه، وإنْ أخطأنا وأسأنا فمن أنفسنا، فنستغفر الله تعالى ونتوب إليه، ونسأله تعالى أن يجعل عذرنا لديه أنَّنا ما سلكنا هذا الدَّرب إلا حُرقةً على حال الأمَّة، وسعياً في إيجاد حلٍّ يخرجها من حالة التِّيه التي تعيشها، وتذكيراً للناس بمرجعيتهم التي لا فلاح لهم إلا بالاستمساك بها، وتمهيداً للطريق لضبط العمليَّة السياسيَّة، والخروج من فوضى الاستدلال وعشوائيته.



الفصل الأول

تعريف النظرية الحركية في السياسة الشرعية



لا بدَّ لنا قبل الولوج في تفاصيل بحثنا أن نقف عند مفردات عنوانه حتى يتَّضحَ المعنى المرادُ والهدفُ المقصود.

المبحث الأول:
تعريف النظرية.

النَّظرية لغة: مِن نظَّر ينظِّر تنظيراً فهو منظِّر، والمفعول: مُنظَّر، ونظَّر نتائج بحثه: وضعَها في شكلِ نظريَّة، ونظَّر الشيء بالشيء قابله به، والنظرية جمع نظريات هي: قضية تُثبت صحَّتها بحجةٍ ودليل أو برهان، أو هي بعض الفروض أو المفاهيم المبنية على الحقائق والملاحظات تحاول توضيحَ ظاهرةٍ معينة، والنَّظرية في الفلسفة: هي طائفة من الآراء تفسَّرُ بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية[1].

أما في الاصطلاح:

فالنظريَّة السياسية: هي بناءٌ فكريٌّ مركَّب يُستخدم كمحاولةٍ بحثية للتوصل إلى القوانين والقواعد التي تحكم الحركة والتفاعلات السياسيَّة المختلفة الدَّاخليَّة أو الخارجيَّة؛ فهي محاولة لتقنين الظواهر السياسيَّة وتفسيرها، والتعامل مع تحولاتها وما يطرأ عليها من مستجدَّات، وربما التَّنبؤُ بمستقبلها.

وتبحث النظرية السياسية في الظاهرة من حيث وصفها أمراً واقعاً، وتحاول أنْ تنقل هذه الظواهر إلى نطاق العلم الواقعي، وإيجاد العلاقة أو الرَّوابط بين أسباب الظواهر ومسبَّباتها.

المبحث الثاني:
تعريف الحركية.

الحركيَّة لغة: من الحركة وهي خلاف السكون، والحركيَّة هي: إمَّا اسمٌ منسوبٌ إلى حركة، أو هي مصدرٌ صناعيٌّ من حركة، وهي نزعة ترفض الثبات وترى أنَّ الأشياء في تغيِّر وحركةٍ مستمرة[2].

واصطلاحاً فالحركيَّة في المصادر المرجعية هي: «**استعدادُ هذه المصادر للحركة مع الواقع وتطويعه، وصلاحيَّة تطبيقها في مختلف الظروف والملابسات في الزَّمان والمكان**».

وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث حركيَّة القرآن إن شاء الله تعالى.

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة ٣/ ٢٢٣٣،٢٢٣٢، د.أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٣٢، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة، بدون تاريخ.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ١/ ١٣١، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية–بيروت، بدون تاريخ، معجم اللغة العربية المعاصرة ١/ ٤٨٠، د.أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

المبحث الثالث:
تعريف السياسة.

السياسية لغة: من ساس يسوس، وهي القيام على الشيء بما يصلحه[1]، ومعنى ساس: أيْ عالج الأمر أو صرفه ودبَّره.

أمَّا اصطلاحاً: فقد اختلف السياسيون في تعريف علم السياسية على أقوال عديدة نذكر منها[2]:

فمنهم من عرفها بالنظر إلى تعلقها بنشاط الدولة وممارسة السلطة فقال: هي العلم الذي يبحث في كيفيَّة إدارة شؤون الدَّولة، وأسلوب ممارسة السلطة.

ومنهم من عرفها بالنظر إلى ميزان الحكم بالقوة على المجتمعات فقال: هو العلم الذي يبحث في أوضاع وموازين القوَّة؛ كيفَ تعكسُ مكونات ومظاهر القوَّة نفسها على العلاقات بين الأفراد والفئات الاجتماعيَّة.

ومنهم من عرفها بأنها: العلم الذي يبحث في كيفيَّة صنع القرارات الجماعية.

وذهب البعض الآخر إلى تعريف علم السياسة بأنه: العلم الذي يبحث في كيفيَّة تخصيص الموارد المحدودة.

وعرفها البعض بأنها: عملية تخصيص سُلطويٍّ للقيم.

ومنهم من عرفها: بأنها علم الدَّولة، أو العلم الذي يُعنى أساساً بكيفية إدارة شؤون الدولة.

وذهب البعض إلى تعريف علم السياسة بحيث يشمل كل النشاطات في المجتمع بغض النظر عن من يقوم بها فقال: هو كلُّ نشاط يهدف إلى الارتقاء بالأحوال العامة للبلاد أو بالحياة العامة للمجتمع ككُلّ، أو هو كلُّ مظهرٍ من مظاهر وآليات وأنشطة الحياة الاجتماعية، بصرف النَّظر عن مصدر هذه الأنشطة، أو طبيعة الأساليب المستخدمة في التعبير عنها.

ومنهم من عرفها بالنظر إلى أنها فن وآلة فقال: هي فنُّ الممكن، ومحاولة تسوية الصِّراعات الاجتماعية بالطُّرق السلمية.

ولسنا الآن بصدد مناقشة أي تعريف وترجيحه، لكننا نقول أن التعريف الأوسع والأشمل لعلم السياسة هو التعريف الذي ذهب إليه البعض من أن علم السياسة يتعلق بكل مظهرٍ من مظاهر وآليات وأنشطة الحياة الاجتماعية، بصرف النَّظر عن مصدر هذه الأنشطة، أو طبيعة الأساليب المستخدمة في التعبير عنها، ومن الملاحظ أن القرآن الكريم لم يرد فيه ذكر لمصطلح السياسة، بل إنما ذكر لنا ما يعبر عن هذا المصطلح وهو «الأمن والخوف»، فيتحصل لنا تعريف جديد لمصطلح السياسة هو موضع علاج القرآن الكريم له وهو: إدارة الأمة في حالاتها المختلفة ما بين الأمن والخوف والقوة والضعف وفق دلالات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

---

(١) لسان العرب ٦/١٠٨، ابن منظور الأنصاري، دار صادر-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.

(٢) ينظر: مبادئ في علم السياسة ١٢-٢٢، حسن نافعة، مكتبة الشروق الدولية: ٢٠٠٢م.

المبحث الرابع :
تعريف الشرعية.

الشَّرعية لغة: مِن شرَعَ، والشِّرعة بالكسر: الدِّين، والشَّرع والشَّريعة مثله مأخوذٌ من الشريعة؛ وهي مورد الناس للاستقاء، سُميت بذلك لوضوحها وظهورها، وجمعها: شرائع، وشرع الله لنا كذا يشرعه: أظهره وأوضحه[1].

والشَّرعيَّة: اسمٌ مؤنث منسوبٌ إلى شرْع، أو مصدر صناعيٌّ من شرْع، وهو كوْن الشيء قائماً على أساسٍ شرعيّ[2].

ويمكن أن نعرف الشرعية بأنها : **صفة للأحكام المنسوبة والمستمدَّة من الشريعة الإسلامية ومن المصادر المرجعيَّة الإسلاميَّة المتمثِّلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهَّرة، وما دلَّت عليهما من الإجماع و القياس.**

المبحث الخامس:
تعريف السياسة الشرعية.

أولاً: آراءُ الفقهاء قديماً:

عرَّفها الإمام الماوردي-رحمه الله- في سياق تعريفه للإمامة الشَّرعية فقال: هي خلافة النبوَّة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا[3].

وعرَّفها الإمام ابن نجيم-رحمه الله- بأنها: فعل شيءٍ من الحاكم لمصلحة يراها، وإن لم يَرِد بذلك الفعل دليلٌ جزئيّ[4].

وعرَّفها الإمام ابن خلدون-رحمه الله- في سياق الكلام عن الخلافة بأنها: حمل الكافَّة على مقتضى النَّظر الشَّرعي في مصالحهم الأُخروية والدنيويَّة الرَّاجعة إليها، إذْ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافةٌ عن صاحب الشَّرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[5].

أمَّا الإمام ابن عقيل-رحمه الله- فقد عرَّف السياسية الشرعيَّة فقال: السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقربَ إلى الصَّلاح، وأبعدَ عن الفساد، وإن لم يصنعْهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحي[6].

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ١/ ٣١٠، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية-بيروت، بدون تاريخ.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١١٨٩، د.أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

(٣) الأحكام السلطانية ١/ ١٥، أبو الحسن الماوردي، دار الحديث-القاهرة، بدون تاريخ.

(٤) البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٥/ ١١، ابن نجيم المصري، دار الكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

(٥) مقدمة ابن خلدون ٢٠٠، عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

(٦) الطرق الحكمية ١/ ١٢، ابن قيم الجوزية، مكتبة دار البيان، بدون تاريخ.

وأمَّا الإمام الجويني -رحمه الله- فقد عرَّفها عند تعريفه للإمامة بأنها: رياسةٌ تامَّة، وزعامةٌ عامَّة، تتعلَّق بالخاصَّة والعامَّة، في مهمَّات الدِّين والدنيا، مُهِمَّتُها حفظُ الحوزة، ورعاية الرَّعيَّة، وإقامة الدَّعوة بالحجة والسيف، وكفُّ الخيف والحيف، والانتصافُ للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفاؤها على المستحقين[1].

ثانياً: تعريف المعاصرين:

عرَّف الشيخ عبد الوهاب خلَّاف -رحمه الله- عِلْم السياسة الشرعية فقال بأنه: علمٌ يُبحث فيه عمَّا تدبَّرُ به شؤون الدولة الإسلامية من القوانين والنُّظم التي تتفق وأصول الإسلام، وإن لم يقم على تدبير خاص[2].

وعرَّفها الدكتور وهبة الزحيلي بأنها: الأحكام التي تُنظَّم بها مرافقُ الدولة، وتُدَبر بها شؤون الأمَّة، مع مراعاة أنْ تكون مُتَّفقة مع روح الشريعة، نازلة على أصولها الكلية، ومحقِّقَة أغراضها الاجتماعية ولو لم يدل عليهِ شيءٌ من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في الكتاب أو السنة[3].

وأمَّا الدكتور عبد العال عطوة فقد عرَّفها بأنها: فعلٌ من الحاكم لمصلحة يراها، فيما لم يَرِدْ فيه نصٌّ خاص، وفي الأمور التي من شأنها أن لا تبقى على وجهٍ واحدٍ؛ بل تتغير وتتبدل تبعاً لتغيُّر الظروف والأحوال[4].

وعرَّف الدكتور يوسف القرضاوي السياسة الشرعية بأنها: ما يراه الإمام، أو يُصدرهُ من الأحكام والقرارات، زجراً عن فسادٍ واقع، أو وقايةً من فسادٍ مُتوقَع، أو علاجاً لوضعٍ خاص[5].

وعرّف الدكتور محمد شاكر الشريف السياسة الشرعية بأنها: القيام على شأن الرَّعية من قِبَل وُلاتهم بما يُصلحهم من الأمر والنهي والإرشاد والتهذيب، وما يحتاج إليه ذلك من وضع تنظيمات أو ترتيبات إداريَّة تؤدي إلى تحقيق مصالح الرَّعية بجلب المنافع أو الأمور الملائمة، ودفع المضارِّ والشُّرور أو الأمور المنافية.

وأمَّا الوصف المختار الذي نتبنَّاه للسياسة الشرعيَّة فهو:

فنٌّ إصلاح واستصلاح وإدارة حركة الجموع المسلمة، وتنظيم علاقتها فيما بينها، وعلاقة المجموع مع غيره من المجموعات والكيانات والدُّول، ابتداء من تشكل الكتلة المسلمة العاملة للإسلام في حالة الاستضعاف، والوصول إلى تأسيس الدولة في حالة التمكين والاستخلاف، وسَعياً لنشر الإسلام الكامل فوق كلِّ شبرٍ على هذه الأرض.

(١) غياث الأمم في التياث الظلم ٢٢، عبد الملك الجويني، تحقيق: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ.

(٢) السياسة الشرعية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية وتطبيقاتها المعاصرة ٤٢، د.فؤاد عبد المنعم أحمد، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، ١٤٢٢هـ.

(٣) الذرائع في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي ٩، د.وهبة الزحيلي، دار المكتبي، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

(٤) في مقدمة كتاب السياسة الشرعية ٧٢، إبراهيم بن يحيى خليفة المشهور بـ: دده أفندي، تحقيق: د.فؤاد عبد المنعم، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة، ١٤١١هـ.

(٥) السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها ١٥، د.يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة: ٢٠١١هـ.

المبحث السادس:

تعريف النظرية الحركية في السياسة الشرعية.

ونعني بها محاولة بناء منظومةٍ فكريَّةٍ تستندُ إلى رؤيةٍ تأصيليةٍ واضحةٍ وكاملةٍ وشاملةٍ للحياة السياسيَّة والواقع السياسي، مُستمَدَّةٍ من الأصول المرجعيَّةِ لإدارة حركة الكُتلة المسلمة داخلياً، وإدارة علاقتها مع غيرها من الكتل خارجياً؛ بحيث تجمع هذه النظرية بين حركة النَّص وأصالة القاعدة، وتَنزيلُ الأحكام على واقع الأمة بمنهجيَّةِ استنباطٍ دقيقةٍ؛ لتكونَ قادرةً على علاج الواقعِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ ليسيرَ العملُ السياسيُّ الإسلاميُّ بخُطىً ثابتةٍ في طريقٍ واضحِ المعالم.

وهي كذلك: منهجيَّة تأصيليَّة في السياسة الشرعية مستمدة من الأصول المرجعيَّة من القرآن والسنة والسيرة النبوية والخلافة الراشدة، منطلقة من الإيمان بشمولية النُّصوص التفصيليَّة، وحركيَّتها الإعجازيَّة؛ لضبط حركةِ الكتلة المسلمة استراتيجياً ومنهجياً بأحكام وتوجيهات عمليَّة والتي تسعى إلى تحقيق وضوح في الرُّؤية وأصالة في المرجعيَّة وحركيَّة في الواقع.

الفصل الثاني

تأصيلُ النَّظريَّة الحركيَّة في المصادر المرجعيَّة الإسلاميَّة في القرآن والسنَّة واتفاقات الرَّاشدين



المبحث الأول:

الحاجة إلى الاتفاق على مرجعية القرآن الكريم في العمل الإسلامي وخطورة الانحراف عنها

تعيشُ الأمَّةُ اليوم حالةً من التخبُّط الشديد الذي لم يسبق لها مثيل في تاريخها، وليس المقام بمتسع للتدليل على هذا والإطناب في تبيينه وشرحه، إذ أنَّه يبدو للنَّاظر بادئ الرَّأي، لا يعوزه كَثرةُ التأمل ولا إمعان النَّظر.

أَنّى اتَّجهْتَ إلى الإسلامِ في بَلَدٍ   تَجِدْهُ كالطَّيرِ مَقْصُوصاً جَناحَاهُ

حتَّى في المراحل السَّيئة من حياة الأمَّة -كفترة الحروب الصَّليبية والغزو التتاريّ- لم تفقد بوصلَتها العامَّة، ولم تختفِ مرجعيتُها تحت ركام الأفكار المنحرفة، والأطروحات الضالَّة.

أمَّا اليوم فالإسلام يعيش غريباً بين أبنائه المزعومين، وفي بلاده التي ساد فيها وحكَم دهوراً طويلة.

حتَّى إنَّه-تحت ضغط الواقع-بات الإسلاميون يقدِّمون أو يحرصون على تقديم نوع من الإسلام «**مُخفَّف**»! -إن جاز التعبير- حتى يصير محلَّ قَبولٍ عند المجتمع الدَّولي والجماهير المسلمة، التي تقودها أجهزة الإعلام المضلِّلة، وتمسك بأزِمَّةِ تصوراتها وأطراف عقولها، لتُصوِّر لها الإسلامَ رجعيَّةً غابرة، والإسلاميينَ زمرةً من المتطرفين الإرهابيين، السَّاعين نحو مصالح السلطة والمال والمصالح الشخصية، كما جاء على لسان فرعون وملئه، يصف نبي الله موسى وهارون -عليهما السلام-: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ (طه ٦٣).

وكذا في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس ٧٨)، وكذا في إعلان فرعون الرئاسي حول التحرُّك الإسلامي بقيادة موسى -عليه السلام- ومن آمن معه: ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ (الشعراء ٥٣-٥٦).

حقيقة الإشكال:

لكنَّ حقيقةَ الإشكال ليست في مكايد الكائدين، وشراسة هجوم أعداء الدِّين، بقدر ما هي في الصَّف الإسلاميِّ ذاته، والذي بات يعيشُ حالةً من الذُّهول أمام شراسة الهجوم، وتتالي الضَّربات، وقلة الحيلة، وانعدام النَّصير.

حالةٌ من الذهول والحيرة تلُفُّ الجميع، نقف أمامها محوقلين مراقبين، فيما تُحاكُ حولَنا المؤامراتُ الكبرى التي تستهدف النَّيل من وجودنا، وتسعى لاستئصال دعوتنا واجتثاثها.

نقف أمامها عاجزين تتلاطمنا الأمواج، ونسير حيث قادنا التيَّار، وننزل حيث أنزلنا، لا نملك رؤيةً تهدينا سبيل النجاة، ولا أداةً تُخلِّصنا من استحكام التيار، ولا قوّةً نفرضها على الأرض.

أَلَنا في هذا عُذر ؟

ونحن إذ نحن كذلك لسنا معذورين على ضعف إمكاناتنا وقوَّة أعدائنا! نعم لسنا معذورين؛ لأنَّ الله تعالى قد أودَع بين أيدينا ما يُنقذنا من الغرق، ويهدينا السَّبيل، وبيَّن لنا -فيه- قَدْرَهُ بيننا، ومكانَتَهُ الواجبَة نُصْبَ أعيُنِنا، وأودعَنا سراجاً نستضيئ به لينير لنا مواضع أقدامنا في طريق فلاحنا، وقائداً يتقدَّم مسيرنا ويرسم لنا خطَّةَ إدارة المعركة المتجدِّدة بكفاءةٍ واقتدار، فإذا كان أعداء اليوم ليسوا إلا امتداداً لأعداء الأمس، ومعركة اليوم ليست إلا استنساخاً لمعارك الأمس، فمن غيرِ المعقول أنْ نُلقي السِّلاح الذي انتصرنا به بالأمس جانباً!! لا بدَّ لنا من استعمال نفس السِّلاح حتى ننتصر.. فلن يصلحَ آخر أمر هذه الأمَّة إلا بما صلُح به أوَّلها، فالصورة هي الصورة، والوسيلة هي الوسيلة، بل الألفاظ هي الألفاظ، وقد أبدع صاحب الظلال حينما قال: «يتبيَّنُ أنَّ الوسائل هي الوسائل كذلك، والأهداف هي الأهداف، ويتجلَّى أنَّ هذا القرآن هو قرآن هذه الدَّعوة، ومرجع هذه الأمة -اليوم وغداً- كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس في نشأتها الأولى، وأنَّهُ لا يُعرِضُ عن استنصاح هذا النَّاصح، واستشارة هذا المرجع في المعركة النَّاشبة اليوم إلا مدخولٌ يُعرِضُ عن سلاح النصر في المعركة، ويخدع نفسه أو يخدع الأمَّة، لخدمة أعدائها القدامى المحدثين في غفلةٍ بلهاءَ أو في خُبثٍ لئيم!»[1].

المطلب الأول:
خطر غياب الرؤية المتكاملة للمشروع الإسلامي

إنَّنا إذ لا نتَّهِمُ صدق نيَّة أحدٍ من المنتسبين للتيَّارات الإسلاميَّة المختلفة، والعاملين في الميادين الدَّعوية المتعدِّدة، ولا نشكِّكُ بأنَّ جُلَّ هذه الاتجاهات الفكرية إنما تصبو لنهضة الإسلام ورفعته، وتنهلُ من مَعينِ القرآن والسُّنة، إلا أنَّنا نرى أنَّ غيابَ الرؤية المتكاملة والأُفقَ الكليَّ والجزئيَّ في إدارة حركة المشروع الإسلاميِّ والخطو به باتجاه تحقيق الغاية الكبرى، وانعدام النَّظر في القيد المرحليِّ قبل إسقاط الأحكام لَهُوَ كفيلٌ بإجهاض المشروع وفشله، ولعلَّ هذا من أبرز أسباب الإخفاقات التي تُمنى بها التَّجارب «الإسلامية» اليوم بين الحين والآخر، ومع احترامنا لها وتقديرنا لتضحيات أبنائها إلا أنَّنا لا نبالغ إنْ وصَفْنا هذه التَّجارب بأنها (خداج)؛ فهي تعاني من نقص النُّمو، ولم تنضج بالقدر الذي يُؤهِّلُها لتوَلي المهمَّة وحمل الأمانة.

ذلك أنَّنا نرى-ولا نقصِد إلى التسمية والتمثيل- تجاربَ من غير رؤيةٍ أصلاً، أو برؤيةٍ جُزئيةٍ قاصرةٍ ، وهي في منتهى السَّطحية في بعض الأحيان، نراها تبوء بالفشل الذريع، وتصيرُ أحاديثَ، أو تتوقفُ أحياناً عن النموِّ والتَّطور وتجْمُد في مرحلةٍ معيَّنة، وفي إطارٍ ضيقٍ لا تملك تجاوزَه.

ذلك أنَّ هذه التجارب-وإنْ رفعت مرجعيَّة الكتاب والسُّنة شعاراً-إلا أنَّهُ لم يكن إلا شعاراً تتغنى به، ومحضَ عفوياتٍ تشترك فيها أكثر الدَّعوات، وإن كانت لا تتصف بالعُمق ولا بالشمول، ولا حتى بالتدرُّج المنطقيِّ المطلوب!

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٣٥٣، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

فدعوةٌ سكتتْ عن مصائبَ أمَّتها واتخذت منهجَ الوعظ سبيلاً وحيداً متفرداً! وأخرى سلكت درب القتال وحَمْلَ السَّيف منذ اللحظة الأولى وبدون نظرٍ في الواقع والمآل! وحصرت أخرى كلَّ مشروعها برياضةِ النَّفس وتهذيبها، وكأنَّ الدين ليس إلا هذا الباب! وأُخرى تلقَّفت العلومَ الشرعية بصورةٍ جامدةٍ من غير ربطٍ بالواقع؛ بل إنها صارت أداةً لتمكين أعداءِ الدين بما يصدرُ عنها من فتاوى! وغيرها أخذت العموميات وزعمت الدَّوران مع عموميات الشريعة والعناية بمقاصدها، فآل بها الأمر –في أغلب الأحيان– إلى إهمال أساسيات ومفاصلَ، وإلى تضييع كلِّ ما يتعلَّق بالمناهج التي يُتوصَّلُ بها إلى تلك المقاصد والعموميات، فاقتربت بهذا من الدَّعوات العلمانيَّة الإصلاحية، وسارت –كما سارت شبيهاتها العلمانيَّة– على محض الهوى، واعتمدت على تقديرات قاداتها ونظرتهم المصلحيَّة القاصرة! ودعوةٌ جَمَدَت عند الجزئيات وأهملت الكليَّات واعتمدت النِّهايات التشريعية، ولم تلتفت إلى سبيل الوصول ولا إلى مراحله وخصائصه، فوجدت نفسها خارج الزمان والمكان، إذ أرادت نيل النهايات ولم تضع قدمها على مشارفِ البدايات!

وغيرها من الدَّعوات التي ابتُليَت –في معظمها– بتضخُّم نصوص على حساب أخرى، وتوسُّع في مساحات وتقلُّص في أخرى، كما ابتُليت بنظرتها الجزئية التي أضاعت روح الدِّين تارة، وأساسيَّاته تارةً أخرى، وهو كلٌّ لا يتبعَّض، متوازنٌ لا يختل!

ولا شكَّ أنَّ بعضها أقربَ من بعض، وأنضج وأعمق وأرقى، إلا أنَّنا نجد أنَّ هذه الدَّعوات ما زالت تحتاج المزيد من إدراك الشمولية، والسعيَ للإنضاج والتطوير، والاستعانة بالعليم الخبير.

وإنَّنا مع ذلك نزعم أن هذه الجماعات –بلا استثناء– تمتلك الرَّصيد الكافي من الصِّدق والإخلاص والاستعداد للتضحية، وهذا الرَّصيد يُؤهِّلها لقبول الحقِّ، والإذعان لسلطان النصِّ على القلوب، والانصهار في بوتقةٍ واحدةٍ ليؤدي كلٌّ منها دوره في خدمة مشروع الإسلام العظيم، وإنَّ اتفاقها على أنَّ مرجعيَّتها لا تخرجُ عن كونها مستمدَّةً من كتاب الله وسنة رسوله يُشكِّلُ قاعدةً صلبةً يمكننا الانطلاق منها والبناء عليها، والذي نسعى إليه في هذا الكتاب هو إبرازُ معالم هذه المرجعيَّة، وفهم شموليتها وحركيَّتها، ثم تقعيد أصول النظر فيها والاستنباط منها، وهذا أمرٌ قد نصل فيه إلى مقاربةٍ معقولةٍ، يقود إليها الدَّليل، ويرتضيها العقل النبيل.

المطلب الثاني:
شكل العلاقة مع المرجعية

على الأمَّة أنْ تدرك أنَّ سَعْيَها للاتصال بالمرجعيَّة القرآنية والمنهج الربانيِّ ليس نافلةً وموضعَ اختيار، وإنما هو واجبٌ لا بديل عنه، ومطلبٌ لا بدَّ منه لمن كان يرجو سعادة الدَّارين، وأنْ تدركَ أنها لا بدَّ أن تُقبل على القرآنِ إقبال الظَّمآن على الموردِ العذب، وتتعلَّق به تعلُّق الغريق بحبل النَّجاة، وهي دون أنْ تحقِّقَ هذا الفهم ليست إلا كمن يمشي مُكِبَّاً على وجهه: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك ٢٢).

كما أنَّ الحاجة إلى الهادي المنير تزداد في حوالك الظُّلمات، وعماية السُّبل وتداخلها، فإنَّ الحاجة إلى القرآن الموصوف بأنَّه: ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء ٩) تزداد في عصورِ الظُّلمات والشُّرور، واختلاط الرُّؤى، وحصول الحيرة والعماية، وتماوج الفتن.

تزداد الحاجة إلى القرآن، وتتأكَّد ضرورة النَّظر فيه، والتأمل والاستلهام استنباطاً لمعالجة الواقع، وحلِّ التعقيد، والتَّبصير بالدَّرب وبيان السبيل، يقول سيِّد قطب-رحمه الله- في هذا الموطن: (ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن: أنَّ هذه النُّصوص التي نزلت لتواجه معركة معيَّنة، ما تزال هي بذاتها تصوِّر طبيعة المعركة الدائمة المتجدِّدة بين الجماعة المسلمة في كلِّ مكان، وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليديين، الذين ما يزالون هم هم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها، وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة، وزعزعة الصَّف، والتشكيكُ في القيادة الرَّبانية، هي الأهداف التي تصوِّبُ إليها طلقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرُّف في مقاديرها)[1].

فمتى أدركت الأمَّة أنَّ حاجتها للمرجعية القرآنية مطلب لا بد منه، فعليها بالتلازم مع إدراكها لهذه الحاجة للاتصال به: أنْ تُدرك ماهيَّة هذا الاتصال بأشكاله التي ضبطها التوجيه القرآني، وبيَّنَ الصِّفة الدقيقة التي تميِّز كلَّ واحدة منها ليعلمَها الذين يستنبطون هذا المنهج، وقد تقصَّيناها في كتاب الله، ونذكر منها:

١ - الطَّاعة:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران ٣٢).

- وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران ١٣٢).

- وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (المائدة ٩٢)

٢ - الاتباع:

- قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥٣).

- وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام ١٥٥).

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف ٣).

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٥٦٦، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

٣ - الولاية:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ (المائدة ٥٥).

٤ - الاعتصام:

- قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران ١٠٣).

- وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء ١٤٦).

- وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء ١٧٥)

٥ - التحاكم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (النور ٥١).

٦ - الرَّد إليه:

- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء ٥٩).

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء ٨٣).

٧ - الاستجابة:

- قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ (الرعد ١٨).

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة ١٨٦).

- وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى ٣٨).

- وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ

﴿ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال ٢٤).

٨ - الاستمساك:

- قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الزخرف ٤٣).

- وقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

- وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف ١٧٠).

- وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان ٢٢).

إنَّ مجموع هذه الأوامر بهذه الأوصاف للاتِّباع والطاعة، والاستمساك والاستجابة لمرجعيَّة هذه الأمَّة، قد لا تترك للمكَلَّف باباً من أبواب الحاجة إلا أمرتهُ أنْ يُرجعها لكتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويستحيلُ أنْ يأمرَنا بكلِّ هذه التوجيهات والمعاني للتمسُّكِ بالمرجعية ثمَّ لا تكون شاملةً كاملة، خصوصاً وأنَّ لكلِّ مصطلحٍ منها دلالته الخاصَّة، وتوجيهه المختلف، ولشكلِ العلاقة مع المرجعيَّة بحثٌ خاصٌّ في ثنايا هذه السلسلةِ المباركة إن شاء الله.

المطلب الثالث:
أوصاف القرآن الكريم كمرجعية.

لقد أمرنا الله تعالى بأن تكون علاقتنا مع المرجعية علاقة وثيقة عمادها الاتباع والطاعة والاستجابة والاستمساك والرد والتحاكم والولاية، لكن الله تعالى لم يأمرنا بأن تكون علاقتنا مع هذه المرجعية على هذا الشكل وهذا النحو إلا لتحقق بعض الأوصاف التي ميَّزت هذه المرجعية عن غيرها من المرجعيات الأخرى، فكان منها لا على سبيل الحصر الأوصاف التالية:

١ - القرآن هدى:

لقد وصَفَ اللهُ القرآنَ الكريم بأنَّه هُدى، بل جعل هذا الوصفَ الأعظم من أوصافه، حيث قال تعالى في مفتتَح كتابهِ في سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة ٢).

وقال: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة ١٨٥)

وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لقمان ١-٣).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس ٥٧) وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تسجِّل «الهداية» على أنَّها الوصف الأعظم للقرآن الكَريم.

وإذا كان القرآن الكريم على هذا النَّحو من كونه «هدى» فمن العجز -إذاً- أنْ تُبتغى الهداية في غيره، لا بل من الضلال، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ (سبأ ٥٠).

فهذه الآية دالَّةٌ بمنطوقها على أنَّ الهداية تحصل بسبب واحدٍ، وهو الوحي: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ وأنَّ سِواهُ من الأسباب إنَّما يحصلُ بها الضَّلال والتِّيه والتخبُّط والعماية.

٢ - القرآن فرقان:

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان ١).

وقال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ (البقرة ١٨٥).

قال الإمام الطبريُّ -رحمه الله-: (وأصل «الفُرْقان» عندنا: الفرقُ بين الشيئين والفصل بينهما، وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ، وإظهار حُجَّة، ونَصْرٍ وغير ذلك من المعاني المفرِّقة بين المحقّ والمبطِل؛ فقد تبيَّن بذلك أنَّ القرآن سُمِّيَ «فرقانًا»، لفصله -بحُجَجه وأدلَّته وحدود فرائضه وسائر معاني حُكمه- بين المحقِّ والمبطل، وفرقانُه بينهما: بنصره المحقَّ، وتخذيله المبطل، حُكماً وقضاءً)[1].

٣ - القرآن فيه تفصيلُ كلِّ شيء:

لقد نزل هذا الكتاب ليَحكمَ بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولتتمثَّل فيه حاكميةُ الله تعالى وألوهيته، ثمَّ لقد نزل هذا الكتاب مفصَّلاً، محتوياً على المبادئ الأساسيَّة التي يقوم عليها نظامُ الحياة جملةً، كما أنَّه تضمَّن أحكاماً تفصيليةً في المسائل التي يريدُ الله تثبيتَها في المجتمع الإنسانيِّ مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جُملةً.. وبهذا وذلك؛ كان في هذا الكتاب غناءٌ عن تحكيم غيرِ الله في شأنٍ من شؤون الحياة.. هذا ما يقرِّرُهُ الله -سبحانهُ- عن كتابه، فمن شاء أنْ يقولَ: إنَّ البشرية في طورٍ من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجَتها فليقلْ[2].

يقول الحقُّ جلَّ وعلا: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ (الأنعام ١١٤).

ويقول تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود ١).

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأعراف ٥٢)، وقال:

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ١/ ٩٩، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٤، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس ٣٧).

وقال عزَّ وجل: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف ١١١).

٤ - القرآن بصائر:

ووجْهُ وصْفِ القرآنِ بأنَّه (بصائرٌ)؛ لاشتمالِهِ على الحججِ الظَّاهرة، والبراهين القاطعة، والآيات الواضحة، التي تكون دالةً وبياناً للنَّاس جميعاً في هذه الدنيا، وهاديةً لهم إلى رضوانِ الله ومحبَّته، وسائقةً لهم إلى جنَّة عرضها السَّموات والأرض، وحجَّةً قائمةً عليهم إنْ همْ أعرضوا عنها وكفروا بها، آياتٌ تبيِّن الحقَّ، وتجعله للقلب بمنزلةِ الشَّمس للأبصار؛ لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة؛ لأنها صادرةٌ من الرَّب الذي ربَّى خَلْقَه بصنوف نعمِهِ الظَّاهرة والباطنة، والتي من أفضلها وأجلِّها: تبيينُ الآيات، وتوضيح المشكلات[1].

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (الأنعام ١٠٤).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف ٢٠٣).

وقال: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية ٢٠).

٥ - القرآن شفاء:

ووجْهُ وصْفِ القرآن بأنَّه (شفاء)؛ لاشتماله على الدَّلائل الواضحات، والآيات البيِّنات، التي يكون بها الشفاء من سقم الكفر والضَّلال، والتِّيه والضَّياع، والجهل والظلم، والبغي والعدوان، فتهتدي القلوبُ إلى خالقها، وتطمئنُّ النُّفوس إلى بارئها، وتستنيرُ بكتابِ موجدها -جلَّ و علا- وتؤمنُ وتصدِّق بأثر هذا الكتاب على القلب والبدن، وحاجتهما إليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء ٨٢).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس ٥٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت ٤٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المعروف بتفسير السعدي ٢٦٨، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٦ - القرآن نور:

والقرآن كلُّه نورٌ وأي نور: (نورٌ تتجلَّى تحت أشعَّتهِ الكاشفة حقائقُ الأشياء واضحة، ويبدو مفرق الطريق بين الحقِّ والباطل محدَّداً مرسوماً.. في داخل النَّفس وفي واقع الحياة سَواءً؛ حيثُ تجد النَّفس من هذا النور ما يُنير جوانبها أولاً، فترى كلَّ شيءٍ فيها ومن حولها واضحاً؛ حيث يتلاشى الغبشُ وينكشف، وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية، وحيث يُعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحقَّ وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة؟!

وحين يعيش الإنسان بروحه في الجوِّ القرآنيِّ فترة، ويتلقَّى منهُ تصوراته وقيمه وموازينه؛ يحسُّ يُسراً وبساطة ووضوحاً في رؤية الأمور، ويشعر أنَّ مُقرَّراتٍ كثيرةً كانت قلقةً في حسِّه قد راحتْ تأخذُ أماكنها في هدوء، وتلتزم حقائقها في يُسر، وتنفي ما علِق بها من الزِّيادات المتطفِّلة لتبدوَ في براءتها الفطرية، ونصاعتها كما خرجت من يد الله..

ومهما قلت في هذا التعبير: «وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً»..فإنني لن أصوِّر بألفاظي حقيقته، لمن لم يذق طعمه ولم يجده في نفسه! ولا بدَّمن المكابدة في مثل هذه المعاني! ولا بدَّ من التذوق الذاتي! ولا بدَّ من التجربة المباشرة!)[1].

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ (النساء ١٧٤).

ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (الأعراف ١٥٧).

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (الشورى ٥٢).

وقال سبحانه: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ (التغابن ٨).

وما وصفَ الله تعالى كتابَه على هذا النَّحو الذي أسلفنا الإشارة إليه إلا ليُبيِّن لنا لزوم اللجوء إليه، والعكوف على آياته، والنَّظر في أسراره لاستنباط سبيل الهداية، عن طريق منطوق الآيات أو مفهومها، ومواضع الآيات أو موضوعاتها، وتصريحاتها وإشاراتها، وغير ذلك ممَّا يعرفه من لهم تعلُّقٌ بالأصول والاستنباط، وهذه بعض أوصاف القرآن الكريم وإلا فإن الإمام الزركشي رحمه الله قد ذكر في كتابه «البرهان في علوم القرآن» خمسة وخمسين وصفاً للقرآن تراجع في محلها.

والظنُّ بأنَّ هذا القرآن اليومَ عاجزٌ -حاشا كتاب الله- عن معالجة الواقع وهداية المؤمنين، وبيان السبيل: أنَّه اتهامٌ لهذا القرآن بعدم تحقُّق الوصف الذي وصفه الله به، وسلب -في الاعتقاد- للوظيفة الرئيسية لهذا الكتاب: (هدىً للمتَّقين).

وأيُّ إيمان يبقى للعبد بعد هذا؟ وأيُّ هداية وتوفيقٍ تناله ونالها؟!

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٢، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

القرآن

هدىً | فرقان | تفصيل | بصائر | شفاء | نور

المطلب الرابع:
نتائج التمسك بالمرجعية.

ومن طمحت نفسُه لنيل هذه النتائج فلا بدَّ له من الاتصال بالمرجعيَّة والمنهج على النَّحو الذي أراده ربُّ الأكوان، وبما أنَّ النتائجَ ليست إلا مُسبَّبَاتٍ لها أسبابُها، وثمراتٍ تُغذّيها جذورها؛ فإنَّ من حقَّقَ هذا الشكل من الاتصال بالمرجعيَّة كان أهْلاً لنيل الأماني المرجوَّة، والنتائج الموعودة، وهي:

١ - التَّمكين والاستخلاف:

قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور ٥٥).

٢ - التأييد:

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة ٤٠).

وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة ٢٢).

٣ - النَّصر:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح ١-٤).

وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ

إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج ٣٩-٤٠).

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد ٧).

٤ - التثبيت:

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (النحل ١٠٢).

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ (النساء ٦٥-٦٨).

وقال سبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم ٢٧).

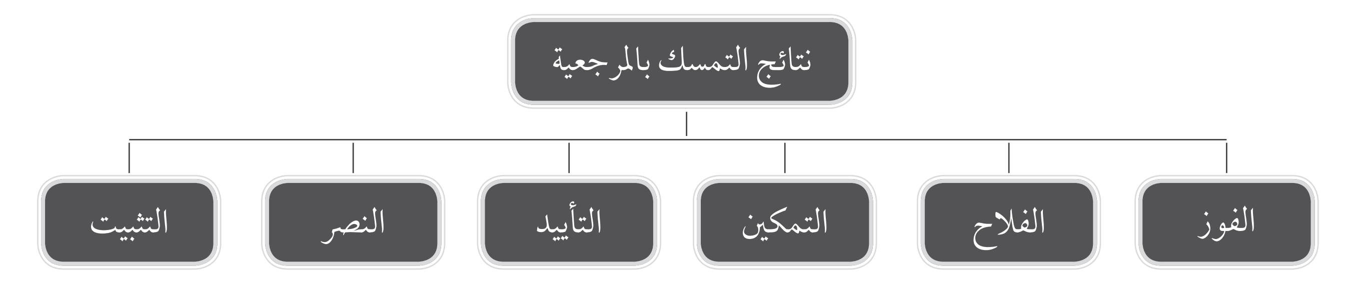
٥ - الفلاح:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (الأعراف ١٥٧).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (النور ٥١).

٦ - الفوز:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ (النور ٥٢).



المطلب الخامس:
أوجه الانحراف عن المرجعية.

اللهُ –جلّ ثناؤه– أعلمُ بحال خلقه وقد أودعهم مرجعيةً مُحكمةً أمرهم فيها بكل ما يُصلح أمور دنياهم وآخرتهم ونهاهم عما يُفسدها ، فمن انحرف عن هذه المرجعية –ولو يسيراً– فقد ارتضى لنفسه منهجاً غير الذي ارتضاه الله لعباده، وإن كان بعض هذا الانحراف واضحاً جلياً كمن ارتضى مرجعية غير الله ورسوله واحتكم إليها، فإن بعضه يكون مستتراً خفياً كمن آمن بمرجعية القرآن والسنة ولكنه لم يُذعن لسلطانها ولم يدرك أسرارها ولم يستجب لها حقَّ الاستجابة ظنّاً منه بعجزها عن معالجة الواقع المتغير! ولا شَكَّ أنَّ مَنْ تمكَّنَ مِنهُ ظَنُّهُ بِعَجزِ مرجعية القرآن والسنة عن معالجة الواقع، وإصلاح الأمة والنهوض بها لتستعيد مكانتها في غُرّة الأمم فقد زاغ قلبُه عن الصراط المستقيم، وقادته أهواءه بعيداً عن المسلك القويم، إلى مهاوي الانحراف التي نبّهنا القرآن إليها في عدة مواضع وحذرنا من الوقوع فيها، ومن أوجه الانحراف عن المرجعية:

١ – اتِّباع المتشابه:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ (آل عمران ٧)
وقال:﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود ١).

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (إِنَّ اللَّهَ وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ؛ وَالْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَخُصُّ بَعْضَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ كُلَّهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمٌ بِمَعْنَى الْإِتْقَانِ فَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ حَكِيماً بِقَوْلِهِ: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾).[1]

والمحكم والمتشابه لفظان متقابلان وهما مبحثان أصيلان في مباحث علوم القرآن وقد اختلف الأصوليون قديماً حول تعريف معنى المحكم والمتشابه على أقوالٍ كثيرة، لكننا نستطيع أن نُجمل أقوالهم في تعريف معنى المحكم بأنه: ما عُرِفَ مُراد الله منه أو ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، وعرَّفه قوم بأنه: ما استقلَّ بنفسه ولم يحتج إلى بيان، ويمكن إرجاع هذه التعريفات إلى معنى واحد، هو معنى البيان والوضوح، أما المتشابه فهو ما خفيت دلالته على مراد الله أو ما اشتبه معناه وخفيت دلالته فاحتاج بيانُهُ إلى ردِّهِ لغيره.

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٥٩، تقي الدين ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

وقد ورد ذكر المتشابه في القرآن بمشهدين متناقضين تماماً! مشهدٌ يصور أصحاب القلوب الزائغة وهم يتّبعون ما تشابه من آيات القرآن: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران ٧)، والمشهد الآخر يصوّر الذين أفاض الله عليهم من نعيمه، وأكرمهم بهداه وألهمهم كيفية فهم المتشابه، فتقشعرّ لذلك جلودُهم: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر ٢٣).

فما هو الفرق بين النقيضين؟ وما هي علة ذمّ الصنف الأول والثناء على الصنف الثاني؟

إن جوهر المسألة يكمن في فهم معنى كلمة (مثاني) التي وردت في سياق مدح الذين يخشون ربهم (مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ) ولم ترد في سياق ذم الذين في قلوبهم زيغ، فما معنى (مثاني)؟

قد أجاد العلامة الدكتور محمد راتب النابلسي في تقصّيه لمعاني هذه الكلمة في تفسيره لسورة الحجر فننقل بعض ما قال بتصرّف[١]:

- المثاني: هو الشيء الذي فيه تكرار وإعادة.
- ومثاني: جمع مثنى مِن الثني والاثنين، وهذا المصدر يشير إلى العدد، أو لمطلق التكرار.
- ومثاني الشيء: طاقاته وقواه.
- قال بعض العلماء: من معاني المثاني أنه يتجدد حالاً بعد حال، كلما جدّ ظرف جديد، أو مشكلة جديدة، أو موضوع خاص رأيت آية في كتاب الله تغطي هذه الحالة، كلما سمعت خبراً، أو ألمّت بك ملمة، أو ظهر حدث في العالم وجدت في القرآن الكريم ما يغطي هذا الحدث، وهو متجدد، كلما زدته ذكراً زادك معنىً.
- ومعنىً آخر للمثاني: هو الثني والانثناء، يعني أن كل آيةٍ متشابهةٍ تنثني على أختها لتعضدها وتوضحها، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً .. يوضّح بعضه بعضاً .. يدعم بعضه بعضاً ..
- قال بعض المفسرين: يظهر منه -القرآن الكريم- ما يدعو إلى الثناء عليه، تقرؤه فتثني على هذا الكتاب، وعلى من يتلوه، وعلى من يتعلمه، وعلى من يعلمه، وعلى من يعمل به.

إذاً: من معاني المثاني: التكرار، واستخراج الطاقات المكنونة، والتجدد والاستمرار، والانتقال من حال إلى حال، وانثناء الآية على أختها لتتكاملا وتعضد كل منها الأخرى ..

---

(١) يراجع تفسير سورة الحجر للدكتور محمد راتب النابلسي على رابط الموقع: http: / /www.nabulsi.com /blue /ar /print.php?art=٢٨٥٢

وهذه المعاني مجتمعةً تسوقنا لفهم المنهجية التي يجب اتباعها في التعامل مع القرآن المتشابه.

فأصحاب المنهج السليم لا يأخذون النص المتشابه (منفرداً) بل (مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ)، فحينما يُضَمُّ النص المتشابه إلى مثيله المتشابه المكرر في موضع آخر من القرآن، بناءً على الوحدة الموضوعية فإننا نستطيع التوصل إلى تأويل النص، وبذلك نستخرج طاقاته وقواه، فتتحصل لدينا منظومةٌ مُحكمةٌ، تُؤخَذُ بمجموعها لا بآحادها.

أما منهج الذين في قلوبهم زيغٌ فهو اجتزاءُ النص المتشابه مقطوعاً عن النصوص الأخرى المشتركةِ معه في السياق والوحدة الموضوعية، وهو ما يمثل نموذجاً من نماذج الانحراف في فهم المرجعية القرآنية: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ فالفتنة في منهجهم تكمن في أخذ النص المتشابه بشكلٍ مجتزأ، وتنزيلِه على ظرفٍ وموضعٍ لا يحتمله.

وهذا العلم بالغ الأهمية لإدارة العملية السياسية بفهم دقيقٍ للمرجعية، فتنزيل الحكم على الواقع بدون ضوابط، أو تعميمه على جميع مراحل العملية السياسية على حد سواء دون النظر في الواقع والمآل هو وجه من وجوه اتباع المتشابه المذموم والمنهي عنه –وسيأتي الكلام على هذا بالتفصيل في مبحث فقه التنزيل والتبديل وقيد المرحلة إن شاء الله – .

ولتوضيح المقصود وبيان علاقة هذا العلم بالعملية السياسية نأخذ مثالاً من آيات القتال والجهاد، فإن الأخذ بآية من آيات القتال منفردةً بمعزل عن مجموع الآيات الأخرى التي ترتبط بنفس الوحدة الموضوعية، ومن ثَّم تعميمها على جميع مراحل الحياة السياسية، واعتبارها حكماً نهائياً يجب أن يُعمّم مطلقاً من غير النظر إلى السياق التنزيلي الذي نزل النص ليعالجه هو ضربٌ من اتّباع المتشابه المنهي عنه، وإن كان الحكم الذي جاء به كل نصٍ ثابتاً لا يملك أحدٌ إنكاره، لكن مطابقة واقع نزوله بالواقع الذي نريد إسقاط هذا الحكم عليه يعد من أهم الضوابط لصحّة الاستدلال به.

٢ – الإيمان بالمرجعيَّة مع رفض الاحتكام إليها:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء ٦٠-٦٥)

من صور الانحراف عن المرجعيَّة الإيمان بها إيماناً مجرَّداً مع رفض التحاكم إليها، ولهذا عبَّر القرآن الكريم عن

هذا الإيمان الصُّوَري بأنَّه زَعْمٌ يفتقر إلى الدَّليل ويوجب التهمة، بل هو خبرٌ كاذبٌ غيرُ مطابقٍ للواقع في نفس الأمر،

فقال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ (النساء ٦٠)، وفي الآية استفهامٌ فيه تعجُّبٌ حينما

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ وحرف (لم) في اللغة العربية يُفيد النَّفي والجزم والقلب، فيكون الفعل المضارع (ترَ) مجزوماً، وهذا تأكيدٌ على معنى الزَّعم، وفي الآية إخبارٌ من الله تعالى عن قوم ادَّعَوُا الإيمان بما أُنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وما أُنزل على من قبله، لكنَّ حقيقةَ حالهم على خلافِ ذلك؛ فمرجعيتهم التي يحتكمون إليها هي (الطاغوت) الذي أُمروا أن يكفروا به! وهو كما يعرِّفه الإمام ابن القيم رحمه الله: (كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ؛ فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ يَتَحَاكَمُونَ إلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ يَتْبَعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنْ اللَّهِ، أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ)[1] وهذا هو الضلال الذي توعّد الشيطان به بني آدم منذ أن عصى الله ورفض السجود لأبيهم، فالعمل على إضلال البشر هو وظيفته الأولى: (لعنهُ الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم)، وقد ورد ذكر الضلال بصيغة المفعول المطلق (ضلالاً بعيداً) والبعيد صفة للضلال، فهم لن يدركوا أن التحاكم إلى غير المرجعية الربانية إنما هو اتباع للطاغوت واستسلامٌ للشيطان إلا بعد أن ينكشف لهم هذا مستقبلاً عندما تصيبهم مصيبةٌ نتيجة اتباعهم لهذا المنهج المنحرف.

وتأكيداً على هذا الكلام يسوق الله لنا الدَّليل الذي يُثبت عليهم رفضهم الاحتكام إلى المرجعيَّة التي يزعُمون الإيمان بها، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ (النساء ٦١)، وهنا في الآية الكريمة حرفُ شرطٍ وهو (إذا) الذي هو ظرف لما يُستقبل من الزَّمان بمعنى أنَّ حالهم في حركة مستمرَّة في الصد عن الاحتكام إلى المرجعية، ويؤكِّد اللهُ على معنى الصَّدِّ بالمفعول المطلق: (صدودا) كأثرٍ عن حالهم الدَّائم في رفض الاحتكام إلى ما أنزل الله، وما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثمَّ يُبيِّن الله لنا الحال والمآل الذي وصلوا إليه كنتيجة عن الضلال الذي وقعوا فيه، فيقول الله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ (النساء ٦٢)، وفي الآية اسم استفهام: (كيف) يعقبُهُ حرفُ شرط (إذا) محذوفٌ جوابُ شرطِهِ؛ للدَّلالة عل وقوعهم في التِّيه بعد وقوعهم في المصيبة، وفي الآية يُخبرنا الله عنهم بأنهم يدَّعون أنَّ احتكامهم إلى الطاغوت لم يكن إلا لأنهم يريدون الإحسان والتوفيق، ويريدون الخير للأمَّة ومصلحة الدَّعوة، وهذا يُشير كما يظهر أنهم بنوْا في تصوراتهم ومقرَّرات عقولهم مُسْبقاً بأنَّ الاحتكام إلى منهج الله ورسوله لا يَؤول بهم إلى الإحسان والتوفيق، لكنْ يردُّ الله عليهم في ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ (النساء ٦٣) فهؤلاء قد ضلوا السَّبيل وحادوا عن الطَّريق القويم، والله مُطَّلعٌ على سرائرهم، وسيُحاسِبُهم عليها،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٤٠، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

أمَّا نحن فلا يَسَعنا إلا الحكم على ظاهر أمرهم، فيأمرنا ربُّ العزَّة أن نُعرض عنهم ونزجُرَهم ونعظَهمْ بأقسى العبارات، فإنَّ النِّية الصالحة لا تُصلح العمل الفاسد، ومِثْلُ هؤلاء لا يُؤتمنون على الدَّعوة، ولا يَصْلحون للإمساك بزمامِ أمورها، وليس لمثل هؤلاء أن يُديروا العمليَّة السياسيَّة للكتلة المسلمة، وهم مُطالَبون بالتوبة والنَّدم والاستغفار ولزوم اتباع هدي النبيِّ وطاعة أمره حتى يبقوا أفراداً ضمن هذه الكتلة، فيقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾ (النساء ٦٤)، وفي الآية تأكيدٌ على غاية وجود الرَّسول -صلى الله عليه وسلم- بيننا وذلك باستعمال أداة الحصر: (إلا) للإشارة إلى حصر الغاية من إرسال الرَّسول صلى الله عليه وسلم في طاعته على مُقتضى شرع الله، لهذا يقول الله تعالى بعدها رداً على الذين يزعُمون الإيمان من غير الاحتكام إلى الرَّسول صلى الله عليه وسلم كما مرَّ معنا في الآية الأولى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (النساء ٦٥)، وفي الآية قسمٌ مُغلَّظ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾، وفيه استعمالُ أداة النَّفي (لا) قبل حرف القسم (الواو)، والعرب تأتي بحرف النفي قبل القسم حينما يكون جواب القسم منفيا، وهو نفي الإيمان هنا: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، والآية اشترطت لحقيقة دعوى الإيمانِ ثلاثة شروط:

الأول: الاحتكام إلى الرَّسول الله صلى الله عليه وسلم في شتَّى المنازعات، وهي مُقتضى ما جاءت به الآية التي سبقتْ هذه الآيـات ومهَّدت لها، إذ قال ربُّ العزَّة: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء ٥٩).

الثاني: الرِّضى التَّام بحُكم رسولِ الله الذي لا ينطقُ عن الهوى، وعدم تسلُّلِ الشكِّ والحرج والضِّيقِ إلى الصُّدور فحُكمُ رسول الله إنما هوَ وحيٌ من ربِّه.

الثالث: التسليم الكامل لهذا الحكم والإذعان له، ولهذا جاء بالفعل المطلق:﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾.

٣ - التفريقُ بين الله ورسوله (بين القرآن والسنة):

إنَّ من أعظم صور التفريق بين الله ورسوله، أيْ: بين ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هي الأخْذُ بما جاء في كتاب الله تعالى فقط، ومن ثمَّ ترك سنة الرسول صلى الله عليه وسلم بالكليَّة، ولذلك فقد قرن الله تعالى طاعته في كتابه بطاعة رسوله في سنته فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء ٨٠)، ومما يشيرُ إلى هذا الوجه من الانحراف قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (النساء ١٥٠)

وقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الصورة من التفريق بين أحكام القرآن والسنة فقال في الحديث الشريف: عن عبيدِ الله بنِ أبي رافع عن أبيه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا ألفينَّ أحدَكم مُتَّكِئاً على أريكتِهِ، يأتيه الأمرُ ممَّا أُمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعْناه)[1]،

---

(١) سنن ابن ماجه حديث رقم (١٣) ١ / ١٠، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد و محمد كامل قرة بللي وعبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

والقرآن الكريم قد فصَّلَ كثيراً في وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء ١٠٥)، وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء ١١٥)، وقد بيَّنا قبل قليل أنَّ الاحتكام إلى الرَّسول صلى الله عليه وسلم هو شرطٌ من شروط الإيمان، ومن المؤسف في زماننا أنْ تبرُزَ طائفةٌ تؤمن بهذا المنهج المنحرفِ وهم مَنْ يُسمَّوْن اليوم: بـ (القُرآنيين) -والقرآنُ منهم براء- فلا يؤمنون إلا بما جاء نصُّهُ في القرآن.

وهناك نوعٌ آخر من التفريق بين ما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو تفريقٌ أخفى من النَّوع الأوَّل؛ وهو أخْذُ النصِّ من كتاب الله تعالى دون النَّظر في سياقه التنزيليِّ الذي جاء به، وهو ما سنشير إليه لاحقاً، لكنَّ ما يَهُمُّنا هنا أنْ نقول أنَّ العمل بالنَّصِّ من من غير الاعتبار إلى السبب التنزيليِّ الذي جاءت به السنة والسيرة النبوية لَيُعَدُّ صورةً من صور التفريق بين اللهِ ورسوله وذلك في الأحكام السياسية، وهو وجهٌ من أوجه الانحراف عن المرجعيَّة.

٤ - تقديم رأي الأغلبيَّة على مفصَّل القرآن:

قالَ الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام ١١٢-١١٧).

من صور الانحراف عن المرجعيَّة الاعتقاد بأنَّ مرجعيَّة القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة لا تحتوي على أحكام تفصيليةٍ في الحياة السياسيَّة، ومن ثَمَّ اتباعُ الأحكام السياسيَّة التي تقوم على رأي الأغلبيَّة من غيرِ الرُّجوع إلى المرجعيَّة القرآنيَّة، وقد سمَّى اللهُ -عزَّ وجلَّ- هذا الصنف من هذه الأغلبيَّة التي ترفض الاحتكام إلى المرجعيَّة بأنهم شياطين الإنس، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام ١١٢)، وقد بيَّن اللهُ حال قوم من النَّاس يميلون بأفئدتهم وقلوبهم إلى ما يقوله شياطين الإنس فقال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾(الأنعام ١١٣)، وقد ردَّ اللهُ على هذا الصِّنف الذين يتَّبعون رأيَ الأغلبية دون الاحتكام إلى مُفصَّل القرآن فقال: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الآية الكِتَابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) وفي الآية استفهامٌ استنكاريٌّ على من يبتغي غيرَ اللهِ حَكَماً، والجملة المؤكِّدة لهذا الاستفهام الاستنكاري جاءت في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾ فهي (حال) مؤكِّدة للإنكار، وإعراب (مُفصَّلا) هي بأنها (حالٌ) عن الكتاب، أيْ أنَّه أنزل إليكم الكتاب فيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ لا على أمثال ما تظنُّون من أنَّه لم يأتِ بأحكامٍ تفصيلية، وقد بيَّن الله تعالى بأنَّ أهلَ العلمَ هم الذين يُدركون

بأنَّ القرآن الكريم فيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ حينما قال تعالى: (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنَّهُ مُنَزَّلٌ من ربِّك بالحق)، والحقُّ هنا: هو إدراك وجه كَوْنِ القرآنِ الكريم فيه تفصيلُ كلِّ شيء، وأهلُ العلم عنَّا هم المذكورون في الآية الأخرى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٩)، وقد نهى اللهُ نبيَّهُ والخطاب مُوجَّهٌ لأمَّته أيضاً بأنْ لا يكونوا من الممترين الذي يتَّبعون الظنَّ وذلك باستعمال (لا) النَّاهية السَّابقة للفعل المضارع المتصل بنون التوكيد الثقيلة: (فلا تكوننَّ)، للمبالغة في النَّهي أن لا يكون منهم.

ثمَّ أعقب الله الآية بأنَّ ما جاء في كتاب الله فهو تامٌ صِدقاً وعدْلاً، لا يتبدَّلُ ولا يتغيَّر، ليكونَ صالحاً للتطبيق في كلِّ زمانٍ ومكان، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنعام ١١٥)، ثمَّ أعقبَه بمآل من يحيدُ عن اتِّباع ما جاء في كتاب الله تعالى، ويُطيع الأغلبيَّة التي تقدم آرائها على منهج الله فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام ١١٦)، باستعمال أداة الشَّرط (إنْ) يعقبُه فعل مضارع (تطع)، واستعمال الفعل المضارع (يُضلُّوك) لإفادة الاستمرارية والتكرار في كلِّ زمان ومكان، فكلما قدَّمت القيادةُ رأيَ الأغلبيَّة على اتِّباع المرجعية القرآنية، تتكرَّرُ نفس النتيجة ويكون الضلال، ثم عقَّبت الآية بتوضيحِ علَّة النَّهي عن اتباع رأي الأغلبية التي لا تتبع إلا الظن، وذلك باستعمال حرف (إنْ) النَّافية التي هي بمعنى (ما)، وحرف (إنْ) في العربية أشدُّ نفياً من (ما)، فيكون المعنى: (ما) يتَّبعون إلا الظن، و(ما) هم إلا يخرصون، والاستثناء في الموضعين هو استثناءٌ مفرَّغ، وإذا كان النَّهي عن اتباعِ رأي الأغلبية لأنَّه مبنيٌّ على اتباع الظنِّ، فيكونُ اتبّاعُ المرجعية القرآنية لأنَّه مبنيٌّ على اليقين، والظنُّ واليقين لا يستويان، واليقينُ في القرآن، والظنُّ في الأغلبية، ولا يُصار إلى الثانية مع وجود الأولى.

وفي سياق الكلام عن اتِّباع رأي الأغلبية يجْدُر بنا أنْ نُنبِّه هنا إلى أنَّه «يوجد بعض المفكِّرين السياسيين قد اعتبَر حكم الأغلبيَّة هو من أسوء أنواع الحُكْم، ومنهم الفيلسوف المعروف «أفلاطون» حيث كان يرى أنَّ حُكم الفلاسفة هو من أرقى أنواع الحكومات، لأنَّه حَكَم القلَّة المستنيرة أو المتعلِّمة، لذلك لم ينظرْ بارتياح إلى الحكم الديمقراطي، لأنَّ الشَّعب جاهلٌ بطبيعته، وبالتالي فإنَّ حُكْم الأغلبية المطْلقة لا يمكن أنْ يُفرز إلا نظاماً ديماجوجياً أو سفسطائياً، ومثلَ أفلاطون ذهب المفكر السياسي الروماني «شيشرون» أيضاً إلى أنَّ الحكم الديمقراطي هو من أسوء أنواع الحكومات»[1].

ونحن وإنْ كنَّا قد تكلمنا عن أوجه الانحراف في المرجعية بشيءٍ من التفصيل، فيَجدُرُ بنا أنْ ننبِّهَ هنا إلى أنَّنا قد عالجنا أوجه هذا الانحراف في هذه النظرية بالتفصيل كما سيأتي بيانه، والله الموفق.

وأخيراً: فإنَّ المتأمل في أوجه الانحراف عن المرجعيَّة يجدُ أنَّ كلَّ خللٍ وصفه القرآن الكريم في واقع الأمَّة مردُّهُ للانحراف -الجزئيِّ أو الكليِّ- عن طاعةِ اللهِ والرَّسول، وهذا ما سبَّبه غياب المرجعية أو الانحراف عن المرجعية.

(١) ينظر: مبادئ في علم السياسة، حسن نافعة، مكتبة الشروق الدولية: ٢٠٠٢م.

نماذج من منهجيَّات الانحراف

اتِّباع المتشابه	التفريق بين الله والرسول	الإيمان بالمرجعيَّة مع رفض الاحتكام إليها (التحاكم للطاغوت)	تقديم رأي الاغلبيَّة على مفصَّل القرآن

المطلب السادس:
نتائج الانحراف عن المرجعية.

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ (النور ٦٣).

أوردنا في المطلب السابق بعض أوجه الانحراف عن المرجعية، وقد مضت سنة الله عز وجل بدعوة الخلق للاستجابة لأمره بالترغيب تارة وبالترهيب تارةً أخرى، فإما أن يتّبعوا أمره راغبين أو يقع عليهم العذاب إذا هم خالفوه، ومن حاد عن منهج الله فليس له إلا خزي الدنيا والآخرة، ومن تمام عدل الله عز وجل أنه نبهنا في كتابه إلى هذه الأوجه من الانحراف وحذرنا من عواقب الوقوع فيها فمن أصَمَّ أُذنيهِ عن السماعِ، وأعمى عينيهِ عن الإبصارِ، وعطّلَ عقله عن التفكّرِ، وأقفلَ قلبه عن التدبّرِ -والعياذ بالله- فقد استحق هذه النتائج:

١ - الفتنة:

قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور ٦٣).

٢ - التنازع والفشل وذهاب الرِّيح:

قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال ٤٦).

وقال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران ١٢٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران ١٥٢).

٣ - الاختلاف والشِّقاق والتفرقة:

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (البقرة ١٧٦).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(آل عمران ١٠٥).

٤ – إحباطُ العمل وإبطاله:

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام ٨٨).

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ (التوبة ١٧).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الزمر ٦٥).

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (محمد ٩).

وقال عزَّ وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (محمد ٢٨).

وقـال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (محمد ٣٢).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات ٢).

٥ – الخسارة:

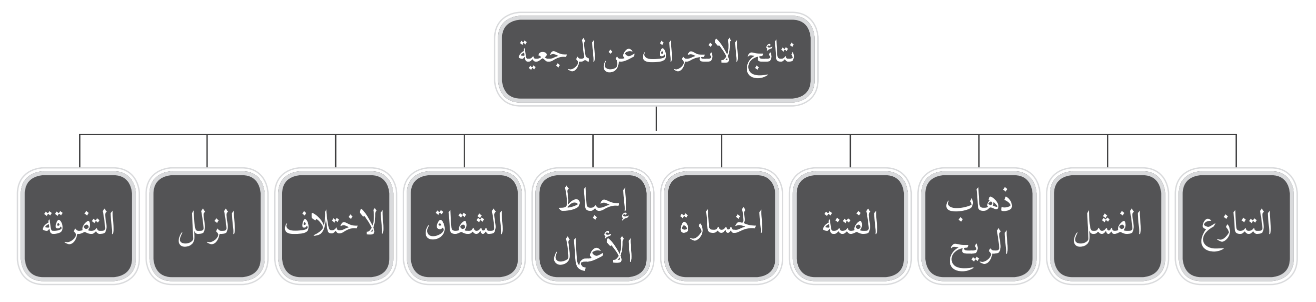
قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٩).

وقال عزَّ وجل: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (يونس ٩٥).

٦ – الزَّلل:

قال الله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة ٢٠٩).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل ٩٤).



المطلب السابع:
وقفة مع سورة الإسراء

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٢-٧٧).

استفتحت الآيات بالحديث عن العمى، وليس المقصود بالعمى عمى البصر؛ بل هو عمى البصيرة عن إدراك شمولية كتاب الله وقدرته على علاج تفاصيل حياة الفرد والأمَّة، فمن لم يُدرك حقيقةَ هذه المرجعيَّة رغم وضوح الدَّلالة على ذلك فهو أعمى في الدنيا، ويُحشر يوم القيامة على ذلك -والعياذبالله-.

ثمَّ فصَّلت الآيات لنا ثلاثة مستوياتٍ من حيث العلاقة بالمرجعيَّة، ووضحت المصيرَ المحتوم لكلِّ مستوىً من هذه المستويات: مصيرُ من يتَّصِلُ بالمرجعيَّة اتصالاً كاملاً، ومن ينفصلُ عنها انفصالاً جزئيَّاً، ومن ينحرف عنها انحرافاً كليَّاً، ثمَّ ختمت الآياتُ بتقرير أنَّ هذه سُنَّة من سننِ الله التي لا تتحوَّل ولاتتبدَّل ولا تُحابي أحداً: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٧).

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾(الإسراء ٧٣).

تحكي لنا هذه الآية عن الصِّنفِ الأوَّل الذي انفصل عن المرجعيَّة انفصالاً كاملاً؛ فبدأت الآيات بتوضيح مكر أعداء الله، وسعيهم لفتنة الناس عن دينهم وصرفهم عن المنهج الذي ارتضاه الله لهم، فمن دارَ في فلكهم فأنكر صلاحيَّة هذا المنهج وارتضى منهجاً غيرَهُ بديلاً عنه كالقوانين الوضعيَّة فقد انفصل عن المرجعيَّة وانحرف عن المسار القويم انحرافاً تامَّاً، وصار واحداً منهم وكان لهم رفيقاً وخليلاً.

﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٦).

تُمثِّل هذه الآية المستوى الثَّاني من الاتصال بالمرجعيَّة، وهو الاتصال الجزئيُّ أو الانحراف الجزئيُّ بالأصح؛ لأنَّ أيَّ نقصٍ في كمالِ الاتصال إنما هو انحرافٌ عن المسار يجب تصحيحه وإلا فلن نصل إلى وجهتنا التي نريد بل سنسير بعيداً عن الهدف، وتحملُ هذه الآية في طيَّاتها الدَّلالة على شمولية المرجعيَّة ووجوب كمال اتِّباعها؛ لأنَّ أيَّ مستوىً من الانحراف عن المرجعيَّة ولو كان شيئاً قليلاً اعتُبر رُكوناً لأعداء هذا الدين، ومن أراد أن يستمدَّ التثبيت من الله عزَّ وجلَّ فإنَّ عليه اتباعُ أمرِه واجتناب نهيِه في أحْلَكِ الظروف وأصعبها، والثبات على ذلك وإن كان ظاهر الأمر يوحي بأنَّ هذا الثبات يؤدي إلى تكالب الأعداء والهلاك المحتَّم، وأنَّ التنازل والالتقاء مع الأعداء في منتصف الطَّريق قد يجلِبُ بعضَ المنافع ويحقِّقُ بعض المصالح ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾ (القلم ٩).

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء ٧٥).

ثمَّ تمضي الآياتُ لتوضِّحَ عاقبة من ينحرف جزئياً عن المرجعيَّة ويَرْكنُ إلى أعداء الله فهو وإنْ لم يصل إلى مرحلة الانحراف الكامل عن المرجعيَّة والخروج من دائرة الإسلام كالصِّنفِ الأوَّل، إلا أنَّه ليس أهْلاً لاستحقاق وعد الله بالنَّصر والاستخلاف والتمكين، إذ لا بدَّ لمن أراد بلوغ ذلك من تحقيق كمال الاتِّصال بالمرجعيَّة ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (محمد ٧)، بل إنَّ مصيرَ من ينحرف عن المرجعيَّة -ولو جزئياً-هو الخذلانُ ومضاعفةُ الجهود والتضحيات دون تحقيق نتائج مأمولة، وكأنَّ الأدوات التي تُستخدم قد فقدت قُدرتها على التَّأثير والتغيير، ولربما يكونُ هذا الأمر عقوبةً تنالُهُ حتى يَؤوب إلى الطَّريق القويم ويُصحِّحَ المسار، وبغير ذلك لن يستحقَّ تأييد الله ولا نصره.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٦).

تنقُلنا هذه الآية إلى المستوى الثالث من مستويات العلاقة بالمرجعيَّة؛ وهو الاتِّصال الكامل والثَّبات التامُّ رغمَ كلِّ الظُّروف، وتبدأ الآية بوصْفِ سُلوك أعداءالأمَّة، كردَّة فعلٍ مباشرةٍ على الثَّبات على هذا الدين رغم الإغراءات والابتلاءات، فيستنفرون قوَّتهم لاستفزاز الثابتين بأقصى ما لديهم من إمكانيات، محاولين بذلك القضاء على هذا المشروع وأصحابه، ولكنَّ اللهَ لهم بالمرصاد، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ (إبراهيم ٢٧)، إنَّ استفزازهم لكم وثباتكم على ما أنتم عليه، هو طريقكم للتمكين وعودتكم منتصرين، مهما بلغ أذاهم فإنَّ مآلهم الخُسران المبين في الدُّنيا قبل الآخرة.

وتأمَّل: كيف أنَّ قليلاً من الرُّكون مآلهُ ضَياعٌ محتوم: (لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً) وقليلٌ من الثبات مآله النَّصر الموعود بإذن الله: (وإذاً لا يَلْبَثونَ خِلافَكَ إِلَّا قليلاً) ولك -رعاك الله- أنْ تختارَ بين قليلين، على إثرهما ضَياعٌ دائمٌ أو نصرٌ حاسم.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٧).

هذا المشهد ما هو إلا سنَّة ثابتة قدَّرها الله لخلقه، سنَّة لا يبدِّلها تغيُّر الأزمان ولا الشُّخوص، تُصوِّر لنا خطر الخروج عن جادة الطَّاعة وكمال الاتباع، وتُترجم لنا ما تعيشُهُ الأمَّة من الفشل المستمر، وعدم القدرة على الإنجاز مع كثْرة التضحيات وضخامة الجهود.

فمُقتضى ما مضى:

ستبقى الأمَّة في حالةٍ من الفشل والتنازُع وذهاب الرِّيح وعدم القدرة على التغيير والتأثير، ولن تخرج من حالة مُضاعفة الجهود دون نيلِ المنشود، حتى تتَّصِل اتصالاً كاملاً بمرجعيتها، تمسُّكاً واعتصاماً وطاعة واستجابة، وردّاً إليه وتحاكُماً فيه، حتى يتسنَّى لنا الاتفاق على مرجعيَّة كتاب الله تعالى في تحصيل الهدايات، وحلِّ المشكلات،

والنَّجاة من المعضلات، وتحكيم الشّجارات، وبلوغ برِّ الأمان، وقيادة السَّفينة في الرِّياح العاتيات، في ظلّال تلاطُم العنيف لأمواج كالجبال، لنصل إلى النَّصر الموعود، والتمكين المنشود.

قال سيد قطب -رحمه الله-:

«وأنَّ القرآن -كتاب هذه الدَّعوة ودستور هذه الأمَّة- ينهض بهذا كلِّه.. في صورةٍ شاملةٍ كاملةٍ متوازنةٍ دقيقة، صورة تجعل من الحتْم على كلِّ من يريد إعادة بناء هذه الأمَّة وإحياءها وبعثها لتنهض من جديدٍ بتبعاتها ودورها؛ أنْ يتَّخذَ من هذا القرآن منهجاً لدعوته، ومنهجاً لحركته، ومنهجاً لكلِّ خطوة في طريق الإحياء والبعث وإعادة البناء.. والقرآن حاضرٌ لأداء دوره الذي أدَّاه أوَّل مرَّة، وهو خطاب الله الباقي للنَّفس البشريَّة في كلِّ أطوارها، لا تنقضي عجائبه ولا يَخلَقُ على كثْرة الرَّد.. كما يقول عنه أعرف النَّاس به الذي جاهد به الكفَّار والمنافقين وأهل الكتاب المنحرفين، وأقام به هذه الأمَّة المتفرِّدة في تاريخ الناس أجمعين..»[1].

المبحث الثاني:
مرجعية السنة النبوية في الحياة السياسية.

بنتيجة كلِّ ما سبق، يُستَلزَمُ منَّا بطبيعة الحالِ النَّظرُ في الواقع الذي نزل عليه القرآن، والنَّموذج التطبيقيِّ للاستهداء بالهداية القرآنيَّة، والتوجيهات الرَّبانيَّة، وهي سيرة الرَّسول الأعظم والنَّبيِّ الأكرم، جامع خصال الهدى، وسالك سبيل الرَّشاد، إضافةً إلى سنَّته من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير، إذ إنَّ القرآن قد دلَّ على وجوبِ الأخْذِ بها والعمل بمقتضاها.

قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف ١٥٧).

وقال -عزَّ وجل-: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف ١٥٨)

وفي الآية:

أنَّ اتباع النبي صلى الله عليه وسلم مرتجى الهداية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، ومِئنةُ الوصول إلى تحصيل المأمول.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٧٩٣، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

لقد قرن الله طاعته بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أغلب مواطن التوجيه بل ذكره باباً محصوراً لطلب طاعة الله:

فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النساء ٨٠).

وأمرنا الله عزَّ وجل بأنْ نستجيب للنبي صلى الله عليه وسلم:

فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص ٥١).

وأمرنا بالتَّأسي به في كلِّ موطن:

فقال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ (الأحزاب ٢١).

بل إنَّ اتباعَهُ هو الترجمة الوحيدة لحبِّ الله:

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (آل عمران ٣١).

كما أنَّ الأخذَ والرَّدَّ لا بدَّ أنْ يكونا محصورين فيما قدَّمه لنا رسولنا العظيم:

قال سبحانه: ﴿ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر ٧).

وأنَّ الاهتداء إلى صراط الله المستقيم يكون بالاهتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (الشورى ٥٢).

يقول الشيخ سعيد حوى -رحمه الله-: «إنَّ كتاب الله لا يُفهم فهماً تطبيقيًّا بدون السُّنة، فمثلاً القرآن أمر بالصَّلاة، والسُّنة هي التي أرشدَتْنا إلى كيفية هذا الأمر، وكذلك الزَّكاة هي التي حدَّدتْ نسبتها، وهكذا بقيَّة الإسلام، لذلك كان من اتباع كتاب الله اتباع سنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء ٨٠)...» ثمَّ يقول -رحمه الله-: «**وعدا عن ذلك فإنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم هو المظهر العمليُّ للقرآن من النَّاحية التطبيقيَّة**»[1].

وقد نبَّهَ النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنَّ السُّنَّة النبويَّة هيَ وحيٌ من الله تعالى فقال: (أَلا إِنِّي أُوتيتُ الكِتابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلا إِنِّي أُوتيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلا يوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَني شَبْعاناً عَلى أَريكَتِهِ يَقولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَما وَجَدْتُمْ فيهِ مِنْ حَلالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَما وَجَدْتُمْ فيهِ مِنْ حَرامٍ فَحَرِّموهُ)[2].

وحاصل هذا:

(١) جند الله ثقافة وأخلاقا ١٠٥، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة السابعة: ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

(٢) مسند الإمام أحمد حديث رقم (١٧١٧٤) ٢٨/ ٤١٠، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد، إشراف: د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

▸ النَّظر للسُّنة على أنهَّا التطبيق العمليُّ الشامل لكمالات القرآن، فكمال منهجها من كمال ما نزل فيها.

▸ دراسة خصائص هذه المرحلة من حيث علاقتها بالتنزيل والواقع، على أنها خصائص دائمة بطبيعة التشريع، لا خصائص خاصَّة لمرحلة النُّبوة فقط.

▸ وجوب النَّظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وما مرَّتْ به دعوته من مراحل، وكيف حصل له التَّمام والبلوغ.

ثمَّ:

▸ النَّظرُ فيما نزل عليه من آياتٍ توجِّه وتُرشد إلى السَّبيل، وتُقرِّرُ له الخطوة التالية في مختلف المراحل وتنوُّع الظُّروف من الضَّعف إلى القوة، ومن الدَّعوة إلى الدَّولة.

ثمَّ:

▸ النَّظر في التدابير النَّبويَّة، والقرارات السياسيَّة التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة الواقع والتحدي، وتوجيه دفَّة الحركة والعمل، وانسجام ذلك كلِّه مع الظَّرف السِّياسيِّ وطبيعةِ المرحلة.

وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل في المباحث القادمة.

المبحث الثالث:

مرجعية الخلافة الراشدة في الحياة السياسية

إذا كان الخطاب السياسيُّ القرآنيُّ خطاباً إلهياً، والخطاب النَّبويُّ وَحْياً إلهيَّاً وتطبيقاً بشريَّاً، فإنَّ الخطاب الراشديَّ وسنن الخلفاء في باب الإمامة وسياسة الأمَّة هي **النَّموذج البشريُّ المحضُ للخطاب السياسيِّ الإسلاميِّ**، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتمسُّك بسُنن الخلفاء الراشدين المَهْديِّين من بعده، فقال: «مَنْ يعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين من بعدي، تمسَّكوا بها، وعضّوا عليها بالنَّواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار»[1]، وفي رواية أخرى: (عَنِ العِرْباضِ بن سَارِيَةَ، قالَ: وَعَظَنا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً بَعْدَ صَلاةِ الغَداةِ مَوْعِظَةً بَليغَةً ذَرَفَتْ مِنْها العُيونُ وَوَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، فَقالَ رَجُلٌ: إنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَماذا تَعْهَدُ إلَيْنا يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: أُوصيكُمْ بِتَقْوى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافاً كَثيراً، وَإيَّاكُمْ وَمُحْدَثاتِ الأُمورِ فَإنَّها ضَلالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتي وَسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْها بِالنَّواجِذِ)[2].

---

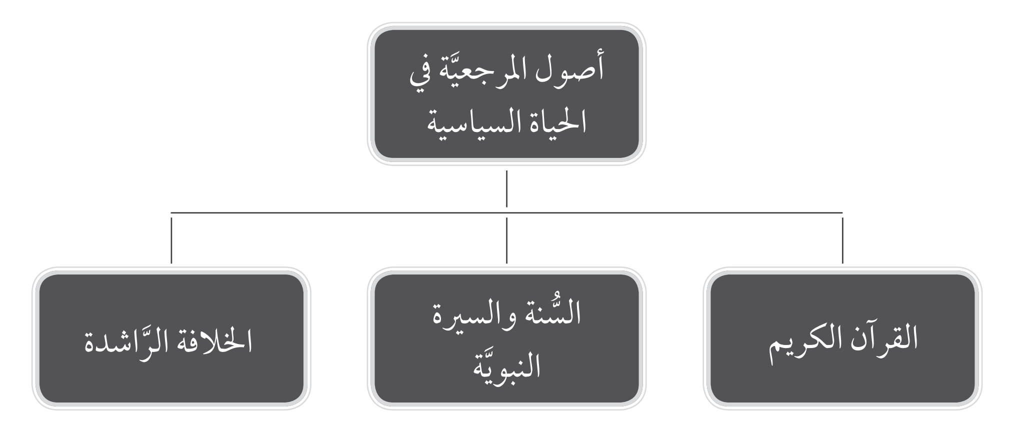
(١) سنن أبي داود حديث رقم: (٤٦٠٧) ٧/ ١٦–١٧، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم: (٢٦٧٦) ٤/ ٣٤١، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي– بيروت، ١٩٩٨م.

وقد دلَّ الحديث على أنَّ السُّنن والإجماعات السِّياسيَّة للخلفاء الخمسة هي كذلك مصدرٌ يجب النَّظر فيه والاسترشادُ به في باب الإمامة والسِّياسة؛ ذلك أنَّ هذه المرحلة من حياة الأمَّة هي التطبيق البشريُّ المحض الأمثلُ لأنوار الكتاب والسُّنة، وفيها تكميلٌ منطقيٌّ لما لا يمكن أنْ يحصل في العهد النَّبوي، من مثل انتقال السُّلطة والبيْعَة، وسنعرض لهذا لاحقاً إنْ شاء الله تعالى.

وبإضافة فترة الخلافة الرَّاشدة؛ يكتملُ المشهد المرجعيُّ للأصول الإسلاميَّة السِّياسيَّة، على صعيد التقعيد النَّظريِّ وعلى صعيدِ التطبيق البشريِّ، في كلِّ المساحات التي قد تطرأ على الواقع وتمرُّ بالأمَّة، أو تمرُّ بها الأمَّة في مختلف مراحل حياتها.

فالقرآن الكريم كتاب هدىً ونور ورحمة وموعظة، وواقعٌ يتنزَّل عليه الكتاب كنموذجٍ تطبيقيٍّ بشريٍّ متَّصل اتصالاً مباشراً بتوجيه الوحْي، ثم واقعٌ بشريٌّ محض، يستهدي بما جاء في الأصْلَين الكبيرين: الكتاب والواقع النَّبوي، ويُتمِّم تغطية الواقع ويستكمل بنور المرحلة النَّبويَّة بعض المشاهد السِّياسيَّة الشَّرعيَّة التي حال دون اشتمال السيرة النَّبويَّة عليها خصوصيَّة النبي صلى الله عليه وسلم.



إذا اكتمل المشهدُ المرجعيُّ على هذا النَّحو، صرَّف الله فيه الآيات ومثَّل الأمثال، وقصَّ القصص، وأنزل الأحكام والأخبار، على ضروب من التقدير والتأصيل، وكذا التنفيذ والتطبيق، وإذا كان ذلك فليس على الأمَّة إلا أنْ تتَّفق على هذه المرجعيَّة، إيماناً وتسليماً، وانقياداً لمقتضى الدَّليل: قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (الأنعام ١١٤)، والثِّقة بالله أنَّه ما كان ليِتْركَ الأمَّة الخاتمة، حاملة لواء التوحيد، ووارثة إرث النُّبوة والدَّعوة، دون أنْ يدلَّها على الهدى، وينقذها به من الضَّلال.

وفي الحديث الشريف: (إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي)[1]، ثمَّ إنها إذا اتفَّقت على هذه المرجعية –وهو مُقتضى إيمانها وإسلامها– ؛ وجب على العلماء وأوْلي الأمر فيها أنْ يسعوا إلى

(١) المستدرك على الصحيحين حديث رقم: (٣١٩) ١/ ١٧٢، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية–بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

ضبط أصول الاستنباط من هذه المرجعيَّة، قياماً بأمر الله تعالى وأداء لواجب دينه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء ٨٣)، وسنأتي على تفصيل هذا لاحقاً إنْ شاء الله، إذ نقدِّم التصوَّر العامَّ فقط، وعلى الله الاتِّكال.

المبحث الرابع:

العلاقة بين المصادر المرجعية والحاجة إلى النظر والاجتهاد

يَحسُنُ أن ننبِّهَ على ضرورة الرَّبط بين هذه المصادر أثناء العمل لاستنباط الهدايات، (**وهذا الرَّبط يحتاج أولاً لفهم ماهيَّة طبيعة هذه المرجعيَّة وخصائصها التي أهَّلتْها أنْ تكونَ معجزةً خالدةً لكلِّ زمانٍ ومكان، ولا أعتقد أنَّنا سنصل إلى هذا الفهم الدَّقيق إلا بمنهجيَّة العمل المستمر ومحاكاة مرحلة النزول الأوَّل**)، وأحبُّ أنْ أترك المقام لشهيد المفسِّرين سيد قطب-رحمه الله- ليتكلَّمَ حول هذا الانسجام والترابط بين القرآن والواقع التطبيقيِّ له، وأنَّه بالنَّظر فيهما يمكن لعلماء الأمَّة ودُعاتها اليوم أنْ يبثُّوا فيها الحياة، ويعيدوا إليها القدرة على القيام برسالتها:

(هذا القرآن هو كتابُ هذه الدَّعوة، هو روحها وباعثُها، وهو قَوامها وكيانها، وهو حارسُها وراعيها، وهو بيانها وتُرجمانها، وهو دستورها ومنهجها، وهو في النِّهاية المرجع الذي تستمدُّ منه الدَّعوة -كما يستمدُّ منهُ الدُّعاة- وسائلَ العمل، ومناهج الحركة وزاد الطَّريق.

ولكنْ ستظلُّ هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نتمثَّل في حِسِّنا ونستحضر في تصورنا أنَّ هذا القرآن قد خوطبت به أمَّة حيَّة ذاتَ وجودٍ حقيقيٍّ، ووُجِّهَت به أحداث واقعية في حياة هذه الأمَّة، ووجِّهَت به حياة إنسانيَّة حقيقيَّة في هذه الأرض، وأديرت به معركة ضخمة في داخل النَّفس البشريَّة وفي رقعةٍ من الأرض كذلك، معركة تموجُ بالتَّطورات والانفعالات والاستجابات.

وسيظلُّ هنالك حاجزٌ سميكٌ بين قلوبنا وبين القرآن، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنَّهُ مجرَّد تراتيل تعبُّديَّة مُهوِّمة، لا علاقة لها بواقعيَّات الحياة البشريَّة اليوميَّة التي تواجه هذا الخلق المسمَّى بالإنسان، والتي تواجه هذه الأمَّة المسمَّاة بالمسلمين! بينما هذه الآيات نزلتْ لتواجهَ نفوساً ووقائعَ وأحداثاً حيَّة، ذات كينونةٍ واقعيةٍ حيَّة، ووُجهِّتْ بالفعل تلك النُّفوس والوقائع والأحداث توجيهاً واقعياً حيَّاً، نشأ عنه وجود ذو خصائص في حياة «الإنسان» بصفةٍ عامَّة، وفي حياة الأمَّة المسلمة بوجهٍ خاصّ.

ومعجزةُ القرآن البارزة تكْمنُ في أنَّه نزل لمواجهة واقع مُعيَّن في حياة أمَّة معيَّنة، في فترةٍ من فترات التاريخ محدَّدة، وخاض بهذه الأمَّة معركةً كبرى حولَّت تاريخها وتاريخ البشرية كلَّهُ معها، ولكنَّه-مع هذا- يعايش

ويواجه ويملك أنْ يُوَجِّه الحياة الحاضرة، وكأنَّما هو يتنزَّلُ اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الرَّاهن مع الجاهليَّة من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النَّفس، وفي عالم الضَّمير، بنفس الحيويَّة، ونفس الواقعيَّة التي كانتْ له هناك يوم ذاك.

ولكيْ نحصلَ نحنُ من القرآن على قوَّتِه الفاعلة، وندركَ حقيقةَ ما فيه من الحيوية الكامنة، ونتلقَّى منه التوجيه المدَّخر للجماعة المسلمة في كل جيل؛ ينبغي أنْ نستحضرَ في تصوُّرنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التي خوطِبتْ بهذا القرآن أوَّل مرَّة؛ كينونتها وهي تتحرَّك في واقع الحياة، وتواجهُ الأحداث في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها، وتتعامل مع أعدائها وأصدقائها، وتتصارع مع شهواتها وأهوائها، ويتنزَّل القرآن حينئذٍ ليُواجهَ هذا كله، ويوجِّهَ خطاها في أرض المعركة الكبيرة: مع نفسها التي بين جَنبيها، ومع أعدائها المتربِّصين بها في المدينة وفي مكَّة وفيما حولها، وفيما وراءهما كذلك.

أجلْ، يجبُ أنْ نعيشَ مع تلك الجماعة الأولى، ونتَمثَّلها في بشريَّتها الحقيقيَّة، وفي حياتها الواقعيَّة، وفي مشكلاتها الإنسانيَّة، ونتأمل قيادة القرآن لها قيادةً مباشرةً في شؤونها اليومية، وفي أهدافها الكليَّة على السَّواء، ونرى كيف يأخذُ القرآن بيدها خطوةً خطوةً، وهي تعثُر وتنهض، وتحيد وتستقيم، وتضعف وتقاوم، وتتألَّم وتحتمل، وترقى الدَّرج الصَّاعد في بُطءٍ ومشقَّة، وفي صبْرٍ ومُجاهدة، تتجلَّى فيها كلُّ خصائص الإنسان، وكلُّ ضعف الإنسان، وكلُّ طاقات الإنسان.

ومن ثمَّ نشعرُ أنَّنا نحن أيضاً مخاطبون بالقرآن في مثلِ ما خوطبت بِه الجماعة الأولى، وأنَّ بشريَّتنا التي نراها ونعرفها ونحسُّها بكلِّ خصائصها، تملك الاستجابة للقرآن، والانتفاعَ بقيادته في ذات الطَّريق.

إنَّنا بهذه النَّظرة سنرى القرآن حيَّاً يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى، ويملكُ أنْ يعمل في حياتنا نحن أيضاً، وسنحسُّ أنَّهُ معنا اليوم وغداً، وأنَّه ليس مجرَّدَ تراتيلَ تعبُّديَّةٍ مهوِّمة بعيدة عن واقعنا المحدَّد كما أنَّه ليس تاريخاً مضى وانقضى وبطُلَت فاعليتُه وتفاعلُه مع الحياة البشريَّة.

إنَّ القرآن حقيقةٌ ذاتُ كينونةٍ مستمرَّة كهذا الكون ذاته، الكونُ كتابُ الله المنظور، والقرآن كتاب الله المقروء، وكلاهما شهادةٌ ودليلٌ على صاحبه المبدع، كما أنَّ كليهما كائنٌ ليعمل، والكون بنواميسه ما زال يتحرَّك ويؤدِّي دوره الذي قدَّره له بارئُه، الشَّمس ما زالت تجري في فلكها وتؤدي دورَها، والقمر والأرض وسائر النجوم والكواكب لا يمنعُها تطاول الزَّمان من أداء دورها، وجدَّة هذا الدور في المحيط الكوني، والقرآن كذلك أدَّى دوره للبشرية، وما يزال هو هو، فالإنسان ما يزال هو هو كذلك، ما يزال هو هو في حقيقته وفي أصل فطرته، وهذا القرآن هو خطابُ الله لهذا الإنسان-فيمن خاطبهم الله به- خطابٌ لا يتغيَّر؛ لأنَّ الإنسان ذاته لم يتبدَّلْ خلقاً آخر مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدَّلت من حوله، ومهما يكنْ هو قد تأثَّر وأثَّر في هذه الظروف والملابسات، والقرآن يخاطبُه في أصل فطرته وفي أصل حقيقته التي لا تبديل فيها ولا تغيير، ويملك أنْ يوجِّه حياته اليوم وغداً

لأنَّه مُعدٌّ لهذا، بما أَنَّهُ خطابُ الله الأخير، وبما أَنَّ طبيعتَه كطبيعةِ هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل)[1].

إنَّ ما نقدِّمه في هذه النَّظرية هو التطبيق العمليُّ لإيماننا بشمولية التشريع التفصيليَّة للحياة السياسيَّة التي تتحرَّكُ نصوصه لتقودَ الكتلة المسلمة أينما كانت وأينما حلَّت،كما قادت الكتلة الإسلاميَّة الأولى التي تقدِّمُ لنا بذلك نموذجاً تطبيقيَّاً لعلاقة النصِّ بالواقع التي ستبقى امتداداً لبقاء البشريَّة وبقاء حفظ الله للنصوص الرَّبانيّة طالما هي محفوظة ما بقيتْ صلاحيةُ التطبيق قائمةً محفوظة.

إذن فالعلاقة بين المصادر المرجعيَّة والحاجة إلى النَّظر والاجتهاد تستلزمُ مِنَّا أنْ نُدرك خصائصه أولاً ، و هذا ما سنعالجه في الفصل القادم ، بإذن الله.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٣٤٨، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

الفصل الثالث

خصائصُ الأصول المرجعيَّة وشموليَّتها



يحسُنُ قبل البدء بهذا أنْ نُشيرَ إلى أنَّ أيَّة مرجعيَّة ينبغي أنْ تتوَّفر فيها صفات ترشِّحها لتقوم في هذا المقام، وإنْ خلتْ منها أو من إحداها اختَّلت المساحة المرجعيَّة أو اهتزَّتْ.

وقد وفَّى سيِّد -رحمه الله- هذا الموضوع حقَّه في كتابه: «خصائص التصوُّر الإسلاميُّ ومقوِّماته»، وبحثه بحثاً نظرياً شافياً، لا نرى حاجةً لإعادة الكلام فيه هنا، لكن يمكن-للتذكير- إيرادُ العناوين المنبئة عمَّا وراءَها ممَّا يستحضر القارئ، وسيّد -رحمه الله- وإنْ كان يسُوق الكلام مساقَ وصفِ التصوِّر الإسلاميِّ ومقوِّماته فإنَّنا نسوقه -لقرب المقصود واتِّصاله- مساق الحديث عن خصائص «المرجعيَّة» التي يجب الرُّجوع إليها، وهي الكتاب والسنَّة وما لحقها من سنَّة الخلفاء الراشدين، ونحن نتكلَّم بوصفها مرجعيَّة يرجع إليها في قضايا السياسة وغيرها، مع تصرُّفٍ وزيادةٍ ونقصٍ يقتضيها السِّياق، وقد أضفنا ثلاث خصائصَ تعبِّر عن كمال التشريع الإسلاميِّ وجمال خصوصيَّته على باقي الشرائع.

المبحث الأول:
الخصائص التي يجب أن تتوفر في أية مرجعية لكي تكون صالحة للتطبيق

١) الربانيَّة:

وهي أولى خصائص هذه المرجعيَّة، ومصدر هذه الخصائص كذلك، إذْ هي مُستتبعةٌ بقيَّة الخصائص مُنتجةً لها.

ومعنى كونها ربانيَّة؛ أنَّ المصحِّحَ لاعتبارها مرجعيَّةً هي كونها من عند الله باعتباره الخالق الحاكم، وهو ما تقتضيه الآية الكريمة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف ٥٤)، وكونها ربانيَّةً تجعل من هذه المرجعيَّة معصومة الخطأ في الوقوع في الزَّلل باعتبار أصلها لا باعتبار التطبيق البشريِّ لها.

ومن خصائص كونها ربانيَّة أنها بمثابة الدستور الأكمل الذي يَصحُّ أن يلتقي عليه البشر، فلو لم تكن ربانيَّة لصعُب على جميع البشر أنْ يلتقوا جميعاً عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢).

ومن أبرز آثار هذه الخصيصة: شعور الإنسان بأنها ذات سلطةٍ تمتلك حقَّ الأمر والنهي، سلطة أعلى من الإطار الإنسانيِّ وأعلم وأعظم.

وشعوره بأنها من علَّام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية، وبأنها الصالحة لحياة هذا الإنسان؛ إذ إنها مُنزَّلة من الحكيم الخبير، الذي خلق الإنسان وأنزل له ما يُصلح شأنه به في حال رجع إليه واحتكم إليه.

٢) الثبات والحركية:

وبما أنَّها «ربانية» صادرة من الله، ووظيفة الكينونة الإنسانيَّة فيه هي التلقي والاستجابة والتكييف والتطبيق في واقع الحياة، وبما أنَّها ليست نتاج فكرٍ بشريٍّ ولا بيئةٍ معيَّنة، ولا فترةٍ من الزَّمن خاصَّة، ولا عوامل أرضيَّة على وجه العموم؛ إنما هي ذلك الهَدْيُ الموهوب للإنسان هبةً لدينه خالصةً من خالق الإنسان رحمةً بالإنسان، بما أنَّها كذلك، فمن هذه الخاصيَّة تنشأ خاصيَّة أخرى: خاصيَّة «الحَركة داخل إطارٍ ثابتٍ حول محورٍ ثابت».

«هنالك ثباتٌ في مقوِّمات هذه المرجعيَّة الأساسيَّة، فهي لا تتغيَّر ولا تتطوَّر حينما تتغيَّر ظواهر الحياة الواقعيَّة، وأشكال الأوضاع العمليَّة، فهذا التغيير يظلُّ محكوماً بالمقوِّمات والقيم الثابتة لهذا التصوُّر، ولا يقتضي هذا تجميد حركة الفكر والحياة، ولكنَّه يقتضي السَّماح لها بالحركة -بل دفعها إلى الحركة- ولكن داخل هذا الإطار الثابت»[1].

وهذا عينُ ما ندعو إليه اليوم: تثبيت الإطار العام والاتفاق على المرجعيَّة، ثمَّ تفعيل الحركة في داخله، والاستفادة من خَصيصة الحركة في مواجهة الأوضاع والوقائع المختلفة، بما يجمع بين حركة الواقع وأصالة القاعدة.

فهما -إذن- خصيصتان: الثبات والحركية، على هذا النحو المبيَّن، وسيأتي الكلام على الحركية مفصَّلاً إنْ شاء الله.

٣) الشموليَّة:

وهذه الخَصيصة ناشئة من طبيعة الخصيصة الأولى «الربَّانيَّة»؛ ذلك أنَّه كذلك لأنَّه من صُنع الله لا من صنع الإنسان، والشمول طابع الصنعة الإلهيَّة الأصيل.

وسنعرض لهذه الخصيصة بشكلٍ منفرد في مبحث مستقل، فنؤخر الحديث عنها إلى الموضع المناسب.

٤) التوازن:

وهذه الخصيصة تتصل بخصيصة الشمول؛ فهي مرجعيَّة شاملة وشمولها متوازن، «وقد صانتها هذه الخصيصة الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك والغلوِّ هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك، هذه الآفات التي لم تسلم منها مرجعيَّة أخرى»[2].

ومعنى كونها متوازنةً؛ أنها استطاعت الجمع بين سنن الله الكونيَّة وبين القيم الإيمانية بشكلٍ متوازنٍ لا غلوَّ فيه، ولا إقصاء فيه، لأي سنةٍ من سنن الله أو أيَّةِ قيمةٍ إيمانية، لا على أمثال ما مُنيت به بعض الانحرافات الموجودة الآن على السَّاحة من التفريق بين سنن الله الكونيَّة وقيمه الإيمانية!

إنّ العود إلى مرجعيَّة متوازنة يورث سيراً متوازناً، ويضمن نتائج أقرب إلى الصَّواب، وفقدان هذه الخصيصة في المرجعيَّة أو عدم فهمها بشكلٍ متوازن يؤول إلى كوارث في النتائج، وانحراف في التطبيق، وليست المفاهيم

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ٧٥-٧٦، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، المتوفى: ١٣٨٥هـ، دار الشروق، بدون تاريخ.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ٧٥-٧٦، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، المتوفى: ١٣٨٥هـ، دار الشروق، بدون تاريخ.

والنتائج غير المتوازنة منّا اليوم ببعيد.

٥) الواقعيَّة:

الواقعية خصيصة يجب توافرها في أيِّ مرجعيَّة، فهي فرعٌ عن كونها ربانيَّة وشموليَّة، فالمرجعيَّة تتعامل مع الحقائق الموضوعيَّة ذات الوجود الحقيقي المستيقن والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصوراتٍ عقليَّة مجرَّدة، ولا مع مثالياتٍ لا مقابل لها في عالم الواقع أو لا وجود لها في عالم الواقع.

«ثمَّ إنَّ التصميم الذي تضعه المرجعيَّة للحياة البشريَّة يحمل طابع الواقعيَّة كذلك؛ لأنَّه قابلٌ للتحقيق الواقعيِّ في الحياة الإنسانيَّة»[١].

وهذه المرجعيَّة حتى تكون مرجعيَّة حقاً لا بدَّ أنْ تملكَ مقومات مواجهة الواقع ومعالجته والتصدي له.

ولا شكَّ في كون الإسلام مرجعيَّة تملكُ على وجهٍ لا مزيد عليه إعطاء الحلول الواقعيَّة العمليَّة التي تهدي أبناءَه لأحسن التصرُّف في استنقاذ الدين وهداية الأمَّة واتخاذ القرار .

فالإسلام لو لم يملك ذلك -حاشا- لما صلح أن يكون مرجعيَّةً أصلاً، إذ أنَّ من خصائص أيَّة مرجعيَّة أنْ تملك ذلك حتى تصلح أنْ يرجع إليها النَّاس، وتؤوب إليها البشريَّة في حوالك الظلمات، وشدائد المدلهمَّات.

المبحث الثاني:
الخصائص المميزة للمرجعية الإسلامية

ولمرجعية هذه الأمَّة صفاتٌ أخرى قد تكون خاصةً لها حصراً دون باقي الرسالات، وعلى الرغم منْ أنَّ جميعها رسالاتٍ ربانيَّة؛ إلا أنَّ اختصاص رسالة الإسلام بصفاتٍ إضافية يتعلَّق بتفرُّدها كمرجعيَّة كون إعجاز هذا الدين بمرجعيته، لا بما جرى من خوارق السُّنن على يد النبي صلى الله عليه وسلم كمثل الأنبياء السابقين.

- عالمية لكلِّ الخلق؛ إنسهم وجنِّهم، ذكرهم وأنثاهم.
- خالدة محفوظة.
- معجزة بذاتها.

١) العالمية:

لقد ميز الله تعالى مرجعية هذه الأمة بكونها ذا طابع عالمي شمولي لا تختص بإقليم معين، ولا بجنس محدد، فهي لكل البشر على اختلاف أصنافهم وألوانهم، فالنصُّ القرآنيُّ جاء ليعالجَ مشكلاتِ البشر كلِّهم، لا يفترض لنفوذه

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ١٦٩، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، المتوفى: ١٣٨٥هـ، دار الشروق، بدون تاريخ.

حاجزاً بين بني الإنسان، على خلاف المرجعيَّات الأخرى.

ومن طبيعة النصِّ القرآنيِّ أنَّه نصٌّ عالميٌّ في نفسه، معجز بذاته، أنزله الله تعالى ليُعمل فوق كلِّ أرض وتحت كلِّ سماء، ذكرٌ وموعظةٌ لكلِّ العالمين، فيه تفاصيلُ ما يحتاجه البشر في كلِّ زمانٍ ومكان، أنزله الله تعالى لهذا الإنسان الذي لم يتغيَّر ولم يتبدَّل، والقرآن هو هو لمْ يتغيَّر ولم يتبدَّل؛ فكما أنَّه استطاع أنْ ينقلَ الإنسان الأوَّل من حوالكِ الظُّلمات إلى نور الهدايات، فهو يستطيع اليوم وغداً أنْ ينقلَهُ مرَّةً أخرى إنْ استمسك بهديه وقوانينه هذا الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص ٨٧-٨٨).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (يس ٦٩ - ٧٠).

وفي مطلع سورة الفرقان يقول الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان ١).

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ ٢٨).

وقال عزَّ وجل: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف ١٥٨).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران ٨٥).

وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء ١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة ٢٩ - ٣٣).

٢) الخلود والحفظ:

والخلود يعني الاستمرار والبقاء والوراثة على وجهٍ تصلحُ به هذه المرجعيَّة لإدارة شؤون الخلق في أيِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان، فهي لم تُنزَّل لتُنسَخ أو تفنى؛ بل هي خالدةٌ خلود الإنسان على هذه الأرض.

ولولا أنها ربانيَّةً شموليةً عالميَّةً لما صحَّ لها أنْ تكون خالدة، وخلودها واستمراريتها في الحياة يجعل منها مرجعيَّةً ثابتة مرنة، تتكيَّف مع الواقع، وتستطيع الإجابة عن أيِّ سؤالٍ يخطر على ذهن الإنسان، وتستطيع إيجاد الحلول المناسبة لمشاكله كافَّة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف ١٥٨).

وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب ٤٠).

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة ٣٣)، (الصف ٩).

وقد حفظ الله رسالته على وجهٍ لا تحتمل فيه أنْ تحرف أو تنسخ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر ٩).

٣) الإعجاز:

لقد أجرى اللهُ على يَديْ نبيِّه الكريم الكثير من المعجزات التي تبيِّنُ صدقه، وتقطعُ الرَّيب في قلوب المتردِّدين في صدق رسالته، ومن ذلك الإسراء والمعراج، وانشقاقُ القمر، وتكثيرُ الطَّعام القليل، وحنينُ الجذع، وتسبيح الحصى في يده، ونبع الماء من بين أصابعه إلى آخر ما ثبت من ذلك، ولكنَّ معجزة النبيِّ –عليه الصَّلاة والسَّلام– الكبرى الباقية الخالدة هي «القرآن الكريم»؛ فإعجاز هذه الأمَّة هو في مرجعيَّتها وكمالها، وشموليَّة نصوصها وحركيَّتها، ففي قدرة هذه النصوص على الحركة مع الواقع وتطويعه على اختلاف الزمان والمكان إعجازٌ بحدِّ ذاته، وفي شموليَّة نصوصِهِ لكلِّ ما تحتاجه البشريَّةُ من تفاصيل هو إعجازٌ أيضاً، على خلاف ما جاء في معجزات الأنبياء السابقين؛ **فغالبُ الأنبياء كانت معجزاتهم متعلقةً بشخصهم، وبخوارق السُّننِ الكونيَّة، إلا دعوة الإسلام فمعجزتها في مرجعيَّتها، وبقاؤها من بقاء الخلق، ولم تأتِ لخرق سنن الكون بل جاءت لتشرحَ وتكشفَ سنَنَهُ، ولتقدِّمَ منهجيَّةً لتوظيفِ هذه السُّنن في خدمة البشريَّة، وتحقيق النَّجاة في الدَّارين**، وقد أشار الأستاذ سيد قطب –رحمه الله– إلى هذا فقال: «ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنَّه نزل لمواجهة واقع معيَّن في حياة أمَّة معيَّنة، في فترةٍ من فترات التاريخ محدَّدة، وخاض بهذه الأمَّة معركة كبرى حولَّت تاريخها وتاريخ البشريَّة كله معها، ولكنَّه –مع هذا– يُعايش ويواجه ويملك أنْ يوجِّهَ الحياة الحاضرة، وكأنَّما هو يتنزَّل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الرَّاهن مع الجاهليَّة من حولها»[1].

وكما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (ما مِنْ الأَنْبياءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ ما مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّما كانَ الَّذي أوتيتُ وَحْياً أَوْحاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجو أَنْ أَكونَ أَكْثَرَهُمْ تَابعاً يَوْمَ القِيامَةِ)[2]، قال ابن حجر العسقلاني –رحمه الله– في شرح هذا الحديث: «(ما مِنْ الأَنْبياء نَبِيّ إِلا أُعْطِيَ) هَذا دَالٌّ عَلى أَنَّ النَّبي لا

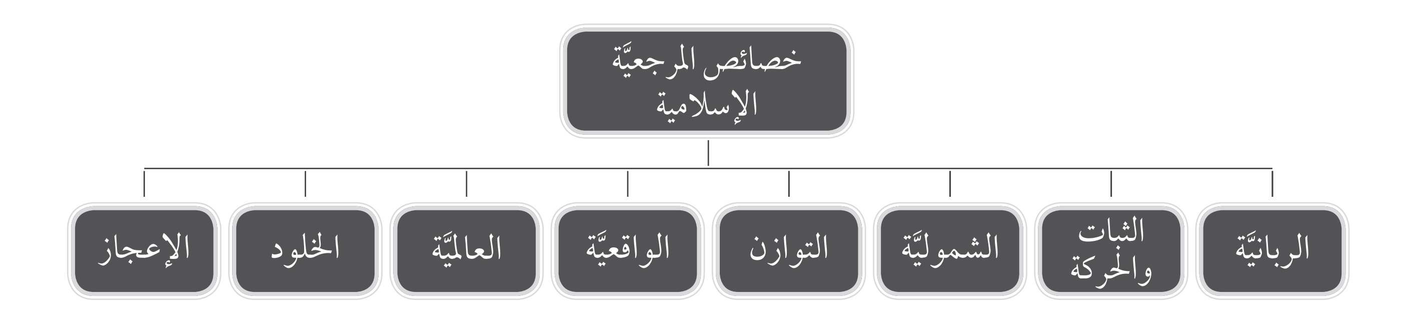
(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٨، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق–القاهرة–بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٨١) ٦/ ١٨٢، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

بُدَّ لَهُ مِنْ مُعْجِزَة تَقْتَضي إِيمان مَنْ شَاهَدَها بِصِدْقِه، وَلا يَضُرّهُ مَنْ أَصَرَّ عَلى المعانَدَة، (مِنْ الآيات) أَيْ المُعْجِزَات الْخَوَارِق، قَوْلـه: (وَإِنَّما كانَ الَّذي أُوتيته وَحْياً أَوْحاهُ اللَّه إِلَيَّ) أَيْ إِنَّ مُعْجِزَتي التي تَحَدَّيْت بِها الوَحْيُ الَّذي أُنْزِلَ عَلَيَّ، وَهُوَ القُرْآن لِما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ الإِعْجاز الواضِح، وَلَيْسَ المُراد حَصْر مُعْجِزاته فيه، وَلا أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ مِنْ المُعْجِزَات ما أُوتِيَ مَنْ تَقَدَّمَهُ، بَلْ المُراد أَنَّهُ المُعْجِزَة العُظْمى الَّتي اُخْتُصَّ بِها دُون غَيْره؛ لأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ مُعْجِزَةً خاصَّةً بِهِ لَمْ يُعْطَهَا بِعَيْنِها غَيْره تَحَدَّى بِها قَوْمه، وَكانَتْ مُعْجِزَة كُلِّ نَبِيٍّ تَقَع مُناسِبَةً لِحالِ قَوْمه، كَما كانَ السِّحْر فَاشِياً عِنْد فِرْعَوْن فَجاءَهُ مُوسى بِالعَصا عَلى صورَة ما يَصْنَع السَّحَرَة لَكِنَّها تَلَقَّفَتْ ما صَنَعوا»[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (الرعد ٣١).

و(العالميَّة) و(الخلود والحفظ) و(الإعجاز): صفاتٌ ثلاث تعتبر من أبرز خصائص ومواصفات الرِّسالة الإسلاميَّة التي تتميَّزُ بها على سائر الرسالات الإلهيَّة، وهي صفاتٌ وإن كانت مترابطةً ومتداخلةً في مضمونها ومحتواها، ولكنَّها في الوقت نفسه متمايزةً فيما بينها، وتستحقُّ الوقوف عندها للتعرُّف على آفاقها الحضاريَّة، ولاسيما في عصرنا الحاضر.



(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ٦، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمدفؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليها تعليقات: عبد العزيز ابن باز، بتصرف.

وبعد:

فهذه خمسٌ من الخصائص يجب أنْ تتوافر في أيَّة مرجعيَّة يرجع إليها الإنسان لتحصيل سعادته في الدنيا وفي الآخرة، وثلاث خصائص أخرى لم تتحقَّق إلا في مرجعيَّة هذه الأمَّة.

ولا شكَّ عند كلِّ مسلم في أنَّ هذه الصفات لا تتوافر اليوم في أيَّة مرجعيَّة من المرجعيَّات المحتملة إلا في المرجعيَّة الإسلاميَّة: القرآنَ والسنَّة وسيرة الخلفاء الراشدين لما دلَّ الدَّليل، وسيأتي التفصيل.

والذين يظنون أنهم تُركوا لعقولهم وحدها يرجعون إليها فقد أعظموا الفِرْية عليها وعلى مُدبِّر أمور الناس وخالقهم؛ إذ تخلُو هذه العقول عن كلِّ هذه الصِّفات والخصائص التي يجب أنْ تتَّصِف بها المرجعيَّات، فليتأمل.

ولكنَّنا في هذه الدِّراسة سنسلِّط الضَّوء على خصيصتين من بين هذه الخصائص، وذلك لطبيعة الدِّراسة وهدفها، وهما:

- الشموليَّة.
- الحركيَّة.

وهما الخصيصتان اللَّتان تخدمان عمليَّة الاستنباط السياسيِّ التي تهدف الدِّراسةُ إلى تجليَتِها وبيانها، والله الموفِّق.

الفصل الرابع

محاور العمليَّة السياسيَّة



المبحث الأول:
محاور العملية السياسية عند الغرب

قبل أنْ نشرع في شرح وتوضيح شموليَّة القرآن والسُّنَّة والخلافة الراشدة لتفاصيل العمليَّة السياسيَّة، لا بدَّ من توضيح مضامين ومحاور هذه العمليَّة بشكل أكثر تفصيلاً، وقد ضمَنَّا في المحاور ما نعتقدُ أنَّهُ شاملٌ لكلِّ جزئيات العمليَّة السياسيَّة من منظورها الشرعيِّ والسياسيِّ الواقعيّ.

ونذكر في هذه العُجالة مُلخصاً لمحاور العمليَّة السياسيَّة في التجربة الغربية نوضِّحُ فيه تطور مفهوم العمل السياسي ومحاوره ومنهجياته:

«(فقد) كان علم السِّياسة وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي عبارةً عن مجموعة من الأدبيات المعياريَّة والاستنباطيَّة، التي كانت تنصَبُّ في مُجملها حول وضع تصوُّرات عن الوضع السياسيِّ الأمثل، وكيفيَّة إقامته مُنطلقةً في الغالب من مُقدِّمات يغلب عليها الطابع الفلسفيّ، ولقد ظلَّ هذا الوضع هو السائد حتى فترة نهاية القرن التاسع عشر الميلادي والذي شهد فيه علمُ السياسة الإرهاصات الأكاديميَّة الأولى لخلق كيانٍ متميِّزٍ له؛ فقد كانت محاولة فصل علم السياسة عن الحقول المعرفية الأخرى التي كانت ترتبط به في الغالب كالتاريخ والفلسفة والقانون هي بمثابة اللَّبنة الأولى في هذا الاتجاه، والذي دُعِّم فيما بعدُ باستحداث أقسامٍ أكاديميَّةٍ متخصِّصَة لعلم السياسة في بعض من الجامعات الغربية.

لقد عُرِفَ علمُ السِّياسة حينئذ على أنَّه «علم الدَّولة» وكان المنهج المتَّبعُ في الغالب منهجاً «استنباطيَّاً»، أمَّا المهمَّة التي كانتَ مُلقاةً على كاهل هذا العلم والمشتغلين به، فقد كانت مُتمثِّلةً في محاولة تطوير المؤسَّسات الحكومية ووضع حدود مفهوم «المواطنة» وتبعاتها، ولعلَّ ما يلفتُ النَّظر أنَّ هذا المفهوم ظلَّ مُرتبطاً بعلم السياسة حتى وقتٍ قريب.

وفي الوقت ذاته كان للثورة الفرنسيَّة وما أعقبها من تطوُّرات أهمُّها بدايات الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا حينئذ دورٌ مهم في إثارة مجموعة من التساؤلات المهمَّة التي تدور في إطار محاولة معرفة المتغيِّرات المؤثِّرة في مجريات التغيير السياسي، كالعادات والتقاليد وأنماط السُّلوك والتراكيب الاجتماعيَّة السائدة ودورها في عملية البناء الاجتماعي، ومن ثمَّ انعكاساتها على مجرى الحياة السياسيَّة، ولعل كتابات «ماركس»، و «فيبر»، و «إيميل دور كليم»، و «منتسكيو» و «جان جاك روسو» وغيرهم كانتْ بمثابة المحاولات للإجابة على مِثْل تلك التساؤلات.

ولقد ظلَّ هذا هو حال علم السياسة حتى بداية القرن العشرين، ولعلَّ المتغيِّرَ الوحيد الذي يمكن ملاحظته على مسار هذا العلم إبَّان تلك الحقبة، هو الاتجاه إلى المنحى الدستوريِّ المفتقر إلى وضوح في الأسلوب التحليليِّ في المعالجة، وبالتالي فلقد ظلَّت الفجوةُ قائمةً بين الواقع السياسي للدولة ونظامها الدستوري.

وخلال فترة ما بين الحربين العالميَّتين، شهد علم السياسة ثلاثاً من أهمِّ النَّقلات النَّوعيَّة في مساره؛ فلقد شكَّلت كتابات «تشارلز ميريام» ، «وهارولد لاسويل» ، «وكابلن» ، «وستيوارت مل» ، أولى هذه النقلات ، فبدلاً من التركيز على الجوانب الهيكلية والقانونية للمؤسَّسات السياسيَّة اتجه الجهد نحو وضع أسس علميَّة جديدة لمسار هذا العلم تنطلق من تقرير **حقيقة أنَّ هذا العلم يتعامل مع الإنسان بكل ما أودعه الله فيه من ميولٍ ونزعاتٍ وأهواءَ وطبيعةٍ متقلِّبة**، ولذلك فقد كان من الطبيعيِّ جداً أنْ يزداد ارتباط هذا العلم بعلوم النفس، والإنثروبولوجيا، والاجتماع، والاقتصاد، والأساليب الكمِّيَّة وغيرها من أفرع العلوم الاجتماعية الأخرى ذات الصِّلة.

أمَّا النَّقلة الثانية فقد كانت في ظهور المفهوم أو المذهب البراجماتي والذي تتلخَّص مُعظم دعاويه بوجوب الاهتمام بالنتائج بدلاً من التركيز على منطقية الأفكار فقط، فالبراجماتية هي في أساسها نظريةٌ فلسفيةٌ معنىً وحقيقةً وقيمةً، من منظورِ أنَّ المنفعةَ لا تعدو إلا أنْ تكون -في التحليل النهائي- المعيارَ الرئيسيَّ لكلِّ قيمة، ولقد شكَّلت كتابات كلٍّ من «جون ديوي» و «وليام جيمس» و «شارلس بيرس» أولى الخطوات في هذا الاتجاه.

والنَّقلة الثالثة تمثَّلتْ في ظهور مفهوم التعدُّديَّة الذي نادى بوجوب توجيه اهتمام البحث في هذا العلم بالمؤسَّسات التي تشارك السُّلطة السياسيَّة في الوظائف السياسيَّة العامَّة، كالأحزاب السياسيَّة، وجماعات الضَّغط والمصالح، ودور الأفراد والنخبة، وغيرهم من الوحدات السياسيَّة الأخرى.

وخلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، شهد هذا العلم جملةً من التطورات المهمَّة والتي فرَضتْها طبيعة المستجدَّات السياسيَّة التي ظهرتْ على الساحة الدَّوليَّة، فلقد كان لظهور المعسكر الشُّيوعيُّ -بأيديولوجيته المختلفة عن الرَّأسمالية وما تبع ذلك من حرب باردة بين الطَّرفين، ثمَّ ظهورُ وحداتٍ دوليَّةٍ جديدةً على المسرح الدوليِّ كنتيجةٍ لنيل الكثير منْ ما سمي لاحقاً بدُول «العالم الثالث» لاستقلالها، ثمَّ قيامِ حركة دول عدم الانحياز، ولبروز قضية التنمية كقضية محوريَّة مهمَّة ذات أبعاد داخليَّة ودوليَّة -تأثيرٌ فاعلٌ على مسار هذا العلم، ممَّا شكَّل نقلةً نوعيةً أشبهَ ما تكونُ «بالثورة» -طبقاً لرأي الدكتور كمال المنوفي- على مسار العلم بأجمعه.

فمن ناحية الاسم؛ فقد تقرَّر في اجتماع دار اليونسكو الذي عُقد في العاصمة الفرنسية باريس عام ١٩٤٨م تسمية هذا الحقل من حقول المعرفة الإنسانية «بعلم السياسة» ليَحلَّ محلَّ الاسم القديم «العلوم السياسية»، محدِّدين له أربعة من الفروع الرئيسيَّة، وهي:

١) النَّظرية السياسيَّة.

٢) المؤسَّسات الحكوميَّة.

٣) الأحزاب والفئات والرَّأيُ العام.

٤) العلاقات الدَّولية.

ثمَّ جاء تعريف «ديفيد إيستن» لعلم السياسة بأنَّه: «التوزيع السُّلطويُّ الإلزاميُّ للقيم في المجتمع»، لينقلَ حدودَ هذا العلم إلى كلِّ عملٍ فرديٍّ أو جماعيٍّ يتعلَّقُ بسير العملية السياسية، أو بتفاعلات المنتظم السياسي.

أمَّا من النَّاحية المنهجيَّة؛ فقد ظهر الخلاف جليَّاً بين منهجين مختلفين لدراسة الظاهرة السياسية؛ ففي الوقت الذي ظلَّ فيه المنهج التقليديُّ يتعامل مع الظاهرة السياسية من خلال الرَّبط الواضح بين القيم والحقائق، منطلقاً من فرضيَّة سكون الظاهرة السياسية، ظهر المذهب السُّلوكيُّ كواحدٍ من أهمِّ المناهجِ الفاعلة التي أخذت على عاتقها مهمَّة تحويل هذا الحقل إلى علم متحرر من القيم مرتكزٍ على السُّلوك الفعلي للظاهرة السياسيَّة برُمَّتها، انطلاقاً من حقيقةِ أنَّ الفردَ هو وحدة التحليل الأساسية»[1].

وقد نتج عنها هذا المنتج السياسيُّ الذي يُقدِّسُ العقل البشريَّ ويرفضُ القيم إلا في قالبها العُرفي العقلي بعيداً عن سلطة النُّصوص والذي يُسمَّى اليوم بالديمقراطية.

---

(١) مقدمة في التحليل السياسي القياسي ١-٣، د.طلال محمود محمد ضاحي ود.سرحان دبيل العتيبي وأ.د.أحمد عودة عبد المجيد عودة، جامعة الملك سعود، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، بتصرف

المبحث الثاني:
محاور العملية السياسية عند الفقهاء

عُني الفقهاء بدراسة السياسة الشَّرعية ومحاور العمليَّة السياسيَّة، وتقعيد أصولها وجذورها ومرجعيَّتها، وغالباً ما تأثروا في طرح المحاور في الظروف السياسيَّة التي عاشوا فيها، ومن الذي فصَّلوا في ذلك:

- أبو يعلى الفرَّاء في الأحكام السُّلطانيَّة.
- الماوردي في الأحكام السُّلطانيَّة.
- الجويني في غياث الأمم والتياث الظُّلَم.
- ابن الأزرق في بدائع السلك في طبائع الملك.
- ابن تيمية في السياسة الشَّرعيَّة في إصلاح الراعي والرعيَّة.
- ابن القيِّم في الطرق الحكميَّة.
- ابن خلدون في مقدِّمته.
- وغيرهم ممَّن جاؤوا بعدهم من المعاصرين.

ويجمل الشيخ الريسوني تعريف السياسة الشرعيَّة ومحاورها ومجالاتها بما يلي فيقول[1]:

«فالسياسة الشرعية -بعبارةٍ أخرى- هي التدبُّر الأمثل للمصالح العامَّة، بما يحقِّقُ مقاصد الشريعة ومايتلائم معها .

والسياسة الشَّرعيَّة تشمل مقدمة ما تشمله الوظائف والمجالات التالية :

- وضع الضوابط النَّاظمة لتولي الحكم وممارسته، بناءً على قاعدة (وأمرهم شورى بينهم).
- اختيار ولاة الأمور وبناء المؤسَّسات العامَّة وُفقَ ما تتطلَّبُه المصلحة وتقتضيه القواعدُ المعتمدة لذلك.
- اعتماد الأنظمة والتدابير والصِّيغ التنفيذيَّة لأحكام الشريعة .
- اعتماد التشريعات الاجتهادية اللَّازمة في مُختلف المجالات.
- إقامة فروض الكفايات وما تتطلَّبه؛ كالتعليم والصِّحة والقضاء والحسبة والجهاد .
- إقامة النِّظام القضائي.
- حفظ الأمن الداخلي.
- إقامة المصالح الاقتصادية والخدمات الاجتماعيَّة.
- تدبير السِّياسات والعلاقات الخارجيَّة».

وقد وضع الشيخ سعيد حوى -رحمه الله- في كتابه: «فصول في الإمْرَة والأمير» اثنان وعشرين رُكناً من أركان الحُكم والتي تدخل في سياق العمليَّة السياسيَّة وهي كالتالي[2]:

---

(١) مقاصد المقاصد ٦٢، د.أحمد الريسوني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، مركز المقاصد للدراسات والبحوث، بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٣م.

(٢) انظر: فصول في الإمرة والأمير، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.



- الرُّكن الأول: الدستور والقواعد.
- الركن الثاني: الشورى: اعتمادها وترتيبها وتنظيمها.
- الركن الثالث: ترتيب الوزارة واختيار الوزراء.
- الركن الرابع: القضاء وإقامة الحدود وتقنين الشريعة.
- الركن الخامس: الجيش.
- الركن السادس: الشرطة.
- الركن السابع: المخابرات.
- الركن الثامن: الترتيبات الإدارية وتقليد الأمناء والأكفياء.
- الركن التاسع: اصطفاء البطانة والخاصَّة ورعايتهم.
- الركن العاشر: النهوض بالعلم والطبِّ.
- الركن الحادي عشر: النهوض بالعمران.
- الركن الثاني عشر: تشييد الأوابد.
- الركن الثالث عشر: النهوض بالحياة الاقتصادية.
- الركن الرابع عشر: إقامة المساجد وإحياؤها بالعلم والذكر.
- الركن الخامس عشر: الفتيا.
- الركن السادس عشر: الحسبة والأمر بالمعروف.
- الركن السابع عشر: السكة وضرب النقود.
- الركن الثامن عشر: ترتيب السياستين الدَّاخلية والخارجية.
- الركن التاسع عشر: الألقاب والشَّارات والرايات.
- الركن العشرون: ترتيب الأعلام.
- الركن الحادي والعشرون: تأمين الأمن والكفاية.
- الركن الثاني والعشرون: تدبير قضايا التوثيق.

المبحث الثالث:
محاور العملية السياسية الخمسة

بعد أن استقرأنا وبشكل سريع محاور العمليَّة السياسيَّة عند الغرب، ومحاور العمليَّة السياسيَّة عند الفقهاء، حاولنا ضبطَ هذه المحاور تحت خمس كليَّات رئيسيَّة، بحيث تشمل جميع هذه المحاور السياسية بلا استثناء، سواءً في مرحلة الابتلاء والدعوة أو في مرحلة التمكين والدولة وفي ما بينهما من مراحل، وبالتالي تكون هذه المحاور

الخمسة هي الأصل العامُّ في ضبط سيرِ العمليَّة السياسيَّة بالكليَّة.

ولأنَّنا بصدد ضبط الشمولية والتعبير عنها؛ كان لابدَّ لنا من جمْع محاور العملية السياسية بالطريقة الأكثر وضوحاً وتفصيلاً، وقبل الخوض في محاور العلمية السياسية لا بد لَنا من ضبط النظرية السياسية التي تتعلق بشكل العلاقة مع المرجعية، ومكانة المرجعية في اتخاذ القرار السياسي، وانعكاسها على الكتلة وحركتها، ومن ثم فقد عمدنا إلى تقسيم المحاور إلى خمسة أقسام تشمل كلَّ جزءٍ ولو كان بسيطاً في تمام هذه العمليَّة السياسيَّة، وهي على النَّحو التالي:

• المحور الأول:

نظام الحُكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم، أو القيادة بالقاعدة: وهو ما يتعلق بإدارة وضبط العلاقة بين القيادة السياسية والقاعدة الشعبية من حيث الحقوق والواجبات، وما يتعلق بشكل الحكم ومتعلقاته في عمل الكتلة المسلمة أو الدولة، وآليات الرقابة عليه.

ويشمل:

- منهجيَّة اختيار القائد أو الحاكم.
- صلاحيات القائد في الكتلة، أو الحاكم في الدولة.
- منهجيَّة الشَّراكة في سياسة وسيادة الأمَّة.
- واجبات وحقوق كل من القيادة والقاعدة، والحاكم والمحكوم.
- علاقةُ القائد أو الحاكم بالمؤسَّسات التنفيذية المختلفة.
- القوانين والقواعد العامَّة والتفصيلية.
- السُّلطات العامَّة والخاصَّة في الكتلة أو الدولة.

• المحور الثاني:

علم الاقتصاد السِّياسي: وهو ما يتعلَّق بالإدارة المالية في الكتلة أو الدَّولة، وما ينبني عليه في سياسة الإنفاق والكسب العام، وآليات الرَّقابة عليه.

ويشمل:

- مصادر الكسب وأولوياته.
- نظام الملكية في الكتلة أو الدولة.

◆ أوجه الإنفاق العامُّ في الكتلة أو الدولة.

◆ العلاقة بين الكتلة أو الدولة والمؤسَّسات الاقتصادية المحليَّة والعالميَّة.

◆ شكل الاقتصاد العام.

◆ سياسة الاقتصاد المحليِّ والدوليِّ.

◆ آليات الرَّقابة على مصادر الكسب وسياسات الإنفاق العام ودوائرها.

• **المحور الثالث:**

منظومة الدَّعوة والمواجهة: وهي منظومة تحقيق الغايات الكبرى للمشروع الإسلامي التي يبحث فيها عن النظر في الاستراتيجيات والمنهجيات والأدوات المستخدمة للمواجهة في كل مرحلة، وتغير هذه الأدوات بتغير المرحلة.

وتشمل:

◆ حالة الحرب والسِّلم.

◆ مواجهة التحديات التي تطرأ على الكتلة أو الدولة.

◆ العلاقات الخارجيَّة والدَّولية.

◆ إدارة المقدَّرات والإمكانيَّات وتحديد استراتيجيات المواجهة.

• **المحور الرابع:**

علم الاجتماع السياسي: وهو دراسة الكتل السياسيَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة التي تشكِّل المجتمع المحيط في الكتلة المسلمة أو الدولة.

وهو ما يتعلَّق بمحاولة فهم الحدثِ السياسيِّ بالرُّجوع إلى الجماعة التي صدر منها، ومحاولة معرفة الخلفيَّة السياسيَّة للكتل داخل الدَّولة وخارجها، وتصنيف كلُّ كتلةٍ بحسبِ موقعها داخل المشروع وخارجه[1].

ويشمل:

◆ تصنيفُ الكتل التي يتعامل معها المشروع ويمكن فرزها مبدئياً إلى:

▶ كتل داخل المشروع.

▶ كتل خارج المشروع.

◆ تقسيم المجتمعات الدَّاخلية والخارجية لتحقيق الغايات الكبرى للأمَّة.

---

(١) يرجع في هذا العلم إلى كتاب: علم الاجتماع السياسي، أ.د.محمد توهيل فايز عبدأسعيد، مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى: ١٩٩٩م.

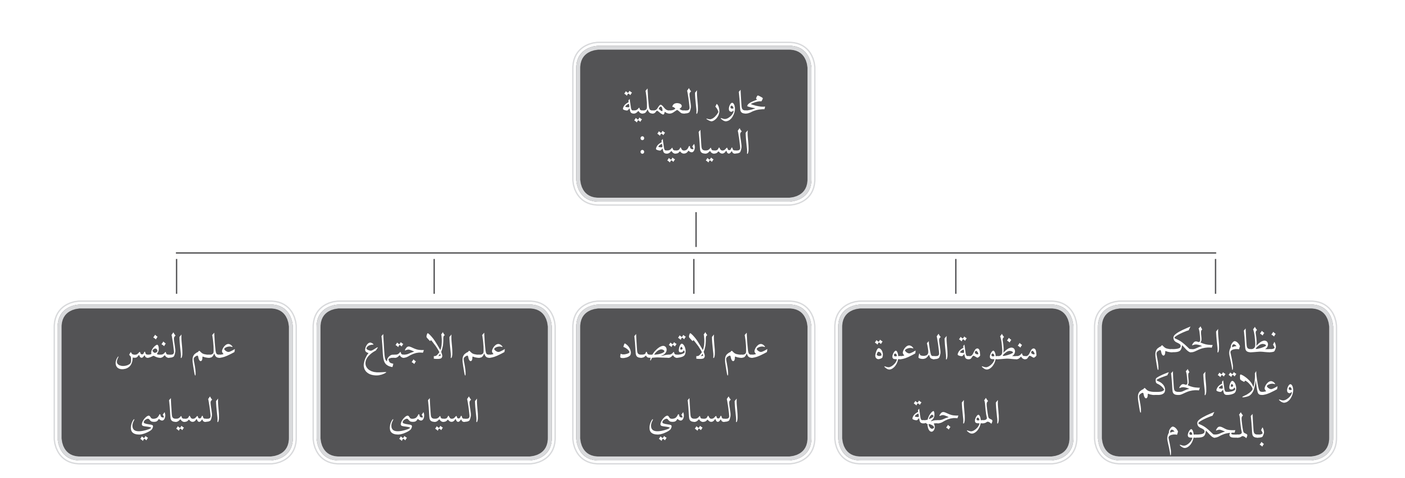
- تعريف جماعة المسلمين وتحديدُ حقوقهم وواجباتهم.
- التعريف العامُّ للأقسام المناوئة للمشروع الإسلامي.
- الأحزاب وجماعات الضغط والرأي.

- **المحور الخامس:**

علم النفس السياسي: وهو ما يتعلَّق بإدارة الخطاب والسُّلوك الموجَّه لكلِّ كتلةٍ من كتل الاجتماع السياسيِّ.

ويشمل:

- طبيعة الخطاب والسُّلوك الموجَّه لهذه الكتل وتغيُّر هذا الخطاب بتغيُّر حالة المشروع.
- رسم طبيعة وسياسة الخطاب والسُّلوك الموجَّه لكلِّ الأطراف.
- توجيه الخطاب المطلوب في الوقت المطلوب للجهة المحددة.
- إدارة جهاز الإعلام وأدوات التواصل المختلفة في الكتلة أو الدولة.



الفصل الخامس

القرآن الكريم: شموليَّته، وأدَّلة كونِهِ مرجعيَّة



المبحث الأول:
شمولية القرآن الكريم

كنا قد تحدثنا في فصل سابق عن خصائص المرجعية الإسلامية، وقلنا أننا سنركز على خصيصتين و هما : الشمولية والحركية، فعليهما مدار بحثنا فنبدأ بشمولية القرآن فحركيته ثم ننتقل إلى شمولية السيرة وحركيتها والله الموفق.

القرآن الكريم دستور هذه الأمَّة ومرجعيَّتها العقَديَّة والأخلاقيَّة والفقهيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والتربويَّة، إلى كافَّة جوانب حياتها.

والقرآن هو الدُّستور الشامل لحياة الفرد والمجتمع، الذي تصلح به القلوب، كما تصلح به الجوارح، ويصلح به الأفراد كما تصلح به المجتمعات، ويصلح به أمرُ الدُّنيا كما يصلُح به أمرُ الدين.

لا يمكن لمسلم أن يتوقَّف في التسليم بشمولية القرآن الكريم ولا أنْ يتردد؛ إذ هو مبنى الإسلام والإيمان، وبه أُنيطَ وصفُ الهداية الذي وُصف به القرآن في القرآن وفي السُّنة: «هدىً للناس»، «هدىً للمتقين»، «هدىً ورحمةٌ لقوم يؤمنون»، «هدىً وبشرى للمؤمنين»، «هدىً ورحمةٌ للمحسنين»، «قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء».

فلا يمكن أن يوصف القرآن بالهداية ثمّ تَنْظُرَ فيه الأمَّة فلا تجد ما يهديها عند حاجتها، وينقذها عند الخَطر!!

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها»[1].

وفي مثل هذا المعنى يقول صاحبُ المنار:

«وقوله: (إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هيَ أقوَم) يعني الطريقة المستقيمة، ولو لم يُكمل فيه جميع معانيها -يعني الشريعة- لِما صحَّ إطلاقُ هذا المعنى عليه حقيقةً، وأشباهُ ذلك من الآيات الدالة على أنَّه هدىً وشفاءٌ لِما في الصُّدور، ولا يكونُ شفاءً لِما في الصُّدور إلا وفيه تبيانُ كلِّ شيء»[2].

ثمّ إنَّ القرآن الكريم ذاته مُخبرٌ بأنَّه شاملٌ كاملٌ، تجد الأمّة فيه كلَّ ما تحتاج إليه، ولا تحتاج معه إلى غيره أبداً: قال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ (الأنعام ١١٤).

قال الشوكانيُّ-رحمه الله- في فتح القدير: «أيْ كيف أطلبُ حَكَماً غير الله، وهو الذي أنزل عليكم القرآن مفصَّلاً مبيَّناً واضحاً مستوفياً لكلِّ قضيَّة على التفصيل»[3].

---

(١) الرسالة ١/ ١٩، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي مصر، الطبعة الأولى: ١٣٥٨هـ، ١٩٤٠م.

(٢) تفسير المنار ٦/ ١٣١، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م.

(٣) فتح القدير ٢/ ١٧٦، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب-دمشق-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.

«وفي الآية تنبيهٌ إلى أنَّ القرآن الكريم كافٍ في أمرِ الدين، مُغنٍ عن غيره ببيانه وتفصيله»[1].

جاء في الظِّلال عند تفسير الآية: «لقد نزَّل هذا الكتاب ليحكمَ بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولتتمثَّل فيه حاكميَّة الله وألوهيَّتهُ، ثمَّ لقد نزل هذا الكتاب مُفصَّلاً، محتوياً على المبادئ الأساسيَّة التي يقوم عليها نظام الحياة جملة، كما أنَّه تضمَّن أحكاماً تفصيليةً في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنسانيِّ مهما اختلفت مستوياته الاقتصاديَّة والعلميَّة والواقعيَّة جملةً، وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناءٌ عن تحكيم غير الله في شأنٍ من شؤون الحياة، هذا ما يُقرِّره الله سبحانه عن كتابه، فمن شاء أنْ يقول: إنَّ البشريَّة في طورٍ من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فلْيقل، ولكنْ فليقل معه: إنَّه -والعياذ بالله- كافرٌ بهذا الدين، مكذِّبٌ بقول ربِّ العالمين!»[2].

قال سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل ٨٩).

وهذه الآية أصلٌ من أصول التعامل مع القرآن وفهمه، ففيها بيانُ تفصيل القرآن لكلِّ ما يُحتاج إليه:

﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وفيها: هدايته الأمَّة هدايةً تامةً عامَّة: «وهدى»، وفيها وصفُهُ بأنَّه: «رحمة»، يصلح بها المعاش والمعاد، وتنتظم بها حياة الناس، وتحصل بها الطمأنينة، وفيها أنَّ هذا القرآن يبشِّرُ المؤمنين بألوان البُشرَيات في الدُّنيا وفي الآخرة، ولنا عَودٌ مع الآية، بعد النَّظر في شيءٍ من كلام السَّلف والمفسِّرين فيها.

قال ابن كثير في تفسير الآية:

وقوله: (ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلِّ شيء) قال ابن مسعود: «وقد بيَّن لنا في هذا القرآن كلَّ علم وكلَّ شيء»، وقال مجاهد: «كل حلال وحرام»، و قول ابن مسعود أعمُّ وأشمل، فإنَّ القرآن اشتمل على كلِّ علمٍ نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كلِّ حلال وحرام، وما الناس إليهِ محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[3].

(وهذا الذي قاله ابن مسعودٍ ورجَّحه ابن كثير هو ما تدلُّ عليه عمومات الكتاب وفهم السلف، وفي الأثر الواصف للقرآن:

«حبل الله المتين، والذِّكر الحكيم والصِّراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يَخلَقُ على كَثْرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراطٍ مستقيم، ومن تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله».

ومما أورده العلماء في هذا المعنى قول ابن مسعود رضي الله عنه:

---

(١) محاسن التأويل المعروف بتفسير القاسمي ٤/ ٤٧٢، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ.

(٢) في ظلال القران ٣/ ١١٩٤، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٣) تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٩٤، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

«من أراد العلم فعليه بالقرآن فإنَّ فيه خبر الأوَّلين والآخرين».

وقال ابن مسعود أيضاً: « أُنزل في القرآن كلُّ شيء، وبُيِّن لنا فيه كلُّ شيء، ولكنَّ علمنا يقصُر عمَّا بُيِّن لنا في القرآن».

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: « لو ضاع مني عقال بعيرٍ لوجدته في كتاب الله».

وقال ابن برجان: «ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله قَرُب أو بَعُد، فهمَهُ من فهم أو عَمِهَ من عَمِه، وكذا كلُّ ما حكم أو قُضِيَ به».

وقال غيره: ما من شيءٍ إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهَّمه الله تعالى، حتى إنَّ بعضهم استنبط عُمْرَ النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين من قوله في سورة المنافقين: (ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلها) فإنها رأس ثلاثاً وستين سورة، وعقَّبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده[1]).

و هذا المثال يذكر على طريق التَّلطُّف والتملُّح لا على أنَّه علمٌ يمكن الاستنباط منه والبناء عليه، فليُتنبَّه.

وقد نقل الشيخ الشنقيطيُّ قطعةً طويلة من كلام السُّيوطي ثم قال بعد:

«انتهى كلام السُّيوطي وإنما أوردناه برُمَّته مع طوله لما فيه من إيضاح أنَّ القرآن فيه بيانُ كلِّ شيء، وإنْ كانت في الكلام المذكور أشياء جديرة بالانتقاد تركنا مناقشتها خوف الإطالة المملَّة، مع كثرة الفائدة في كلام المذكور في الجملة[2]».

والمقصود:

أنَّ ضابط الشُّمولية كما نعتقد هو كلمة «شيء»، كما في قوله تعالى: (تبياناً لكلِّ شيء)، (وكلَّ شيءٍ فصَّلناه تفصيلاً)، (ما فرَّطنا في الكتاب من شيء)، أيْ أنَّ كلَّ شيءٍ يحتاج إليه الناس لأجل هدايتهم في الدنيا والآخرة والتزامهم حبل الله وإقامتهم لمنهجه لا شكَّ أنهم يجدونه في القرآن الكريم من غير مِرية، إمَّا **صراحة**، وإمَّا **دلالةً**، فَهِم ذلك من فهم وعمِهَ من عَمِه.

يقول الإمام ابن عاشور -رحمه الله- في تفسيره: (و«كل شيء» يفيد العموم إلا أنَّه عموم عُرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع: من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، **وتقويم المجتمع المدني**، وتبيين الحقوق، وما تتوقَّف عليه الدَّعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلميَّة والدَّقائق الكونيَّة، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلَّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم، وفي خلال ذلك بيانٌ لكلِّ شيء يُقصد

---

(١) أورد كل هذه النقولات الإمام السيوطي في مقدمة كتابه: الإكليل في استنباط التنزيل، ١١-١٢، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالله محمد الصديق الغماري، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٢/ ٤٣٤، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

بيانه للتبصُّر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفيُّ إلى **عمومٍ حقيقيٍّ بضمنه ولوازمه**، وهذا من أبدع الإعجاز)[1].

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: «إِنَّ الْكِتَابَ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّهُ كُلِّيَّةُ الشَّرِيعَةِ، وَعُمْدَةُ الْمِلَّةِ، وَيَنْبُوعُ الْحِكْمَةِ، وَآيَةُ الرِّسَالَةِ، وَنُورُ الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ سِوَاهُ، وَلَا نَجَاةَ بِغَيْرِهِ، وَلَا تَمَسُّكَ بِشَيْءٍ يُخَالِفُهُ، وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْرِيرٍ وَاسْتِدْلَالٍ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْأُمَّةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لَزِمَ ضَرُورَةً لِمَنْ رَامَ الِاطِّلَاعَ عَلَى كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ وَطَمِعَ فِي إِدْرَاكِ مَقَاصِدِهَا، وَاللَّحَاقِ بِأَهْلِهَا، أَنْ يَتَّخِذَهُ سَمِيرَهُ وَأَنِيسَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ جَلِيسَهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي؛ نَظَرًا وَعَمَلًا، لَا اقْتِصَارًا عَلَى أَحَدِهِمَا؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَفُوزَ بِالْبُغْيَةِ، وَأَنْ يَظْفَرَ بالطلبة، ويجد نفسه من السابقين فِي الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ، فَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ، ولا يقدر عليه إلا من زاول مَا يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْكِتَابِ، وَإِلَّا؛ فَكَلَامُ الْأَئِمَّةِ السَّابِقِينَ، وَالسَّلَفِ الْمُتَقَدِّمِينَ آخِذٌ بِيَدِهِ فِي هَذَا الْمَقْصِدِ الشَّرِيفِ، وَالْمَرْتَبَةِ الْمُنِيفَةِ»[2].

ولذلك نقصد بأنَّ المرجعيَّة تفصيليَّة، أيْ أنها تحتوي على قواعد في تفاصيل العمليَّة السياسيَّة، تترك المكلَّف يعمل ضمن محددات تضبط له رسم الاستراتيجيات والمنهجيات وتترك له الإبداع في ساحة الأدوات في العمليَّة السياسية، وهذا ما سنفصِّله بإذن الله.

ولا يُفهم من كلامنا هذا معنىً مُغالىً فيه -كما يوهمه بعض الكلام، أو يعتقده بعض الغلاة مِن ذكر أمثلةٍ لا تَعلُّقَ لها بهداية الخلق، تخرُجُ عن حدِّ الاعتدال ومنطق القبول.

قال الشيخ محمد رشيد رضا في المنار:

«ومن الناس من قال: إنَّ القرآن قد حوى علوم الأكوان كلِّها، وإنَّ الشيخ محي الدين ابن عربي وقع عن حماره، فَرُضَّت رجله، فلم يأذن للناس بحمله إلا بعد أن استخرج حادثة وقوعه ورضَّ رجله من سورة الفاتحة، وهذا القول لم يقل به أحد الصحابة ولا علماء التابعين ولا غيرهم من علماء السَّلف الصالحين، ولا يقبله حقٌّ ولا يهدي إليه نقل، ولا تدل عليه اللغة»[3].

كما أنَّه لا بدَّ من التنبيه على أنَّ القرآن يدلُّ على وجوب الأخذ بالسنَّة، فيعود الأمر إلى القرآن وهكذا، وسيأتي الكلام في هذا إن شاء الله وهو معروفٌ مشتهر.

وإذا كنَّا نتكلَّم عن عموم الهداية القرآنيَّة لجوانب الحياة جميعاً، بحيث لم يترك القرآن الناس هملاً فيما يحتاجون إليه في شؤون حياتهم، وجب بهذا البحثُ عمَّا يُحتاج إليه في استقامة أمور المعاش والمعاد، وإذا كنَّا -في الأصل- إنما نسوق هذه الدِّراسة في سياق تقديم رؤيةٍ سياسيَّةٍ لمشروع إسلاميٍّ يأخذ بيد الأمَّة من قيعان التردِّي، وغياهب

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف بالتحرير والتنوير ١٤/ ٢٥٣، محمد الطاهر عاشور، الدار التونسية للنشر-تونس، ١٩٨٤م.

(٢) الموافقات ٤/ ١٤٤، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

(٣) تفسير المنار، ٧/ ٣٣١، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م.

التِّيه، فيحسن إذاً أنْ ننبِّهَ على أنَّ من أهمِّ الجوانب التي عُنيَ بها القرآن، وفصَّل ما تحصل به الهداية التامَّة للأمَّة: الجانب السياسي.

المبحث الثاني:
مرجعية القرآن الكريم في الحياة السياسية

إنَّ حَركة الأمَّة السياسيَّة مما لا يمكن أن يهمله القرآن أو يترك الناس فيه هملاً من غير إرشادٍ وتوجيه، بل كان الإسلام في أصل دعوته ذا **طابعٍ سياسي**، يهدف إلى إزالة حكم الطَّواغيت وإقامة مملكة الله.

لذلك كان أوَّل نداء هو الدَّعوة للإسلام صاحب المشروع السياسيِّ الذي يدعو للسِّيادة على هذه الأرض حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمِّه أبي طالب حينما قال له: يا ابن أخي ما تريدُ من قومك؟ قال: (إني أريد منهم كلمةً واحدةً تدين لهم بها العرب، وتؤدِّي إليهم العجم الجزية)[1].

فالإسلام هو مشروعٌ سياسيٌّ ذو مرجعيَّة ساد على العرب والعجم والأحمر والأسود.

وقد رأى الطَّواغيت في هذه الدَّعوة خطراً على مصالحهم، إذْ هم يعبدون الناس لشخوصهم، ويُسخِّرونهم في خدمة أهوائهم ومراداتهم، رأوا فيها خطراً من حيث إنَّها جاءت مضادَّةً لكلِّ ذلك، جاءت لتعبد الناس لربهم بعد تحريرهم من العبودية لغيره كما قال ذلك رِبعي بن عامر: «ابتعثنا الله لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد»، فلا غرو-إذن- أن يلاحَظ المنحى السياسيُّ في الخطاب القرآنيِّ، وأنْ يُستلهم المنهج السياسيُّ في التوجيه المجتمعيِّ والبشريِّ، وإدارة العلاقة في هذه الدوائر.

ولك أنْ تنظر تفصيل ذلك في مواطن متعدِّدة ومراجع مختلفة، أُسْهِب الكلام فيها حول هذا المعنى، وبُيِّن غاية البيان، ومنها:

كتاب «أصول الفكر السياسيِّ في القرآن المكِّيِّ»، للدكتور: التيجاني عبد القادر حامد؛ الذي أبدع في تقرير هذا المعنى، وبيَّن أنَّ أصول الدَّعوة الإسلاميَّة في قرآنها المكيِّ«الأسبق نزولاً» يظهر فيها المنحى السياسيُّ، الأمر الذي دفع المشركين -يوم جاءهم هذا الدين- إلى النَّظر إليه كخطرٍ يتهدَّد مصالحهم ونفوذهم وتألُّههم[2].

ومنها كتاب «المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم: الدين، العبادة، الرَّبُّ، الإله»، لأبي الأعلى المودودي؛ الذي يبيِّن مدلولات هذه الكلمات الأربعة، وتعلُّقها بالحكم والطاعة والانقياد، أو بمعنى آخر: بالسياسة، وقد

---

(١) سنن الترمذي حديث رقم: (٣٢٣٢)، ٥/ ٢١٩، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩٨م.

(٢) أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، د.التيجاني عبد القادر حامد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م.

كان لهذا الكتاب أثرٌ فيمن جاء بعده من المفكِّرين[1].

ومنها كتاب «في ظلال القرآن» و «معالم في الطريق»[2] للأستاذ سيد قطب -رحمه الله-.

والقارئ في كتبه يستقرُّ في ذهنه عُمق الأصول السياسيَّة في القرآن الكريم وفي الدَّعوة الإسلاميَّة، وقد كان لسيد في الظِّلال لفَتاتٌ دقيقة في استنباطات سياسيَّة مذهلة، لعلَّها تكون أوَّل الطريق وطرف الخيط في سلسلةٍ من الأعمال الدَّقيقة التي تصبُّ في الأمر نفسه.

وقد استعرض الدكتور رأفت المصري في بحثه: «المنهج السياسي في تفسير القرآن الكريم» جهود المفسِّرين في التفسير السياسي[3]، وسيكون لبسط الكلام مقامٌ آخر إنْ شاء الله.

لقد بدأ الحديث عن الجانب السياسيِّ في القرآن الكريم منذ نزوله، وفي أصل دعوته، وهذا الذي تخوَّف منه مشركوا مكَّة، وحَذِرُوه على سلطتهم ونفوذهم، إذ فهموا من أصل الدَّعوة ومشروعها الأساسي أنها دعوةٌ لخلع ربوبيَّة كلِّ أحد، وإثبات ربوبيَّة الله ربِّ العالمين، وإسقاط كلِّ حُكم يخالفُ حكمه، ونزع الشرعية عن كلِّ نظامٍ لا يدين له.

«إنَّ كلمة الدين تُؤخذ تارةً من فعل مُتعدٍّ بنفسه «دانه يدينه»، وتارةً من فعلٍ متعدٍّ باللام: «دان له»، وتارةً من فعلٍ متعدٍّ بالباء: «دان به»، وباختلافِ الاشتقاق تختلف الصورة المعنويَّة التي تُعطيها الصيغة، فإذا قلنا: «دانَه دينا»؛ عنينا بذلك أنَّه مَلَكَه وحكمه وساسه ودبَّره وقهره، وقضى في شأنه وجازاه وكافأه، فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك من السياسية والتدبُّر، ومن ذلك: (مالك يوم الدين).

وإذا قلنا: «دان له»؛ أردنا أنَّه أطاعه وخضع له، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع، وهو معنىً ملازمٌ للأوَّل ومطاوع له، يعني: «دانه فدان له».

وإذا قلنا: «دان بالشيء» كان معناه: اتخذهُ مذهباً أيْ اعتقَدَهُ أو اعتاده أو تخلَّق به، فالدين هنا هو المذهبُ والطَّريقة التي يسير عليها المرءُ نظريَّاً وعمليَّاً، ولا يخفى أنَّ هذا الاستعمال الثالث تابعٌ أيضاً للاستعمالات قبله؛ لأنَّ العادَة أو العقيدَة التي يُدان بها لها من السُّلطان على صاحبها ما يجعله ينقادُ لها ويلتزم اتباعَها.

ونستطيع أنْ نقول: إنَّ المادَّة كلها تدور على معنى: لزوم الانقياد له»[4].

---

(١) المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم، أبو الأعلى المودودي، دار القلم-الكويت، تعريب: محمد كاظم سباق، الطبعة الخامسة: ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

(٢) معالم في الطريق، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق، الطبعة السادسة: ١٩٧٩م.

(٣) التفسير السياسي للقرآن الكريم: تعريف وتأريخ وتأصيل، د.رأفت «محمد رائف» المصري، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية من جامعة الكويت، كانون الأول ٢٠١٤م، ولم ينشر بعد.

(٤) انظر: الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ٣٠، د.محمد عبدالله دراز، دار القلم-الكويت، بدون تاريخ، وأصول الفكر السياسي في القرآن المكي ٦٦، د.التيجاني عبد القادر حامد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م.

إنَّ الدين في أصل دعوته ثورةٌ على الظُّلم التي تعبِّد الناس للمخلوقين، وتُخضع الضُّعفاءَ منهم للأقوياء، وتسخِّر الجماهير للطُّغاة يخدمونهم ويتفانون في عبادتهم!!

إنَّ التوحيد الذي جاء القرآن ليبيِّنَهُ في الصُّدور هو دعوةٌ لخلع هذه الأربابِ من دون الله: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يُوسُف ٤٠).

وفي الحديث الذي فيه مقدم عدي بن حاتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دخل عليه وهو يقرأ قول الله تعالى من سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة ٣١)، وقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه»[١].

فقد دلَّ الحديثُ على معنى الآية المقتضي أنَّ الانقيادَ بهذا المعنى هو عبادةٌ من هؤلاء المنقادين، وهو تألُّهٌ من المشرِّعين المتسلِّطين، والكلام هنا يكثر، ويُرجع للاستزادة إلى المظانّ، وإنما أردنا التنبيهَ على عُمْق **المنحى السياسيِّ** في صميمِ الدَّعوة الإسلاميَّة.

المبحث الثالث:

الخطوط العامة الرئيسية للعملية السياسية في القرآن ومشاهد من التفصيل

لقد قرَّر القرآن الكريم الخطوط العامَّة الرئيسيَّة في العمليَّة السياسيَّة فبيَّن تمام البيان أنَّ الحاكميَّة لله وحدَه، لا يشاركه أحدٌ من الخلق في ألوهيته، التي هي من أخصِّ خصائصها.

وأمر -بعدها- بمجموعةٍ من الأوامر التي ترسم الخطوط العامة للعمليَّة السياسيَّة:

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء ٥٨)، وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل ٩٠).

وقال عزَّ وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء ١٣٥).

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة ٨).

---

(١) سنن الترمذي، حديث رقم: (٣٠٩٥)، ٥/ ١٢٩، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩٨م، وانظر: السنن الكبرى حديث رقم: (٢٠٣٥٠)، ١٠/ ١٩٨، أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء ٥٩) .

وقال تعالى: ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الشورى ٣٨) .

وقال سبحانه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (ص ٢٦).

وقال عزَّ وجل: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات ١٣) .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (الحجرات ١) .

وقال سبحانه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المائدة ٥١).

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الممتحنة ١) .

وقال عزَّ وجل: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ (المائدة ٥٥) .

وغير ذلك كثيرٌ من الآيات التي تقرِّر الخطوط العامَّة للحياة السياسيَّة في الاسلام التي منها:

- الحاكميَّة لله وحده.
- التحاكم إلى الكتاب والسُّنَّة.
- العدل والقسط.
- المساواة في الحقوق والواجبات.
- الحريَّة.
- العدالة.
- الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.
- البراءة من المشركين.
- الشورى.

وهذا ظاهرٌ بيِّن لم يخْفَ على أحدٍ من المسلمين، وهو حاضرٌ في أذهانهم، إليه يدعون قومهم وأمَّتهم، ويعرضونه عند الكلام عن تحكيم الشريعة والدَّعوة إلى الحكم بالإسلام.

لكنَّ الحَقَّ أنَّ أمرَ العناية القرآنيَّة بالجانب السياسيِّ لا يقفُ عند هذا بل يتجاوزه إلى مسائلَ أكثرَ تفصيلاً، **وخيوط أكثر دقَّة** نراها بوضوح تارةً في النُّصوص القرآنيَّة المعالِجة للواقع النبوي، ونلمحها تارةً أخرى في خبايا التعبير وخفايا التركيب القرآني، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (الأنفال ٥٨) ففي الآية الأمر بفسخ العهد مع الذين كفروا عند خوف الخيانة منهم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال ٦١) وفيها الأمر بالاستجابة لطلب الهدنة في حال طلبها أعداء الأمَّة، وفي المقابل قال: ﴿ **فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ** ﴾ (محمد ٣٥).

ففيها النَّهيُ عن الاستذلال؛ بالبدء بطلب السَّلم والهدنة.

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال ٦٧).

وفيها أنَّه لا ينبغي اتخاذ الأسرى حتى تنكسرَ شوكةُ الكفر وتضعُف، أمَّا قبل هذا فلا بدَّ من القتل حتى يحصل الإثخان، ومن المعلوم أنَّ هذا التوجيه **ذو طبيعةٍ سياسيَّة بحتة،** وقد أثبتت الأيام أنَّه من الأهميَّة بالمكان المرموق، وأنَّ عدم التنبُّه إليه مما قد يُسبِّب النَّدامة الشَّديدة؛ ففضلاً عن قصَّة بدر المعروفة، التي نزل فيها عفو الله بعد لومه للمسلمين على اتخاذ الأسرى، يمكن أنْ نستدلَّ بما حصل من النَّاصر صلاح الدين -رحمه الله- الذي لم ينتبه إلى هذا التوجيه، وعضَّ يديْهِ ندامةً بعدُ لِمَا ترتَّبَ على عفوه عن أسرى الصليبين من عودتهم بعد وقتٍ قصيرٍ لمجابهتِهِ ومنافسته على بيت المقدس، التي كَدَّ لتحريرها، ولم يكن هذا لينفعه إذْ قد فات الأوان، كما عبَّر المؤرِّخ المحدِّث: ابن الأثير، فعاد الصليبيون وأمراؤهم الذين عفا عنهم صلاح الدين ليجمعوا صفوفهم ويشنُّوا حملةً شرسةً كادت تودي بالإنجاز الذي تاقَ له المسلمون وأعدُّوا له عُقوداً من الزَّمان.

وفي قصَّة تبوك قال تعالى مخاطباً نبيَّه صلى الله عليه وسلم: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة ٤٣) .

فإذْنُ النبي صلى الله عليه وسلم للمنافقين في التخلُّف فوَّتَ مصلحةً سياسيَّةً في انكشاف نفاقهم وظهوره جليَّاً في ساحة المجتمع المسلم، إذ إنَّهم ما كانوا ليخرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى لو لَمْ يأذن لهم، فيترتَّبُ عليه معصيةً مباشرةً مفضوحةً تكشف صَفَّ النِّفاق وتفضحُ المنافقين، نعم؛ عفا الله عن النبي صلى الله عليه وسلم،

وبقيَ التوجيهُ السياسيُّ قائماً بالاستفادة من الفرص السَّانحة لكشفِ صفِّ النِّفاق وفضحه.

وفي السياق نفسه: تردُ قصَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا ثمَّ تاب الله عليهم، وفيها من الفوائد النَّفيسة في المسلك السياسيِّ مع مثل هذا النَّموذج من الصَّادقين، ممن زلَّت لهم قدم، وعثرت خطاهم، كيف عالجتهم التربية الربانيَّة بحيث يستقيم الصَّف المؤمن وينتظم في تحمُّل تبعاتِ الإيمان والانتماء للأمَّة ودينها بجديَّة كاملة؛ لا يشوبها شيءٌ من التراخي والكسل قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة ١١٨).

وفي قصة «مسجد الضِّرار» تصدُرُ الأوامرُ الرَّبانيَّة بإزالة المسجد لما أنَّه أُنشأ لأغراض سياسيَّة ضارَّة بالأمَّة المسلمة قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ١٠٧-١١٠).

وتعليق صاحب الظلال على حاصل طريقة العرض القرآنيِّ للقصَّة:

«وتبقى وراء ذلك كلِّه حكمةُ المنهج القرآنيِّ في كشف مسجد الضِّرار وأهله، وفي تصنيف المجتمع إلى تلك المستويات الإيمانيَّة الواردة من قبل في الآيات، وفي كشف الطريق للحركة الإسلامية، ورسم طبيعة المجال الذي يتحرَّك فيه من كل جوانبه»[1].

إنَّ ما جاء في هذه الآيات لهو أصلٌ من أصول التقدير -كما عبَّر سيد من قبل- تستعين به الأمَّة الإسلاميَّة لتستضيءَ به فيما يشبه هذا الظَّرف، تتَّخذُ قرارها السياسيَّ في ضوء ما أُصِّلَ لها في كتابِ ربها، ممَّا هذا مثاله.

هذا؛ وممَّا ورد كذلك في سياق ما يمكن عدُّه تأصيلاً للعملية السياسيَّة، وبياناً لأصول التقدير واتخاذ القرار لدى الجماعة المسلمة: القوانين والسُّنن والأمثال والقصص والأحكام والأخبار الغنيَّة بتفاصيل دقيقة تلمح إلى الهداية السياسيَّة في المواقف والظروف المختلفة، وسيأتي الكلام عليها إنْ شاء الله.

والحاصل:

أنَّنا إذْ نستهدي بكتاب الله تعالى لا نقفُ أمام خطوطٍ عامَّةٍ فحسب؛ **بل إنَّ الأمر يتجاوز ذلك إلى خطوطٍ تفصيليَّةٍ دقيقة،** يظهرُ معها المسار بالنسبة إلى السياسيِّ المسلم، كيف يتَّخذُ القرار، وكيف يختار الوجه ويحدِّدُ المسار.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٢، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

في كافَّة محاور العملية السياسيَّة، تبقى الإشكاليَّة في كيفيَّة ضبط الشموليَّة في الواقع السياسي وماهيَّة تنزيل التوجيه السياسيِّ على هذا الواقع، وإلا فإنَّ فوضى المشاريع الإسلاميَّة مكمنُها **عشوائيَّة التنزيل**، بعد الإيمان بالشموليَّة أو نفي الشموليَّة والذِّهاب بالعقل مَذهبَ التقديس .

ومحور الجهد هو في إثبات الشموليَّة والعمل على ضوابط التنزيل بشكله الدَّقيق لنُخرج المنهج الكامل من عشوائيَّة الاستدلال والاستشهاد، إلى دقَّة المنهج بمقتضى التنزيل.

وإنْ ذَكَرَ سيد أصولَ التقدير، إلا أنَّه لا بدَّ للتقدير من قيدٍ ينضبطُ به التنزيل وعلى ضابط التنزيل يتمحورُ الجهد وجمع الدليل.

والحقيقة أنَّنا لن ندركَ حقيقةَ الشُّمولية حتى يرتسمَ لنا المنهج الحركيُّ في النصوص الشرعيَّة، **فالحركيَّة هي القالب العمليُّ لمقتضى الشمولية**، وهذا ما نقف عنده موضِّحين في الفصل القادم.

الفصل السادس



حركية القرآن





المبحث الأول:
المقصود بالحركية

يحسن بادئ ذي بدء أنْ نضبطَ المقصود بـ«الحركيَّة»؛ وذلك ليكون المصطلحُ محلُّ الكلام واضحَ الدلالة.

فالحركيَّة، من الحركة، وهي ضدُّ السُّكون، يُقال: غلام حَرِك، أيْ: خفيفٌ ذكيّ[1]، والحركيَّة نسبة إليها، نقول: حركيٌّ وحركيَّة.

والحركيَّة صفةٌ قد يختلف معناها شيئاً ما باختلاف الموصوف بها، فإذا قلنا: أمَّة حركيَّة، فإنَّنا نعني بها: «الأمَّة التي تستحضرُ قواها لتغيُّر واقعها وما حولها، فيُرادف معناها وفق هذا الاستعمال معنى القيام والنهوض»[2].

أمَّا وصفنا للقرآن بالحركيَّة، أو لمصادرنا المرجعيَّة بها، فإنما نعني به:

«**استعداد هذه المصادر للحركة مع الواقع وتطويعه، وصلاحيَّة تطبيقها في مختلف الظروف والملابسات في الزَّمان والمكان**».

إنَّ الحياة بالقرآن ومع القرآن هي من مقتضيات الطَّبيعة الحركيَّة الأساسيَّة في القرآن.

«ولا نقصدُ بالحياة في جوِّ القرآنِ مدارستَه وقراءتَه والاطلاعَ على علومه؛ بل هو أنْ يعيشَ الإنسانُ في جوٍّ، وفي ظروفٍ، وفي حركةٍ، وفي معاناةٍ، وفي صراعٍ، وفي اهتماماتٍ كالتي كان يتنزَّل فيها هذا القرآن، وأنْ يعيش في مواجهة هذه الجاهلية التي تعمُّ وجه الأرض اليوم، وفي قلبه وفي همِّه وفي حركته أنْ «يُنشئ» الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس مرَّةً أخرى في مواجهة هذه الجاهلية، بكلِّ تصوراتها وكلِّ اهتماماتها وكلِّ تقاليدها، وكلِّ واقعها العمليِّ، وكلِّ ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانيَّة، ومنهجه الرَّباني، وكلِّ استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة، بعد الكفاح والجهاد والإصرار.

هذا هو الجوُّ القرآنيُّ الذي يمكن أنْ يعيش فيه الإنسان، فيتذوق هذا القرآن، فهو في مثل هذا الجوِّ نزل، وفي مثل هذا الخضمِّ عمل، والذين لا يعيشون في مثل هذا الجوِّ **معزولون عن القرآن**، مهما استغرقوا في مُدارسته وقراءته والاطِّلاع على علومه.

والمحاولة التي نبذُلها لإقامة القَنطَرةِ بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن، ليست بالغةً شيئاً إلا بعد أنْ يجتاز هؤلاء القنطرة، ويصلوا إلى المنطقة الأخرى، ويحاولوا أنْ يعيشوا في (جوِّ القرآن) حقاً، **بالعمل والحركة**، وعندئذٍ

---

(١) مختار الصحاح ١/ ٧١، زين الدين الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية-بيروت-صيدا، الطبعة الخامسة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

(٢) حركية التجديد والاستنهاض ٩٩، عبد الله أحمد، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م.

فقط سيذوقون هذا القرآن ويتمتَّعون بهذه النِّعمة التي يُنعم الله بها على من يشاء»[1].

«إنَّ هذا القرآن ينبغي أن يُقرأ، وأن يُتلقَّى من أجيال الأمَّة المسلمة بوعي، **وينبغي أنْ يُتدبَّر على أنَّه توجيهاتٌ حيَّة، تتنزَّل اليوم؛ لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل**، لا على أنَّه مجرَّد كلام جميل يرتَّل، أو على أنَّه سُجِّل لحقيقةٍ مضت ولن تعود، ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمسَ عنده توجيهاتِ حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعة الإسلاميَّة الأولى تتلقَّاهُ لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعيَّة، وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال السَّاهي!

سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حيَّة، تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق»[2].

ويشير الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعريفه بسورة آل عمران-سورة المعركة والحركة-إلى الحياة في القرآن وإلى شروط الحصول عليها وإدراكها فيقول: «ستظلُّ هنالك فجوةً عميقةً بيننا وبين القرآن ما لم نتمثَّل في حِسِّنا، ونستحضر في تصوُّرنا أنَّ هذا القرآن **خوطِبَت به أمَّة حيَّة**، ذات وجودٍ حقيقيٍّ، ووُجِّهت به أحداثٌ واقعيَّة في حياة هذه الأمَّة.

وسيظلُّ هنالك حاجزٌ سميكٌ بين قلوبنا وبين القرآن، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنَّه مجرَّد تراتيل تعبُّديَّة مهوِّمة، **لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشريَّة اليوميَّة**.

ومعجزة القرآن البارزة **تكمن في أنَّه نزل لمواجهة واقع معيَّن في حياة أمَّة معيَّنة**، في فترةٍ من فترات التاريخ محدَّدة، وخاض بهذه الأمَّة معركة كبرى حولَّت تاريخها وتاريخ البشريَّة كله معها، ولكنَّه-مع هذا- **يعايش ويواجه ويملك أنْ يوجِّهَ الحياة الحاضرة، وكأنَّما هو يتنزَّل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الرَّاهن مع الجاهليَّة من حولها**.

ولكيْ نحصلَ نحن من القرآن على قوَّته الفاعلة، وندرك حقيقة ما فيه من الحيويَّة الكامنة، ونتلقَّى منه التوجيه المدَّخر للجماعة المسلمة في كلِّ جيل؛ **ينبغي أنْ نستحضرَ في تصوُّرنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التي خوطبت بهذا القرآن أوَّل مرَّة، كينونتها وهي تتحرَّك في واقع الحياة**.

إنَّنا بهذه النَّظرة سنرى القرآن حيَّاً يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى، **ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضاً**، وسنحسُّ أنَّه معنا اليوم وغداً، وأنَّه ليس مجرَّد تراتيل مهوَّمة بعيدةً عن واقعنا المحدَّد»[3].

ويدلُّنا على طريق التعامل مع القرآن وفهم نصوصه بقوله: «إنَّ النُّصوص القرآنيَّة لا تدرك حقَّ إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانيَّة واللغويَّة فحسب؛ **إنما تدرك أولاً وقبل كلِّ شيءٍ بالحياة في جوِّها التاريخي الحركي**،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠١٦-١٠١٧، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠١٦-١٠١٧، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٨-٣٤٩، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

وفي واقعيَّتها الإيجابيَّة، وتعاملها مع الواقع الحيّ.

وهي لا تتكشَّف عن هذا المدى البعيد **إلا في ضوء ذلك الواقع التاريخيِّ**، ثمَّ يبقى لها إيحاؤها الدَّائم، وفاعليتها المستمرَّة، ولكن بالنسبة للذين يتحرَّكون بهذا الدين وحدهم، **ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزَّلت هذه النصوص عليهم أوَّل مرَّة، ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان أولئك يواجهون**، ولن تتكشَّف أسرار هذا القرآن قطُّ للقاعدين، الذين يعالجون نصوصه في ضوء مدلولاتها اللغويَّة والبيانيَّة فحسب، وهم قاعدون»[1].

إنَّ القرآن له طبيعةٌ حركيَّةٌ وله مهمَّة واقعيَّة حيَّة متحرِّكة، يقول سيّد: «إنَّ هذا القرآن لا يتذوَّقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة، ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها.

والذين يلتمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون، يدرسونه دراسةً بيانيةً أو فنيَّةً لا يملكون أنْ يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة، بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة، إنَّ حقيقة هذا القرآن لا تتكشَّف للقاعدين أبداً، وإنَّ سرَّه لا يتجلَّى لمن يؤثرون السَّلامة والرَّاحة مع العبودية لغير الله، والدينونة للطَّاغوت من دون الله»[2].

ويؤكِّد على هذا المعنى في موطنٍ آخر بعباراتٍ أخرى قائلاً: «**وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرَّك القرآن في طلائع البعث الإسلاميِّ، ويحرِّكها كذلك في طريق الدَّعوة المرسوم.**

إنَّ هذه الطلائع في حاجةٍ إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه؛ تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها، وتستوحيه في ما يُصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات، وما ينتظرها من عاقبةٍ في نهاية الطَّريق.

والقرآن-بهذه الصورة- لا يعود مجرَّد كلام يُتلى للبركة، **ولكنَّه ينتفض حيَّاً يتنزَّل اللَّحظة على الجماعة المسلمة المتحرِّكة لتتحرَّك به**، وتتابع توجيهاته، وتتوقَّع موعود الله فيه.

وهذا ما نعنيه بأنَّ هذا القرآن لا يتفتَّح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرَّك به لتحقيق مدلوله في عالم الواقع؛ لا لمن يقرؤونه لمجرَّد التبرُّك! ولا لمن يقرؤونه لمجرِّد الدراسة الفنيَّة والعلميَّة، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبُّع الأداء البيانيِّ فيه!

إنَّ هؤلاء جميعاً لن يُدركوا من هذا القرآن شيئاً يُذكر، فإنَّ هذا القرآن لم يتنزَّل ليكون مادة دراسة على هذا النَّحو، إنَّما تنزَّل ليكون مادة حركة وتوجيه»[3].

وننتهي من هذه النُّقول الكاشفة التي أخذناها من الظِّلال إلى ضرورة إحسان فهم القرآن وتدبُّره، والتفاعل

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٤٥٣، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٤، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٨، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

معه من خلال **نظريَّةٍ حركيَّةٍ** في ذلك، وباستعمال مفاتيح هادية لذلك التعامل والتدبُّر؛ لأنَّ هذا هو الذي يتفق مع طبيعة هذا القرآن الأساسيَّة، وسِمَته المطَّردة، ألا وهي «**الواقعيَّة الحركيَّة**» مفتاح التعامل مع هذا الكتاب العجيب المعجز.

ونختم هذه النُّقول بهذه الفقرة الرائدة لسيد قطب، التي توضِّح هذه السِّمة، وتدلُّ على المفتاح لهذه النَّظريَّة، وتدعو إلى هذا المنهج، ومن مزيتها أنها تمثِّل خلاصة رأيه في هذا، وهو الرَّأي النِّهائيُّ الأخير الذي استقرَّ عليه وأصبح عنده بدهيَّة يقينيَّة، وحقيقة قطعيَّة، لأنَّه أوردها في تعريفه بسورة الحجر -من الطبعة المنقحة- وهو الذي كتبه قبيل اعتقاله الأخير بأيام أو بساعات.

يقول: «ومن ثمَّ تواجه حاجات الحركة الإسلاميَّة ومقتضياتها كلَّما تكرَّرت هذه الفترة (الفترة الحرجة في الدَّعوة الإسلاميَّة في مكة ما بين عام الحزن والهجرة)، وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلاميَّة الآن في هذا الزَّمان.

ونحن نؤكِّد على هذه السِّمة في هذا القرآن، **سمة الواقعيَّة الحركيَّة**؛ لأنَّها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب، وفهمه وفقهه، وإدراك مراميه وأهدافه.

إنَّه لا بدَّ من استصحاب الأحوال والملابسات والظُّروف والحاجات والمقتضيات الواقعيَّة العمليَّة التي صاحبت نزول النصِّ القرآنيِّ، لا بدَّ من هذا لإدراك وجهة النصِّ وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويَّته وهو يعمل في وسطٍ حيٍّ، ويواجه حالة واقعةً، كما يواجه أحياء يتحرَّكون معه أو ضدَّه.

وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوُّقها، كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكرَّرت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخيَّة تالية، وعلى الأخصِّ فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدَّعوة الإسلاميَّة.

نقول هذه المقالة ونحن على يقينٍ أنَّه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحرَّكون فعلاً بهذا الدين في مواجهة الجاهليَّة الحاضرة، **ومن ثمَّ يواجهون أحوالاً وملابسات وظروفاً وأحداثاً كالتي كان يواجهها صاحب الدَّعوة الأولى صلوات الله وسلامه عليه والعصبة المسلمة معه**»[(١)].

وإنَّنا نسعى هنا إلى تقرير **حركيَّة المصادر المرجعيَّة**، وأنها تتحرَّك بأحكامها وتوجيهاتها مع حركة الكتلة المؤمنة وهي تصارع الباطل، لتصل بها إلى مراحل التمكين، وإن كان ذلك واضحاً بيناً، لكنَّ الناظر في السِّياقات الفكرية اليوم لأبناء الدَّعوات الإسلاميَّة والعاملين في ساحاتها سيجد الحاجة ملحَّةً إلى التأكيد على مثل هذا الموضوع وتأصيله والدَّعوة إليه وبيانه.

إنَّ إقرار الشموليَّة وإدراك الحركيَّة يمثِّل المخرج الحقيقيَّ للأمَّة من حالة العلاقة الضبابيَّة مع المرجعيَّة والتي

---

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢١٢١، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢ه، وانظر كذلك مفاتيح التعامل مع القرآن ٦٠، د.صلاح الخالدي، دار القلم-دمشق، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

قادت الأمَّة إلى حالات التخبُّط والفشل وانحسار قدرة النصوص على إعادة البناء وتصحيح المسار لهذه الأمَّة كما كانت لها في مرحلة البناء الأوَّل.

المبحث الثاني:
حركية القرآن الكريم في مرحلة النزول الأول

حتى ندرك الحركيَّة لنصوص التنزيل لا بدَّ لنا من فهم الخصائص الحركيَّة للقرآن في مرحلة النُّزول الأوَّل.

فهذه المرحلة هي **التي رسمتْ لنا طبيعة القرآن وخصائصه**، ولذلك فلا بدَّ لكلِّ الصِّفات التي جاءت ترصُدُ طبيعة علاقته مع أهل المرحلة الأولى أن تكون صفاتٍ عضويةً دائمة الوجود مستقرَّة في أصل طبيعته.

والمتأمِّل في كتاب الله وهو يتنزَّل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوجِّه ويبني البناء الأوَّل الذي كان اللبنة الرَّصينة في حفظ الدين فاعلاً عاملاً، سيجده يتَّصف بصفاتٍ تجعل النصَّ مُتحرِّكاً، يقود الأمَّة ليوصلها إلى مكامن التَّمكين ومستقرِّها الأمين.

وأبرز هذه الصِّفات:

١ - أنَّه يتنزَّل ويصل الواقع الأرضيَّ بتوجيه السَّماء وبوحيٍ متَّصل، فيأتي السؤال ويرجع الجواب: (وإذا سألك، ويسألونك) **وهي: الوحي المتصل**.

٢ - أنَّه مُفرَّق يتنزَّل على الجماعة المسلمة حسب احتياجها وبرنامجها المرسوم، فيحملها بما في أيديهم من قوَّة، متدرِّجاً مراعياً في حركته قدراتها ومتطلَّبات مرحلتهم، **وهي تفريق نزول القرآن**.

٣ - أنَّه كان يتَّصل بالواقع بأسباب النُّزول، فلم يكن مفرَّقاً فقط؛ بل متصلاً بالواقع مرَّة بظروفه وأحياناً بشخوصه، **وهي أسباب النزول وأجوائه**.

إنَّ هذه الصِّفات التي رسمت معالم الحركيَّة في النُّصوص الشَّرعيَّة في مرحلة النُّزول الأوَّل لم تكن صفةً جزئيةً ولا أمراً فرعياً؛ بل كانت مصدر الخوف والتوتُّر الأوَّل لأعداء الإسلام من الكفار، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (الفرقان ٣٢).

وكذلك الأمر مع المنافقين، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة ٦٤).

وكانتْ مصدر التثبيت الأهمِّ للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان ٣٢).

بل كانتْ ترسم لهم طريق الهداية بخطىً ثابتة تزرع البُشرى سلوكاً واعتقاداً.

وإذا قلنا أنَّ هذه الصِّفات والخصائص خاصَّة في مرحلةٍ التشريع الأوَّل، وما عادت فاعلة عاملة في القرآن، **فإنَّنا بالضرورة نقول أنَّ القرآن الذي كان يصنع هذه المرحلة من البناء الأوَّل لا يُشابه ولا يُماثل القرآن الذي بين أيدينا؛** لأنَّ هذه الصِّفات هي منْ أهمِّ الصِّفات التي جعلتْ القرآن مرجعيَّةً حقيقيَّةً في العمليَّة السياسيَّة تقود المخاطبين به، ولو قلنا هذا لما وجب علينا ما وجب عليهم، ولما صحَّ لنا أنْ نفعلَ بالقرآن كما فعلوا وهذا مستحيلٌ شرعاً ومنهجاً.

و إذا اتفقنا أنَّ كتاب الله هو ذاته الذي كان بين يديْ الصَّحابة الكرام، وعلاقتنا بالقرآن لا بدَّ أنْ تكون مثل علاقتهم به، وأنَّ الدَّور الذي على هذه الأمَّة في علاقتها مع مرجعيَّتها لم يتغير، فلا بدَّ أنْ نحصلَ على نتائج هذه العلاقة، كما حصلوا هم عليها من نصرٍ وتمكين!

إذن لا بدَّ أن تكون هذه الخصائص أصيلة في كتاب الله، لا تخصُّ مرحلةً دون مرحلة، ولا جيلاً دون جيل.

وعلى هذا فمدارُ هذا المبحث في إثبات حركيَّة القرآن بنفس الصِّفات والخصائص التي كان عليها حين نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ووجَّه الصحابة وبنى هذا الجيل الفريد.

المبحث الثالث

المدخل العلمي لفهم الحركية

حتى نُثبت الخصائص الحركية في كتاب الله تعالى، لا بدَّ لنا منْ أنْ نعرض لبعض مباحث علوم القرآن التي تُشكِّل علوماً مفتاحيَّة في إدارك الخصائص الحركيَّة لآيات القرآن، وهي العلوم التي من خلالها نستطيع ضبط حركة النص الشرعي ، ضمن قواعد ومحددات ثابتة وهي:

- التفسير الموضوعي.

- المحكم والمتشابه.

- المفردة القرآنية ونفي الترادف في كتاب الله تعالى.

المطلب الأول:
التفسير الموضوعي

يأتي الحديث عن الوحدة الموضوعيَّة في كتاب الله تعالى في سياق الكلام على تنزيل الأحكام التي جاءت في القرآن الكريم بجمعها تحت سياق موضوعٍ واحد، وضبط حركة الواقع بحركة النص الشرعي، حيث إنَّنا نعتقد أنَّ النصَّ الواحد في القرآن الكريم يجب أن يُضاف إلى سياقه الموضوعيِّ لتكتمل به صورة الحكم النهائي، لضبط تنزيل هذه الأحكام الموضوعيَّة على الواقع.

وللوحدة الموضوعية في القرآن الكريم أنواع عديدة منها:

الأوَّل: الوحدة الموضوعيَّة في السورة الواحدة:

ونقصد به تناول سور القرآن الكريم على نحوٍ يتمُّ فيه دراسة كلِّ سورةٍ بالنَّظر إلى الهدف والمحور الذي تدور حوله بالتحليل والتعليق والمناقشة وتتبُّع الأسرار، وربط آخر السورة بأوَّلها وبما قبلها وما بعدها، وتقسيمُ الموضوعات التي عالجتها تلك السورة إلى عناصر، وسنجد أنَّ لكلِّ سورة شخصيتها المستقلَّة وأهدافها الأساسيَّة التي تعالج موضوعاً محدَّداً في إطارٍ محدَّد، مُراعيةً قيدَ المرحلة المكِّية والمدنية.

الثاني: الوحدة الموضوعيَّة في ألفاظ القرآن:

ويُقصد به أنْ يقوم المفسِّر بتتبُّع لفظةٍ من ألفاظ القرآن الكريم، ثمَّ يجمع الآيات التي ترِدُ فيها هذه اللفظة، مع جميع مشتقاتها ومدلولاتها اللغويَّة، ثمَّ يقوم بعد جمعها بمحاولة استنباط دلالات الكلمة كما وردت في الآيات، من خلال الاستعمال القرآنيِّ لها.

الثالث: الوحدة الموضوعيَّة في موضوعٍ واحدٍ عرض له القرآن الكريم بأكثر من أسلوب:

حيث يقوم المفسِّر بتتبُّع وجمعِ كلِّ الآيات التي وردت في سياق الموضوع مع بعضها، ويحاول أن يجد العلاقة بينها، ثمَّ يقوم بتقسيم الموضوع إلى عناصر عدَّة، وربطه بواقع الناس وحلِّ مشاكلهم من خلال وصوله إلى **نظريَّةٍ متكاملةٍ** في سياق الموضوع الواحد من خلال النَّظر في كلِّ الآيات التي وردت بخصوصه.

وقد سبق أنْ قلنا من قبل أنْ النَّصَّ الواحد يُؤخذ بالنَّظر إلى مجموع النصوص تحت بند الوحدة الموضوعيَّة الواحدة، وأنَّه ومن تمام حركيَّة نصوص القرآن الكريم هو ضبط حركة الواقع بها مع مراعاة سياقها الموضوعيِّ الذي يشكِّل بمجموعه ضابط الشمولية الذي أشرنا إليه سابقاً.

المطلب الثاني:
المحكم والمتشابه

اختلفت عبارات علماء القرآن والتفسير والأصول في تعريف المحكم والمتشابه على أقوال كثيرة، أمَّا ما اتفقوا عليه فهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ (هود ١)، ومعنى إحكامه في الآية أنَّه منظَّمٌ رصينٌ متقنٌ متينٌ لا يتطرَّقُ إليه أيُّ خلل لفظيٍّ ولا معنويٍّ كأنَّه بناء مشيَّدٌ محكم يتحدَّى الزَّمن ولا يتنابه تصدُّع ولا وهن، وما جاء في قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشَابِهاً) ومعنى كونه متشابهاً كله أنَّه يُشبه بعضه بعضاً في إحكامه وحسنه وبلوغه حدَّ الإعجاز في ألفاظه ومعانيه حتى أنَّك لا تستطيع أنْ تُفاضل بين كلماته وآياته في هذا الحُسن والإحكام والإعجاز كأنَّه حلقة مفرَغة لا يدرى أين طرفاها، واتفقوا على أنَّ بعض القرآن محكم وبعضه متشابه، لكنَّهم اختلفوا في تعريفاتهم على أقوال كثيرة ليس محل بسطها هنا، لكنَّ في الجملة نقول أنَّ المحكم هو ما اتَّضحت دلالته على مراد الله، والمتشابه هو ما خفيت دلالته بالنَّظر إلى ظاهره[1].

وفائدة دراسة المحكم والمتشابه في القرآن الكريم هو ضبط نصوص القرآن الكريم بالنظر إلى وحدتها الموضوعية وسياقها التنزيلي الذي جاءت فيه من أجل تشكيل قالب كامل من **النصوص المحكمة** بعد النظر إلى مجموع هذه النصوص مجتمعة تحت بند موضوعي واحد ، حيث يعتبر أخذ النص المتشابه. لوحده وقطعه عن وحدته الموضوعية وسياقه التنزيلي الذي جاءت فيه ضربا من ضروب العمل بالمتشابه الذي ذمه الله في كتابه ونهانا عنه .

وقد جاء التنبيه هنا في ضرورة مراعاة دراسة المحكم والمتشابه في كتاب الله تعالى لضبط حركة الأحكام والتوجيهات في القرآن الكريم، حيث إن الأحكام التي جاءت في كتاب الله تعالى تقارب الخمسمائة آية، أما التوجيهات فقد جاءت بأكثر من ذلك، ولكي نضبط المنهجية التي تؤخذ بها هذه الأحكام والتوجيهات عمدنا إلى ضرورة مراعاة وحدتها الموضوعية أولا، وسياقها التنزيلي ثانيا، ومن ثَمَّ اعتبرنا الأحكام والتوجيهات التي تراعى فيها الوحدة الموضوعية والسياق التنزيلي التي جاءت فيها هي من قبيل المحكم، وعدم مراعاة وحدتها الموضوعية وسياقها التنزيلي من قبيل المتشابه الذي يذم متبعه، وقد ضربنا على هذا المثال من قبل آيات الجهاد والقتال، حيث أنَّ الآيات التي جاءت في كتاب الله تعالى المشتملة على أحكام الجهاد والقتال من الكثرة بمكان، ولضبط تنزيل هذه الأحكام على الواقع ومن ثَمَّ معرفة الحكم الملائم للمرحلة، هو ضبط وحدته الموضوعية بالنظر إلى مجموع النصوص ومن ثَمَّ ضبط سياقه التنزيلي التي جاءت فيه، فيصير الحكم من قبيل المحكم، وعلى نقيض ذلك فإن عشوائية الانتقاء من هذه الأحكام تصير من قبيل تتبع المتشابه المنهي عنه.

ويجدر بنا أن ننبه هنا أن بين علم التفسير الموضوعي والمحكم والمتشابه ترابط وتداخل لا بد منه، لضبط حركة الواقع بحركة النص الشرعي، ولضبط المنهجية التي يجب أن تستقى منها هذه الأحكام والتوجيهات.

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ٢-٢٧١، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

المطلب الثالث:
المفردة القرآنية ونفي الترادف في كتاب الله تعالى

قبل أن نتطرّق إلى موضوع الترادف في كتاب الله يجدرُ بنا أنْ نشيرَ إلى أهميَّة الكلمة في اللغة العربية.

تعتبر الكلمة هي الأساس الأوّل في الجملة العربية، التي تتكوَّن من مجموع الحروف العربيَّة الثمانية والعشرين، فالكلمة الواحدة بعد تصريفها تحمل في طيَّاتها دلالةً لغويَّة محدَّدة لا يمكن لأيِّ كلمةٍ أخرى أن تشترك معها في كلِّ أوصافها ومدلولاتها، فزيادة حرفٍ أو نقصانه، والتقديم والتأخير، كفيلٌ بأن يغيِّر مدلول كلمة إلى أخرى بشكلٍ كامل، والاشتراك في المعنى الأغلبي للكلمة مع كلمة أخرى لا يعني أنَّ الكلمتين مترادفتان تحملان ذات المدلول بشكل كامل، فلا بدَّ لكلِّ كلمة منهما من معنىً مميَّز عن الأخرى، حتى لا تصبح الكلمة من قبيل الحشْوِ الذي لا فائدة منه إلا تكثير الكلمات العربيَّة!

وفي هذا الكلام ينبِّهُ الراغب الأصفهاني على أهميَّة الاعتناء بالمباحث اللفظيَّة فيقول: (إنَّ أوَّل ما يحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن: العلوم اللفظيَّة، ومن العلوم اللفظيَّة تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يُدرك معانيه، كتحصيل اللِّبْن في كونه من أوَّل المعاون في بناء ما يريد أنْ يبنيه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط بل هو نافع في كلِّ علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذَّاق الشُّعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرِّعات عنها والمشتقَّات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنَّوى بالإضافة إلى أطايب الثَّمر، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة)[١].

وما قيل في الوجوه والنَّظائر في القرآن واشتراك بعض الكلمات العربية وتشابهها في ذات المدلول فيقال كما نقل ذلك ابن الجوزي-رحمه الله-: «واعلم أنَّ معنى الوجوه والنَّظائر أنْ تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظٍ واحد، وحركةٍ واحدة وأريد بكلِّ مكانٍ معنىً غير الآخر، فلفظ كلِّ كلمة ذكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضوع الآخر، وتفسير كلِّ كلمة بمعنى غير معنى الآخر هو الوجوه، فإذن النَّظائر اسمٌ للألفاظ، والوجوه اسمٌ للمعاني، فهذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنَّظائر، والذي أراده العلماء بوضع كتب الوجوه والنَّظائر أن يُعرِّفوا السامع لهذه النظائر أنَّ معانيها تختلف، وأنَّه ليس المراد بهذه اللفظة ما أريد بالأخرى»[٢].

---

(١) المفردات في غريب القرآن ١/ ٤، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، تم التحقيق في مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، بدون تاريخ.

(٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١/ ٨٣، عبد الرحمن بن الجوزي جمال الدين أبو الفرج، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

أما قضية الترادف:

فالحقيقة أنَّه لا فائدة من دراسة المتشابه اللفظي مع اعتقاد وقوع الترادف في كتاب الله جلَّ وعلا، وعلى من يدرسه أن يعتقد اعتقاداً جازماً أنْ لا ترادف في كلام المولى جلَّ في علاه؛ إذْ إنَّ ذلك دليلٌ على الحشو والزِّيادة، وهو صورة من صور النَّقص والعجز في التعبير، حيث يضطر الكاتب أو المتحدث أو الخطيب إلى استخدام أكثر من لفظ ليصل القارئُ أو السامعُ إلى المعنى المراد من كلامه، وكتاب الله أجلُّ من ذلك وأكبر، وما نفعله عند تفسيرنا للكلمات القرآنيَّة بكلماتٍ أخرى إنَّما هو من باب التقريب لا التحديد الدَّقيق لمعنى الكلمة؛ ليكون في متناول فهم من لم يدرك هذه الفروق الدَّقيقة، ومصداق ما يقال في نفي الترادف في الكتاب المحكم هو قول الله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود ١) .

ففي قوله: ﴿ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ دلالة على عدم الترادف في القرآن؛ ذلك أنَّ معنى أُحكمت آياته: نُظِّمت نظماً مُتقناً ورصفت رصفاً لا خلل فيه.

وفُصِّلت: أيْ مُيِّزَ بعضها عن بعض، وبُينت بياناً في أعلى أنواع البيان؛ ولذلك فهو في غاية الإحكام وقوة الاتِّساق.

والتفريق بين كلِّ شيءٍ يقتضي: التفريق بين الكلمات المتقاربة، وتحديد المعنى الدقيق لكلِّ كلمة، وبيان موضعها وتحديده، واختياره بحكمةٍ بالغة، وإحكامه في موضعه، ومنعه من الاختلاط مع غيره، ثم تفصيله وتمييزه من غيره، وذلك باختيار المكان الأنسب له، وبذلك تصبح آيات القرآن وكلماته معجزة بيانيَّة خارقة في: تنسيقها، وترتيبها، واختيار مواضعها، وتفصيلها التفصيل المناسب الذي لا هو ضيِّقٌ ولا هو واسعٌ بل تفصيل لائق مناسب معجز، حيث لو أردنا أن نستبدل كلمة بغيرها لما وجدنا ما يسد مسدَّها من الكلمات العربية -على اتِّساعها وتنوُّعها-، فإمَّا أن يُصبح المعنى فضفاضاً وإمَّا ضيِّقاً.

وقد أصاب الإمام الخطابي -رحمه الله- عندما بنى على إبدال كلمةٍ مكان أخرى من كلمات القرآن الكريم نتيجتين خطيرتين:

أولهما: فساد المعنى بالتبديل.

وثانيهما: سقوط البلاغة.

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ القرآن دعا إلى الفروق اللغوية ورفض الترادف، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ (الحجرات ١٤) .

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة ١٠٤) .

وعليه فإنّنا نومن بأنَّ هناك ألفاظاً متقاربةً في القرآن الكريم وألفاظاً متشابهةً ولكن لا يوجد ألفاظٌ مترادفةٌ تحمل نفس المعنى؛ إذْ إن ذلك حشوٌ وزيادة وكلام الله بعيدٌ كلَّ البُعد عن ذلك[1] .

وبناء على ما تقدَّم يلزمنا أن ننظر في كتاب العربيّة الأوَّل ونحن موقنون أنَّ لا ترادف بين كلماته؛ فنحاول جاهدين استخراج الفروق الدَّقيقة بين الكلمات المتشابه تشابهاً لفظياً.

وعليه، فإننا سنتناول مفردتين متشابهتين فرق القرآن الكريم بينهما، تؤصلان لحركية المصادر المرجعية، وهي التفريق بين فقه النزول والتنزيل.

المبحث الرابع:
التفريق بين النزول والتنزيل

قد نذكر أنَّ القرآن ذكَرَ النزول والتنزيل للقرآن الكريم، وقد فرَّق أهل العلم بين المفردتين، فمنهم من قال أنَّ النزول هو النزول جملة والتنزيل مُفرَّقاً، ومنهم من أنكر التفريق من حيث الدلالة، ويمكننا أنْ نُجمل الأقوال في ذلك فيما يلي :

الرأي الأول:

أنَّ التعبير بصيغة (التنزيل) أو إحدى مشتقاتها (نزَّل، نزَّلت، ينزِّل، ننزِّل، نزَّلنا، نزَّلناه، نزَّله، نزَّله) مرده إلى أنَّ القرآن الكريم نزل **منجَّماً مفرَّقاً** على فترات، امتدَّت قرابة ثلاثٍ وعشرين سنة، بينما كان التعبير بصيغة (الإنزال) أو إحدى مشتقاتها (أنزل، أنزلت، أنزله، أنزلناه، أنزلنا، ينزل) مرده إلى أنَّ التوراة والإنجيل **نزلا دفعةً واحدةً**، ولم ينزلا على فترات، كما كان من شأن القرآن الذي نزل دفعةً واحدةً إلى السماء الدنيا: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ (البروج ٢١-٢٢)، ثمَّ نزل على **دفعات** على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وممن تبنَّى هذا الرأي: الزمخشري والقرطبي والرَّازي والثعلبي والآلوسي وغيرهم.

الرأي الثاني:

أنَّ التغاير بين الفعلين ليس من باب أنَّ القرآن نزل على **دفعات**، والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة، بل الأمر مرجعه إلى **قوّة أحد الفعلين**؛ إذ إنَّ الفعل المضعَّف يدلُّ دلالة أقوى على الحدث من الفعل غير المضعَّف، ويكون المقصود هنا بيان فضل القرآن وهيمنته على غيره من الكتب، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة ٤٨).

(١) ينظر بحث الأستاذ الدكتور أنس العمايرة: لا ترادف في القرآن الكريم على موقع الألوكة http:\\majles.alukah.net/t85035

الرأي الثالث:

أنَّ الأمر لا يعدو أن يكون من باب التنويع والتغيير في اللفظ، من غير أنْ يحمل دلالاتٍ أُخرى، وقد تبنَّى هذا الرأي أبو حيان في «تفسيره»، حيث قال:

«غاير بين (نزَّل) و(أنزل)، وإنْ كانا بمعنىً واحد، إذْ التضعيف للتعدية، كما أنَّ الهمزة للتعدية»، وقد ردَّ أبو حيان قول الزمخشري -السابق الذِّكر- وقال بهذا الصَّدد: «التفرقة بين (نزَّل) و(أنزل)، لا تصح؛ لأنَّ التضعيف في (نزَّل) ليس للتكثير والتفريق، وإنَّما هو للتعديَّة، وهو مُرادف للهمزة»[1].

وما نخلص إليه من هذا كلِّه هو أنَّ الرأي الأول والثاني هو الأقرب للصَّواب، ولربما جمعنا بينها، وحريٌّ بنا بعد الوقوف على آراء المفسِّرين حول هذين الفعلين، أنْ نشير إلى أمرين اثنين:

أحدهما: أنَّ بعض المفسرين لم يتعرَّض لذكر أيِّ فرقٍ بين هذين الفعلين، ما يُفهم من هذا المسلك أنَّ الفعلين عنده بمعنى واحد، وهو القول بالترادف الذي لا نقرُّهُ أصلاً وهذا هو صنيع الطبري وابن كثير وغيرهما.

ثانيهما: أنَّ هذه الآراء لا تعدو كونها **اجتهاداتٍ** قد تكونُ صائبةً وقد تكون خاطئةً، وقد يتَّفق القارئ معها وقد يخالفها، لكن تبقى في نهاية المطاف رؤية اجتهادية، لا يليق التقليل من شأنها، بل المطلوب تقديرها، سواء اتفقنا معها أو خالفناها.

ونحن بذلك نريد أنْ نصل إلى أنَّ استخدام المصطلحين يعبِّر عن حالتين للقرآن ومرحلتين له في علاقته مع المخاطبين: **بين مرحلة النُّزول الأوَّل التي انتهت باكتمال القرآن حرفاً وجزءاً من المعنى، ومرحلة التنزيل بالمعنى التي ما تزال إلى هذا اليوم وستبقى إلى قيام الساعة.**

قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ (الإسراء ١٠٥-١٠٦).

فهو ما يزال يتنزَّل بمعانيه مفرقاً على مكوث عمر أمَّة الإسلام بحركة تنزيل مستمر، كما أنَّ حق المخاطبين بالسؤال قائمٌ إلى يوم الدين، لكنَّ الكشف عن الجواب مرتبطٌ بالحاجة له وبحركة التنزيل، لأنَّ حركة التنزيل متصلة بالواقع:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ (المائدة ١٠١-١٠٢).

ولأنَّ الشفاء في القرآن حالة مستمرَّة باقية إلى يوم الدين، عبَّر عنها بالتنزيل:

---

(١) البحر المحيط في التفسير ٣/ ١٦، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر-بيروت، ١٤٢٠هـ.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء ٨٢).

ولأنَّ التنزيل له دلالة التفريق والاستمرار، فغالباً ما ترتبط خصائص القرآن المستمرَّة التي تعبِّر عن حركيَّته بمصطلح التنزيل، **فما نريد الوصول إليه أنَّ النُّزول هو الصفَّة العامَّة في مرحلة التشريع الأوَّل التي نزل فيها القرآن واكتمل بعد التفريق، والتنزيل هو منهجيَّة اتصال القرآن بالواقع بعد اكتمال النزول الأول، وهي تنزُّل المعاني.**

وسيكون لنا تفصيلٌ في المباحث القادمة.

الفصل السَّابع



فقه النُّزول





المبحث الأوَّل:
المقصود بفقه النزول

جاء في التحرير والتنوير لابن عاشور رحمه الله: «والإنزالُ جعْلُ الشيء نازلاً، والنُّزول الانتقال من علوٍّ إلى سُفل وهو حقيقة في انتقال الذَّوات من علوٍّ، ويُطلَق الإنزال ومادَّة اشتقاقه بوجه المجاز اللُّغويُّ على معانٍ راجعة إلى تشبيه عمل بالنُّزول لاعتبار شرفٍ ورفعةٍ معنويَّة كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ (الأعراف ٢٦)، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ (الزمر ٦)؛ لأنَّ خلق الله وعطاءَه يُجعَل كوصول الشيء من جهة عُليا لشرفه، وأمَّا إطلاقه على بلوغ الوصف من الله إلى الأنبياء فهو إمَّا «مجازٌ عقلي» بإسناد النُّزول إلى الوحي تبعاً لنزول الملك مبلِّغه الذي يتَّصل بهذا العالَم نازلاً من العالم العلوي قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء ١٩٤، ١٩٥)، فإنَّ الملك ملابس للكلام المأمور بتبليغه، وإمَّا مجازٌ لغويٌّ بتشبيه المعاني التي تُلقى إلى النَّبي بشيءٍ وصل من مكان عال، ووجه الشَّبه هو الارتفاع المعنويُّ لا سيما إذا كان الوحيُ كلاماً سمعه الرَّسول كالقرآن وكما أنزل إلى موسى، وكما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بعض أحوال الوحي»[1].

وينبغي لنا قبل الشروع في المبحث، أنْ نوضِّح ما نعنيه بفقه النُّزول حتى يستقيم باقي الحديث في ذهن القارئ.

ونعني به: الصِّفات الحركيَّة التي نزل بها القرآن أو الشَّكل الحركي الذي نزل عليه القرآن، وهي الحالة الأولى التي كان عليها نزول القرآن، والتي اكتمل فيها بعد تفريقه.

وسوف نعالج في هذا الفصل ماهيَّة وحقيقة العلوم الحركيَّة التي وصفت النُّزول الأوَّل.

المبحث الثاني:
الصفات الحركية في مرحلة النزول الأول

وهي الصفات التي نستطيع من خلالها معرفة الشكل الدقيق للحالة التي نزل عليها القرآن في مرحلة النزول الأول وهي:

- أسباب النزول.
- جو النزول.
- تفريق نزول القرآن.
- الوحي المتصل.

وإليكم التفصيل:

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف بالتحرير والتنوير ١/٢٣٨، محمد الطاهر عاشور، الدار التونسية للنشر–تونس، ١٩٨٤م.

المطلب الأول:
أسباب النزول

بالنَّظر إلى آيات القرآن الكريم يتضِّح لنا أنَّها من حيث تعلُّقها بمُجريات الواقع الأرضي وقت النزول قسمان:

– قسمٌ نزل غير مُرتبطٍ بسبب من الأسباب الخاصَّة، وهذا أكثر القرآن، لكنَّه ولا شكَّ مرتبطٌ بـ«جوِّ النزول» وسيأتي بيانه.

– قسمٌ نزل مُرتبطاً بسببٍ من الأسباب الخاصَّة، التي تسمَّى «أسباب النُّزول» وبه نبدأ العرض.

وهو وفقاً لما حدَّه المختصون: «**ما نزلت الآية أو الآيات متحدِّثة عنه أو مبيِّنة لحكمة وقوعه، والمعنى: أنَّه حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وُجِّه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتَّصل بتلك الحادثة أو جواب هذا السؤال**».

والأمثلة على هذا كثيرة، ولا نجد داعياً لإيراد الأمثلة في هذا الموضوع لوضوح المقام باعتبار أنَّ قارئنا الكريم ليس بغريبٍ على العلوم الشرعيَّة.

إنَّ «أسباب النُّزول» دليلٌ على واقعيَّة النصِّ القرآني، ومجيؤه ليُصلِح واقعاً بشريَّاً حقيقيَّاً، يعيشهُ الناس ويعيشون أحداثه وملابساته، جاء النصُّ القرآني ليعالج الواقع ويوجهه، كمثالٍ على توجيهه للواقع البشريِّ دائماً وأبداً.

«وأسباب النزول والورود من أعظم ما يساعد على تفسير النص وتوجيه معناه، لأن سبب النزول يتضمن الأحداث والملابسات التي لأجلها نزلت بعض الآيات، وبسببها ترد بعض الأحاديث، ومن مظاهر قيمة هذه الأسباب والملابسات في التفسير والبيان، دورها في بيان العلل الباعثة والأوصاف المؤثرة في تشريع بعض الأحكام، وقد التفت المفسرون إلى هذه القيمة الوظيفية لأسباب النزول فراعوها عند بيان قيمة البحث في أسباب النزول، عندما نصوا على أن من فوائد العلم بأسباب النزول التمكن من معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم»[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان ٣٣)، إنَّ مصاحبة نزول القرآن لتُجدِّدَ الوقائع والحوادث وتوجيه الأمَّة الإسلاميَّة إلى الموقف الشرعي منها، وما يجب فيها واتجاهها لَدَليلٌ على طبيعة الوظيفة القرآنيَّة في توجيه الأمَّة ودلالتها والأخذُ بيدها إلى سواء السَّبيل، وهو الضَّامنُ لاستقامة أمرها، وصحَّة منهجها، وسلامة خطوها.

لقد كان ذلك المجتمع الذي يوجهه القرآن ويأخذ بيده مجتمعاً يقوده رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقف

(١) التجديد الأصولي: نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه ٣٨٥، إعداد جماعي بإشراف: د.أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

على رأسه، ولو كان لمجتمع أو بيئة أنْ تستغني عن التوجيه القرآني لكان ذاك، لِما لوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وتوجيهه له، لكنَّ الواقع أنَّ التوجيه القرآني إنَّما كان فيه، والهداية القرآنيَّة كانت له، في دلالة واضحة على حاجة كلِّ مجتمع لهذا الهدْي والتوجيه، **إذْ عدم وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضوره آكد في ضرورة استدعاء التوجيه القرآني والنَّظر فيما يوجه إليه.**

«إنَّ دراسة أسباب النُّزول لا تُرجعنا إلى الخلف والوراء، وإلى إعادة استنساخ التجربة الأولى في مرحلتها التاريخيَّة والزَّمنيَّة، وفي اتباع نفس مراحل النُّزول كالقول-مثلاً- بأنَّ تحريم الخمر مرَّ على أربعة مراحل لمراعاة التدريج والتيسير، فبدل أنْ يخاطَب الإنسان بتحريم الخمر بصورةٍ نهائيَّة يخاطب بالتحريم الأوَّل، ثمَّ بعد ذلك يُخاطب بالتحريم الثاني، وهكذا إلى أنْ يتيسَّر أمر الاستجابة للتحريم النهائي!! فهذا الأمرُ من السَّذاجة بمكان، فتحريمُ الخمر قد استقرَّ على **أنَّه حكمٌ نهائيٌّ وقطعيٌّ**، والدَّرس الذي نستفيده من التدرُّج في تحريم الخمر أيام التنزيل إنَّما هو تقرير التدرج **كمنهجٍ في الفهم والتنزيل**، وإدراك أسرار التشريع، ومراعاة اليُسر والرِّفق فيما يكون فيه اليُسر والرِّفق وغير ذلك.

فأسباب النُّزول هي نماذج ودلائل وأمارات على أسباب حقيقيَّة، يتوقَّف إدراكها إدراكاً حسِّياً على إدراك هذه النماذج، مما يعني ضرورة النَّظر إلى الأسباب المذكورة بوصفها أدوات ومساعدات على حسن فهم النَّصِّ وإدراك مراميه ومغازيه وأبعاده»[1].

«وأسبابُ النُّزول تُتخَّذ مناسباتٍ للإعلان عن الأحكام العامَّة على نحو القضايا الحقيقية، لهذا يبقى اللفظ الوارد على **عمومه** ولا ينحصر في حدود المورد الخارجي، فيكون المورد الخارجي ظرفاً خاصاً وسبباً لنزول الحكم العامِّ الذي يعالج كلَّ الظروف والموارد المشابهة له من غير تقييد بالزَّمان أو المكان»[2].

إنَّ هذه الأسباب التي تنزَّلتْ لأجلها الآيات وفقاً لظروف خاصَّة وملابساتٍ محدَّدة، لهي شكلٌ من أشكال **حركيَّة المصادر المرجعيَّة** ودليل عليها.

بل إنَّ بعض الآيات لا يمكن فهمها أصلاً إلا بالنَّظر في سبب نزولها، حتَّى قال الواحدي: أنَّه «يمتنع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصَّتها وبيان نزولها»[3].

وقال الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: «معرفة سبب النُّزول يُعين على فهم الآية، فإنَّ العلم بالسَّبب يورث العلم بالمُسَبَّب»[4].

---

(١) القراءة التأويلية للقرآن الكريم بين التبديد والتجديد ٢١٢، نور الدين مختار عمار الخادمي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

(٢) القراءة التأويلية للقرآن الكريم بين التبديد والتجديد ٢١٣، نور الدين مختار عمار الخادمي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

(٣) أسباب النزول ٨، أبو الحسن الواحدي، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ١٦، ابن تيمية، دار مكتبة الحياة-بيروت، ١٤٩٠هـ، ١٩٨٠م.

وهذا يدلُّ على كمال العلاقة بين النصِّ القرآنيِّ والواقع البشري، وقدرة هذا النصِّ على معالجة الواقع وتوجيهه والحركة به، وهذا ما نقصده.

إلا أنَّ أسباب النزول صفة حركيَّة توضِّح لنا مدى اتصال النصِّ بالواقع وهو السؤال: هل توقَّف هذا النَّوع من الحركة في نصوص القرآن؟ وهل من الممكن أن تعيش الأمَّة أسباباً للنُّزول وأنْ تعيش النزول؟

المطلب الثاني:
جو النزول

ذكرنا أنَّ القرآن الكريم من حيث وجود أسباب النزول وعدمها قسمان: الأوَّل ما تمَّ التنبيه عليه أولاً، وأمَّا الثاني فما نحن بصدد الحديث عنه، وهو ما نزل ابتداءً من غير سببٍ خاصٍّ أو حادثةٍ معيَّنة اقتضت نزوله.

لكنَّ هذا القسم وإنْ لم يكن مُرتبطاً بالسَّبب الخاصِّ والحادثة المعيَّنة فإنَّه مرتبطٌ بجوٍّ معيَّن، له طبيعةٌ خاصَّة ومميِّزات عامَّة وملابساتٌ متعدِّدة نزل فيها، لا يمكن فهمه إلا باستحضار جوِّ نزوله، ومعرفة خصائص ذلك الجوِّ وطبيعته؛ الأمر الذي سيقود حتماً إلى توجيه في طبيعة فهم النَّصِّ القرآني وكيفية الإفادة منه وتوظيفه في نَواحٍ مختلفة.

وينبغي هنا أن نمثِّل ليتَّضح المقال، إذْ هو من الأهميَّة بالمكان المرموق، فنقولُ وعلى الله التُّكلان:

لو أنَّنا نظرنا في سورة البروج -مثلاً- فسنجد جوَّاً واضحاً يُفهم من آيات السورة وواقعها وموضوعها، وهذا مع التنبه إلى أنَّ السورة ليس لها سبب نزول خاصّ، يمكن أن نربطها به، ونفهمها في ضوئه، لكنَّ لها -ولا شكَّ- جوٌّ مميَّز لها، نزلت فيه فعالجت نفوس المؤمنين الذين عاشوه، وخاطبتهم بما يقتضيه ذلك الجو، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ (البروج ١-٢٢).

فهذه السُّورة تدلُّ آياتها على معانٍ ساطعة تمرُّ بها الجماعة المؤمنة: إنها الشدَّة والابتلاء والتعذيب والقتل والتضييق، إنَّها سطوة الكفر وقسوته وحربه الشَّعواء على الجماعة المسلمة العزلاء، التي لا يملك أصحابها إلا الصَّبر على ما يمرُّون به، بدون الدَّعوة إلى فعلٍ ماديٍّ للردِّ على الباطل بأدواته، لما يترتَّب على ذلك في مثل هذه

المراحل من تسويغ سحق الجماعة المسلمة، لذا لم نجد السورة تذكره أو تحثُّ عليه ، بل الإيماء إلى وجوب الصَّبر مع الثبات هو المتبادر عند التلاوة والتأمُّل، والأمل بانفراج الشدَّة وانكشاف الغُمَّة وتغيير الحال، وتعليق الجزاء والحساب بما عند الله تعالى وحده، والفوز بما أعدَّه الله للصَّابرين الثابتين على أمره، وإن كلَّفهم ذلك أرواحهم وأموالهم، وفراق الأوطان والخلان، وإنَّما حسن التعليق بما عند الله لا باقتراب نصرٍ يجري على أيديهم وتراه عيونهم لما أنَّ هذا النصر قد يتأخَّر فلا تراه عيونهم ولا يجريه الله على أيديهم، وإنما على أيدي من بعدهم، فإذا تأخر النَّصُّ -لحكمة يعلمها الله- لم تتزلزلْ قلوبهم ولم يتأذَّ إيمانهم ويقينهم؛ لما أنهم ينتظرون وفاء الحساب وفصل ما بينهم وبين أعدائهم بين يدي الله الحكم العدل، ناصر المؤمنين ومذلِّ الجبابرة الكافرين.

ثمَّ إنَّ من عاش أجواء نزول سورة البروج ثمَّ قرأها بعين من يعيش معها نزلت على قلبه كألذِّ من الماء البارد على الكبد الظامئ، **ورأينا أنَّ الظَّرف المشابه لظرف نزول السُّورة والجوَّ المشابه لجوِّها يستلزمُ توجيهاً شبيهاً بتوجيهها،** سواء بالتوجيه الحركي، أو بالخطاب النفسيِّ، أو بطبيعة الموقف من المعسكر المعادي، وهكذا، خصوصاً إنْ علمنا أنَّ جوَّ نزول هذه السورة قد تناسب وحركة المرحلة التي نزلت فيها وهي المرحلة المكِّية الثانية.

وكلُّ هذا يدلُّ -مرةً أخرى- على الحركيَّة الأصيلة في المصادر المرجعيَّة، والتي تُراعي تغيُّر الظروف واختلاف الأصول، وجاهزيَّة المصادر المرجعيَّة لتوفير أرضيَّة مناسبةٍ للعمل في مختلف المعطيات الواقعيَّة.

وبعد:

فقد دلَّنا هذا المطلب بقسميه: أسباب النزول، وجو النزول على حركيَّة المصادر المرجعيَّة من القرآن والسُّنة أو السيرة على وجه التحديد، وهذا ما قصدنا إليه هنا، فلله الحمد والمنَّة.

المطلب الثالث:
تفريق نزول القرآن

لسنا في هذا المطلب بحاجة إلى أكثر من إشارة إلى مسألةٍ هي مَحلُّ نطق النَّصِّ القرآني، ومعلوم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومحل إجماع الصحابة رضوان الله عليهم، ألا وهي: «تفريق نزول القرآن»، بحيث إنَّه تنزَّل على مدَّة ثلاثة وعشرين عاماً حسب الوقائع والأحداث «والأجواء» -كما تمَّ البيان سابقاً-.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء ١٠٥-١٠٦).

«لقد جاء القرآن ليُربِّي أمَّة ويُقيم لها نظاماً، فتحمله هذه الأمَّة إلى مشارقِ الأرض ومغاربها وتُعلِّم به البشرية

هذا النظامَ وفق المنهج الكامل المتكامل، **ومن ثمَّ فقد جاء هذا القرآن مفرَّقاً وفق الحاجات الواقعيَّة لتلك الأمَّة،** ووفق الملابسات التي صاحبت التربية الأولى.

والتربية تتمُّ في الزَّمن الطويل وبالتجربة العميقة في الزَّمن الطويل، جاء ليكون منهجاً عمليًّا يتحقَّق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد، لا فقهاً نظرياً ولا فكرةً تجريديةً تُعرض للقراءة والاستمتاع الذهني!

وتلك حكمة نزوله متفرقاً لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى.

ولقد تلقَّاه الجيل الأوَّل من المسلمين على هذا المعنى، تلقَّوه توجيهاً يطبَّق في واقع الحياة كلما جاءَهم منه أمرٌ ونهي، وكلَّما تلقَّوا منه أدباً أو فريضة، ولم يأخذوه مُتعةً عقليَّةً أو نفسيَّةً كما كانوا يأخذون الشِّعر والأدب، ولا تسليةً وتلهيةً كما كانوا يأخذون القصص والأساطير؛ تكيَّفوا به في حياتهم اليوميَّة، تكيَّفوا به في مشاعرهم وضمائرهم وفي سلوكهم ونشاطهم، وفي بيوتهم ومعاشهم، فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كلَّ ما عداه ممَّا ورثوه وممَّا عرفوه وممَّا مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان ٣٢).

فإنهم لما اعترضوا عليه بأنَّ القرآن لم ينزل دفعةً واحدة جاء الجواب ببيان حكمتين لتفريقه:

الأولى: تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

الثانية: ترتيل القرآن (ر، ت، ل) مادَّة ترجع في المعنى إلى التناسق وحُسْن التنضيد، وترتيل القرآن في التلاوة: هو إلقاء حروفه حرفاً حرفاً وكلمة كلمة، وآياته آية آية على تؤدةٍ ومهْل حتَّى يتبيَّن للقارئ والسامع، ولا يخفى عليه شيءٌ منه.

وأمَّا ترتيله في نزوله وهو المراد هنا فإنَّه: إنزاله آيةً وآيتين وآيات، مُفرَّقاً نجوماً على حسب الوقائع[2].

«وفي بيان الواقعة عند وقوعها وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، وردِّ الشبه عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده ما فيه من تأثير في النُّفوس، ووقعٍ في القلوب، ورسوخٍ في العقول، وجلاءٍ في البيان وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السَّامعين.

وما كان هذا كلَّه ليأتي لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب وهذا التنضيد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٥٣، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٢) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ١/ ١٨١، عبد الحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي، وترتيب: د.توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، علق عليه وخرج أياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

الغريب، الذي بلغ الغاية من الحُسن والمنفعة»[1].

ففي الآيات السابقة، دليلٌ على حركيَّة النصِّ القرآني وتفاعله مع الواقع توجيهاً وضبطاً وتنزيلاً، فتحصل مما سبق:

أنَّ من معالم الحركيَّة في المصادر الشرعية: هذا التفريق للقرآن الكريم مراعاة للحِكَم المعروفة مما ذكر في مظانِّ المسألة من كتب التفسير وعلوم القرآن.

وان كان التفريق لتثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فهل لنا نحن الآن ما يثبِّت قلوبنا؟ وهل في وسعنا أن نفرِّق القرآن على واقع الأمَّة؟ وهل صفة التفريق خاصَّة لمرحلة النزول الأوَّل، أمْ أنها صفة عضوية دائمة في كتاب الله؟ وإذا كانت كذلك، فكيف يكون التفريق، ما هو معياره وضوابطه؟

المطلب الرابع:
الوحي المتصل

وممَّا يتَّصل كذلك بالمطلب السابق -وهو تفريق النُّزول- الوحي المتصل، والمقصود به: أنَّ هذا القرآن المنزَّل من عند الله تعالى كان حاضراً متَّصلاً بحياة الصَّحابة رضوان الله تعالى عليهم، يصحِّح سلوكهم، ويعالج مشكلاتهم، ويجيب على تساؤلاتهم، ويوضِّح لهم الطريق، ويكشف لهم العدوّ، ويحذِّرهم من الكمائن، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان ٣٣).

أيْ: «ولا يقولون قولاً يُعارضون به الحقَّ إلا أجبناهم بما هو الحقُّ في نفس الأمر وأبينُ وأوضح وأفصح من مقالتهم»[2].

لقد عاشوا بالقرآن، وعاش القرآن معهم، يستسقون منه التَّوجيه المباشر، ويغيثهم بغيث هُداه، ويأخذ بأيديهم إلى حيث السَّلامة والنَّجاة، فكانوا به أحياء، وكان لهم روحاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى ٥٢-٥٣).

لقد عاش أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقبون نزول الوحي في الحوادث والوقائع مُرشداً وموجِّهاً ومعلِّماً، مبيِّناً لهم ما يحتاجون إليه عند حاجتهم، فاصلاً بينهم في ما يقع ويغمض:

ففي المنافقين: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ

(١) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ١/ ١٨١، عبد الحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي، وترتيب: د.توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، علق عليه وخرج أياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٩٩، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

﴿ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ (النساء ٨٨)، ذلك أنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في شأن المنافقين بعد ظهور دلائل كفرهم، فنزلت الآية تفصِّل بينهم على معنى: «مالكم صرتم في المنافقين فئتين، أيْ: لِمَ تختلفون في كفرهم مع أنَّ دلائل كفرهم ونفاقهم ظاهرة جليَّة، فليس لكم أنْ تختلفوا فيهم، بل يجب أنْ تقطعوا بكفرهم!»[1].

وكذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (الأحزاب ١٣-١٥).

وكذلك في المخلَّفين من الأعراب قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٤ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الفتح ١١-١٥)، يرشدهم إلى منهج يتبعونه في التعامل مع هؤلاء الأعراب.

وفي اليهود؛ يبيّن لهم مكايدهم، ويفضح لهم أسرار تآمرهم، وخُبث فعالهم، وهو كثيرٌ في القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ (آل عمران ٧٢).

وقوله: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (البقرة ١٤٢).

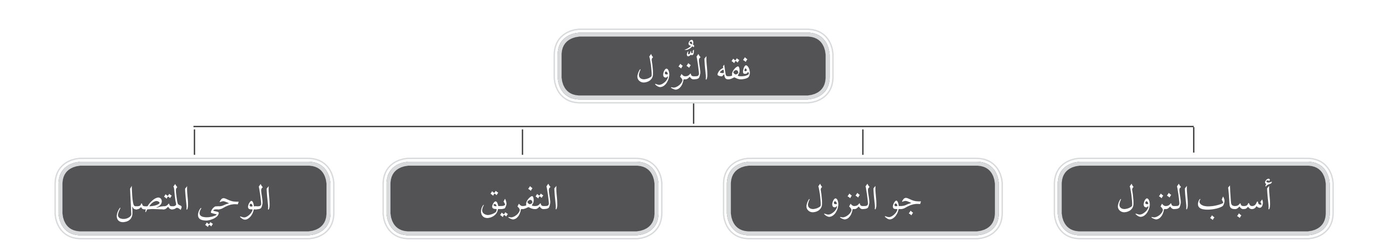
والأمثلة في هذا كثيرة، وقد اتَّضحت -بما سبق- الفكرة، فلا داعي للاستكثار، والحاصل:

أنَّ جيل الصحابة كانوا على اتِّصالٍ دائم بالوحي لتنظيم شؤون حياتهم وعلاقاتهم، وللاستهداء في ظلمات المشكلات، وللنَّجاة في الخضم من الكربات، فكان في هذا دليلٌ على حركيَّة مرجعيَّتهم التي يعيشون بها ويتصلون، ومرشدٌ إلى أنَّ هذه المرجعيَّة شديدة الاتصال بالواقع البشري، ليست مُثُلاً جامدة، ولا قواعد هامدة، وإنَّما هي مرجعيَّة حيَّة لديها القدرة الكاملة للحياة في مجتمع البشر، تأخذ بيده نحو الهدى، وتعالج ما فيه من الضَّلال والهوى.

---

(١) مفاتيح الغيب المعروف بتفسير الرازي ٣/ ١٥١٩، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ.

وكما أنَّ القرآن نزل في مرحلة التشريع الأوَّل، فهو لا زال يتنزَّل إلى هذا اليوم، فهذه هي الصَّفة التي تعبِّر عن كمال إعجاز القرآن واستمراره بالتنزُّل، لتبقى الأمَّة وأهل الحقِّ منها في حالة اتِّصالٍ دائمٍ مع كتاب الله، وهي تعيش واقعها بعد مئات السَّنوات من مرحلة النزول الأوَّل .



الفصل الثامن



فقه التنزيل





المبحث الأوَّل:
المقصود بفقه التنزيل

التنزيل: مصدرٌ من الرُّباعي للفعل «نزَّل» وهيَ تدلُّ على هبوط شيءٍ ووقوعه من علوٍّ شيئاً بعد شيء، وأصله من «نزل» فنقول: نزل الرجل عن دابَّته نزولاً، ونزل المطر من السماء نزولاً[١] .

وقال ابن فارس في معنى «التنزيل»: ترتيب الشيء ووضعه منزله[٢] .

وقد استعمل المعاصرون في تفاسيرهم مصطلح «التطبيق»، أمثال محمد رشيد رضا وابن باديس وشلتوت وسيد قطب وغيرهم ، ويريدون بذلك : تطبيق الآيات القرآنيَّة على الحوادث والوقائع المعاصرة لهم.

«والتعبير الأوَّل أَوْلى؛ لأنَّه يحمل معنى «التطبيق»، ولأنَّه يوحي بأنَّ آيات القرآن الكريم حيَّة متجدِّدةً تتنزَّل في كلِّ وقتٍ وحينٍ لمعالجة الوقائع والأحداث عبر مرِّ العصور، ولأنَّ لفظ التنزيل يُعطي الرِّفعة للآيات، وأنَّها تنزل من علوٍّ بحاكميَّة وسلطان»[٣].

ولأنَّ لفظ التطبيق يوحي -فيما نرى- بأنَّ ما يُطبَّق من الآيات واضح المعنى صريح الدلالة، أمَّا التنزيل فلعلَّ فيه إشارة إلى نوع استنباط واستلهام، وذلك من مقصوداتنا في تسميته «فقه التنزيل».

ويظهر بهذا أنَّنا بإطلاقنا لفظ «التنزيل» نعني به أمراً غير «النزول»، فإذا كان «النزول» هو نزول الآيات من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، **فالتنزيل في اصطلاحنا هنا: هو تنزيل الآيات على الواقع ومعالجته عبر النَّظر في توجيهات الآيات؛ أيْ أننا نقصد في فقه التنزيل الصِّفات الحركيَّة للقرآن بعد اكتمال نزوله وهي ما تقابل الصِّفات الحركيَّة في مرحلة النزول الأوَّل.**

ولهذا المعنى الذي نقصده علاقة وثيقة بـ«النزول الأوَّل» على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذْ كان القرآن يتنزَّل عليه تدريجياً حسب الوقائع والأحداث والمقتضيات -كما هو معلوم- معالجاً لواقعه، موجهاً للمؤمنين به، مُصَوباً مسدَّداً ومجيباً عن سؤالاتهم.

قال ابن كثير-رحمه الله-: «نزل مُفرَّقاً مُنجَّماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم»[٤].

وقال ابن عاشور-رحمه الله- مُبيِّناً حكمة التنجيم والتفريق: «إنَّ القرآن لو لم ينزل مُنجماً على حسب الحوادث

---

(١) انظر: جمهرة اللغة / ٨٢٧، محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر، تحقيق: رمزيمنير بعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، ولسان العرب: ١١/ ٦٥٦، ابن منظور الأنصاري، دار صادر-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٧، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

(٣) تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين ٢٨٢، د.عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، دار النشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٧، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

لما ظهر في كثيرٍ من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها»[1].

وهذا المعنى وإن كان متعلِّقاً بـ«فقه النزول» الذي قدَّمنا الحديث عنه في المبحث السابق، إلا أنَّه ساقنا إلى التعبير عن مُقتضى الحكمة ذاتها في «التنزيل» على الواقع التالي لعصر «النزول الأوَّل».

« إذا تبيَّن هذا، فإنَّ قضيَّة تنزيل الآيات على الواقع في عصر المفسِّر هي امتثال لهذه الحكمة الجليلة، وهي معالجة الوقائع والأحداث من خلال كلام الله تعالى في كلِّ عصرٍ وزمن، لمشابهتها بحوادث ووقائع عصر التنزيل، التي من أجلها نزل بعض النصِّ القرآني الكريم، ولأنَّه كتاب الزَّمن الذي لم يكن محصوراً في وقت دون غيره»[2].

ويلطف ذكر ما قاله ابن باديس -رحمه الله-، إذ يتكلَّم عن الحكمة من نزول القرآن مفرَّقاً: «أن نقرأ القرآن ونتفهَّمه، حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نُصب أعيننا، لنطبِّق آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع»[3].

والحقُّ أنَّ «فقه التنزيل» هو «الثمرة الحَركيَّة» للمصادر المرجعيَّة، التي سبق وقرَّرنا شمولها، فأصبح لهذه المصادر -بالإضافة إلى ربَّانيتها- الخصيصتان المؤهَّلتان لحكم الواقع وتوجيهه ومعالجته:

- الشموليَّة، المُنبِئَة عن تغطية كل جانب يُحتاج إليه في الزَّمان والمكان.

- الحركيَّة، المُنبِئَة عن قدرة هذه المصادر المرجعيَّة على توجيه الواقع المتغيِّر والعمل فيه، كما عملت في الواقع الأوَّل ووجهته عند النزول.

لكنَّنا هنا أردنا توثيق التأصيل في صدر الباحث والتأكيد على حركيَّة المصادر المرجعيَّة وصلاحيتها للعمل في أيِّ واقع.

كما أنَّنا نقصد-فيما يأتي- إلى بيان عناصر وإبراز مقوِّمات حركيَّة هذه المصادر المرجعيَّة، فالله المستعان.

وثمَّة عناصر حركيَّة في «فقه التنزيل» مقابلة للعناصر الحركيَّة في «فقه النزول»، فإذا وضعنا في «فقه النزول» العناصر الثلاثة التي تمَّ بحثها:

١) أسباب النزول وأجواؤه.

٢) تفريق نزول القرآن.

٣) الوحيُ المتصل.

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف بالتحرير والتنوير ١٩/ ٢٠، محمد الطاهر عاشور، الدار التونسية للنشر-تونس، ١٩٨٤م.

(٢) الكلام للأستاذ عبد العزيز الضامر وإنّما قال: «بعض النص القرآني لّما قرره قبل من أن المرتبط بأسباب النزول من القرآن ببعضه، ولكننا عالجنا هذا في المبحث السابق بالكلام عن سبب النزول وهو جو النزول»، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين ٤٠، د.عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، دار النشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

(٣) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ١٨١، عبد الحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي، وترتيب: د.توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، علق عليه وخرج أياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

فإنَّه يحسن أنْ نضع العناصر المقابلة لها في «فقه التنزيل»، كما يلي:

١) أسباب التنزيل.

٢) التبديل.

٣) الروح.

وهذه العناصر مقابلة تماماً لِتلْكم التي سبق بحثها في المبحث السابق «فقه النزول»، وسنعرِّج على كلٍّ منها لتتَّضح الصورة الأساسيَّة المقصودة.

المبحث الثاني:
الصفات الحركية في فقه التنزيل

وهي الصفات التي نستطيع من خلالها تنزيلَ الآيات القرآنية على الواقع ، عبر منهجية استنباط دقيقة، وهي على النحو التالي:

المطلب الأول:
أسباب التنزيل

هذا المطلب من أهمِّ المطالب التي ينبغي بحثها، وإنِّنا –وإنْ لمْ نتمكّن من إنضاجه على التمام– فإنَّنا نفتح الباب، ونُؤذن القوم بلزوم الدخول.

والمقصود بأسباب التنزيل: **الأحوال والظُّروف التي تستدعي النصَّ الشرعيَّ ليتنزَّل على الواقع المُعاش**، فكما أنَّ هناك أسباباً وجواً للنزول، فإنَّ هنالك ما يُشبهه في التنزيل وكما كانت الآيات تتنزَّل على أحداث بعينها أو أجواء وظروف موصوفة فما زال القرآن يتنزَّل على أحداث بعينها وأجواء مرصودة موصوفة.

وذلك يكون في صورٍ متعدِّدة تمثل شمولية القرآن الكريم، منها:

السنن والقوانين والتي تعبر عن الشمولية الإجمالية في القرآن الكريم، أما الشمولية التفصيلية فإنما تكون في ثلاثة أمور:

الأولى: القصص.

الثانية: الأمثال.

الثالثة: النُّصوص الإخباريَّة.

ثم تكون النتيجة النهائية على شكل:

الأحكام والتوجيهات.

وإليكم التفصيل:

الفرع الأول: السنن والقوانين.

في السُّنن والقوانين التي أودعها الله كتابه، ما يُستعان به في «التنزيل» على الواقع.

وقد امتلأ كتاب الله تعالى بهذه السُّنن «الاجتماعية» التي تحكم حياة الأمم والمجتمعات، فقد كان وما زال وسيبقى النِّظام البديع والقواعد المحكمة والقوانين الثابتة والسُّنن المطَّردة التي أقيم الكون وفقها أبرز دليل على وجود الله سبحانه وتعالى، فهو مُنزَّهٌ عن العبث والعشوائيَّة قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر ٤٩)، وتلك السُّنن على كثرتها إلا أنَّها لا تتصادم وإنِّما تسير بخطوطٍ متوازية؛ إذ لو كان بينها اختلافٌ لكان ذاك مدخلاً للطَّعن بالقرآن الذي تضمَّن تلك السُّنن، والله تعالى يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء ٨٢).

بل أكثر من ذلك أنَّ القَدَر مُنضبط تماماً بحركة تلك السُّنن ويدور في فلكها، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب ٣٨)، وهذا النِّظام وتلك القواعد والسُّنن والقوانين هي سببُ التناغم والتناسق والانسجام الذي نلحظه بين موجودات هذا الكون .

ولعلَّ إحدى أهمِّ الأسباب التي تصيب بالصِّدمة والفجأة جرَّاء وقوع الأحداث العظيمة هو عدم إدراكنا لأهميَّة «السُّنن الإلهيَّة»في هذا الكون، وبالتالي عدم اعتنائنا باستنباطها وبناء الحاضر واستشراف المستقبل على أساسها، وإذا تحدثنا عن الفجأة فيتبع ذلك لزاماً الارتجاليَّة والعشوائيَّة في التعامل مع تلك الأحداث، وبالتالي الغثائيَّة التي نعيش.

والسُّنن الربانيَّة في حياتنا البشريَّة **مطَّردة، منتظمة، دقيقة، جدِّيَّة، نافذة، عامَّة** لا تُحابي أحداً ولا تتسلَّط على أحدٍ ولا تتعلَّق بالأماني، وفي ذلك يقول الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى: «لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على ببعض وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد»، وحين نقول أنَّها لا تُحابي أحداً يجب أن يستقرَّ في أذهان «الإسلاميين» أنَّ الأتقياء الذين يعاكسون عجلة السُّنن سيندرسون تحت عجلتها وأنَّ العصاة الذين يسيرون وفق حركتها سترفعهم؛ فهي بهذه الأوصاف كالسُّنن الكونيَّة سواءاً بسواء، قال تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت ٥٣)، وعلاوة على ما سبق فهي تجري في خلقه بحكمته وعدله، كما قال -عزَّ وجل-: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام ١١٥).

وحين تعلم بأنَّ الحياة قائمة على أُسسٍ وقواعد ثابتة فإنَّ نفسك تهدأ وقلبك يطمئن لأنَّ مسلك النَّجاة والنَّجاح بات معلوماً بالنسبة لك.

ومن لطف الله تعالى أنْ كشف لنا في كتابه المسطور -صراحةً- كمّاً هائلاً من تلك السُنن لنبني حياتنا وفقها ونجدِّف مع حركتها وبما لا يتعارض أو يتصادم معها فتأخذنا سنَّة الأوّلين: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (المُلك ١٤)، بل ووجَّهنا القرآن مِراراً وتكراراً إلى تدبُّر القرآن لاستنباط ما لم يصرِّح به من تلك السُّنن، وأرشدنا بل وألحَّ علينا إلى السَّير في الأرض -مكاناً وزماناً- لاكتشاف سنن أخرى بُغية امتطائها؛ فأبعاد سنن الله المطَّردة لا متناهية يقول الدكتور (محمد رشاد خليل): «وسنن الله كثيرةٌ لا تقع تحت حصر، منها ما نعرفه ومنها ما نجهله وقد نعرفه بعد البحث، ومنها ما لا يحيط بعلمه إلا الله... ذلك أنَّ السُّنن ليس ما نعرفه فقط وإنما ما لا نعرفه أيضاً، وما لا نعرفه أكثر كثيراً ممَّا نعرفه».

من هنا لا نبالغ إنْ قلنا بأنَّ السُّنن والقوانين الإلهية إنَّما هي العُصارة المستخلصة من التفكُّر في الكون المنظور والتدبُّر في الكتاب المسطور لا سيما قصصه وأمثاله وأخباره وحواراته **!بل هي الإطار العامُّ لشمولية القرآن الكريم**.

وقد وعى ورقة بن نوفل هذا المعنى فسمَّى القرآن «ناموساً» أيْ قانوناً وسنَّةً، ثمَّ أعقبَ ذلك باستشراف واثق لمستقبل الدَّعوة الإسلاميَّة والصِّراع مع أهل مكَّة مُستنداً إلى سنن الله الثابتة التي لا تتبدل، وليس إلى نبوءات حصريَّة بحوزته، والدَّليل على ذلك أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أنْ تعجَّب من استشراف ورقة لمستقبل الدَّعوة وإخراجه من مكة، لم يثبت له ورقة صدق دعواه بأنْ استخرج مخطوطةً دينيَّةً مدوَّن بها ذاك المستقبل، بل أخبره بأنَّ ذلك مدوّن في «النَّاموس» في السُّنن الإلهيَّة التي لا تتبدَّل، والتي عبَّر عنها بقوله: (لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي)، وبناءً على هذه القراءة لسنن الله في خلقه رتَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشروعه السياسي في المرحلة المكِّيَّة من سرٍ وجهرٍ وإعلان، ونظام مواجهة وبيعات واستعانة ...إلخ بناء على هذه السُّنن، فإلى الحوار :

«ورقة معلِّقاً على ما سمع: هذا النَّاموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيَّاً إذْ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أوَ مخرجيَّ هم؟!!

قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإنْ يُدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[١].

والنَّاموس كما هو في لسان العرب: «السِّر» أو «صاحب سرِّ الخير» وهو جبريل عليه السلام[٢]، تماماً كما سمّيَ القرآن روحاً وسمِّي جبريل روحاً، فكأنَّما سنن الكون وقوانينه «أسرار خير» جيء بالقرآن ليبوح بها للناس من أجل اغتنامها والسير وفقها، فأي دلالة على أهميَّة السُّنن الإلهية أكبر من أن يختزل الوحي بها ويسمى القرآن باسمها؟!

والمتتبِّع للسُّنن الإلهية في كتاب الله يجد أنَّها تنتظم وفقها الحياة كل الحياة وتستقيم؛ لما تضمَّنته وشملته لكلِّ ما يهمُّ الإنسان فنجد فيها: سنن النَّصر والتمكين، الانكسار والهزيمة، الهدى والضلال، التغيير، الذنوب والمعاصي،

(١) صحيح البخاري ١/ ٣، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

(٢) لسان العرب: ٦/ ٢٤٣، ابن منظور الأنصاري، دار صادر-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.

التقوى والإيمان، تصديق الرُّسل، الوحي، الجزاء من جنس العمل، سنن الله في الأمم والأفراد، الابتلاء، التمييز، سنن الله في أتباع الرُّسل، التربية، الجهاد، سنن الله في اليهود وغيرها.

ومن هنا فإنَّ إدراكنا للسُّنن الإلهيَّة يعتبر بمثابة معالم في طريق النَّجاح والنَّهضة والإبداع من جهة، وشاخصاتٍ تحذيريَّة من الهلاك والفشل والانزلاق من جهة أخرى .

ومن نفل القول بعد هذا البيان أنْ نعرف السُّنن الإلهيَّة فنقول :

«**هي القوانين الإليهة الحاكمة قدراً في العباد، التي تجري باطِّرادٍ وثباتٍ وعمومٍ في حياة البشر**»[1].

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ «السُّنة» مضافاً إلى الله تعالى في ستة مواضع، ومضافاً إلى «الأوَّلين» في ثلاثة مواضع، وإلى «من قد أرسلنا» في موضعٍ واحد، وورد لفظ «سنن» غير مضاف مرَّة واحدة.

والمقصود بـ«سنَّة الأوِّلين» أو «سنَّة من قد أرسلنا» أيْ: سنَّة الله فيهم، لقوله تعالى: ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ (فاطر ٤٣).

وقال: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٧).

هذا وتعتبر «أيَّام الله» ترجمة عمليَّة تفسِّر «سنن الله» ليس في الماضي فقط، بل وفي الحاضر والمستقبل أيضاً؛ فكما جرتْ بشأن السُّنن أيام ووقائع في الماضي الغائب عنَّا؛ فهي تجري في الحاضر المحيط بنا والمستقبل البعيد منَّا»[2].

وتعتبر القصص والأمثال القرآنية أرضاً خصبة لاستنباط «السُّنن الإلهية»، وكذا الآيات التي ورد فيها ربط الأسباب بالمسبَّبات والنتائج بالمقدمات، ويمكننا استعمال جميع مسالك العلِّة التي ذكرها علماء الأصول في باب التعليل في استنباطها واستخراجها، وبشكلٍ عام ثمَّة مجموعة من القواعد والأسس التي يتمُّ وفقها استنباط السُّنن الإلهيَّة من القرآن الكريم من بينها ما ذكره الدكتور (أبو اليُسر رشيد كهوس)[3] وأجملها بما يلي :

١) ورود لفظة (سنَّة) وما اشتقَّ منها.

٢) ورود لفظة (جعل) وما اشتقَّ منها في سياق الأفعال الإلهيَّة.

٣) وجود استفسارات استنكاريَّة، نحو قوله جلَّ ثناؤه في سنَّته في الهداية والضَّلال: ﴿ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر ١٣٧).

٤) ورود فعل الله جل جلاله مع تعليله، وخاصَّة فيما يتعلَّق بنظام الحياة، وأخذ العبر والدروس من قصص الغابرين، نحو

(١) انظر بحث: السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع، أبو مريم محمد الجريتلي، على موقع الألوكة: http://www.alukah.net/publications_competitions/٠/٣٧٠٠٤/

(٢) انظر بحث: السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع، أبو مريم محمد الجريتلي، على موقع الألوكة: http://www.alukah.net/publications_competitions/٠/٣٧٠٠٤/

(٣) مجلة الدَّاعي الشهريَّة الصَّادرة عن دار العلوم ديوبند، ربيع الأوَّل ١٤٣٢هـ، فبراير ٢٠١١ م، العدد: ٣،السُّنة: ٣٥.

قوله تبارك وتعالى في سنَّة النِّعم وتغييرها: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل ١١٢).

٥) ورود فعل الله عزَّ وجلَّ في سياق الجملة الشرطيَّة:

أ) تعليل عدم الجزاء بوجود المانع: فإذا وُجد الفعل امتنع الجزاء؛ نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور ١٤)، وقوله سبحانه وتعالى في سنَّة الأجل: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (العنكبوت ٥٣)، وقوله تعالى وتقدس في سنته في اليهود: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ (الحشر ٣).

ب) تعليل ترتب الجزاء على وقوع الفعل: ترتُّب فعل الله على الوصف بصيغة الشرط والجزاء: أيْ: يقع الجزاء إذا وقع الفعل: نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في الهداية والضلال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٣٨)، وقوله عزَّ اسمه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٥٦).

٦) ورود فعل الله عزَّ وجل مرتباً على صفة:

فيفهم السامع أنَّ هذا الفعل يدور مع تلك الصِّفة أينما وجدت؛ نحو قوله تبارك وتعالى في سنَّة الإملاء: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الحج ٤٨)، وقوله عزَّ من قائل في سنَّة الإهلاك: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ (القصص ٥٨).

٧) ترتُّب الجزاء من الله عزَّ وجل أو امتناعه منوطاً بحال:

نحوَ قوله تبارك وتعالى في سنَّة الوحي إلى رسله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى ٥١).

٨) الأمر بالشَّيء مع بيان ما فيه من مصالح:

في مواضع يأمر الله بالشيء مبيِّناً ما فيه من مصالح، نحو قوله تبارك وتعالى في سنَّة الإعداد: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال ٦٠)، وقوله تبارك وتعالى في سنَّة التحرُّز من الشيطان: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (فاطر ٦)؛ فعداوة الشيطان عامَّة قديمة لا تكاد تزول بمقتضى سنَّة الله المطِّردة.

٩) النَّهي عن شيءٍ مع بيان عواقبه السَّيئة:



نحو قوله تبارك وتعالى في سنّته في الذين يتّبعون السُّبل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥٣).

١٠) ورود لفظة (كذلك) بمعنى: (مثل ذلك) في سياق فعل الله عزَّ وجل أو قصة قرآنيَّة: نحو قوله تبارك وتعالى في سنَّته في القوم المجرمين: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يونس ١٣).

١١) وعودٌ مطْلقة على صفاتٍ مخصوصة:

نحو قول الله تعالى في سنَّة الاستخلاف والتمكين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور ٥٥).

هذا ولا يفوتنا التنويه إلى ما تضمَّنته السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة من سُنن الله الجارية في خلقه ومن أمثلة ذلك ما رواه «ابْنِ عُمَر» -رضي الله عنهما- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (إذا تَبايَعْتُمْ بالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُمْ)[1]، وعلى ذلك قِسْ أنَّ السُّنن والقوانين مادَّة مهمَّة للتنزيل والاستنباط، لا يجوز ترك النَّظر فيها وإهمالها، فإنَّها من الثَّبات بحيث لا تتخلَّف في الدنيا لأحد أبداً، هذا، ويأتي في الفرع الثاني ما يُستكمل به الحديث وتتضح به الصورة.

الفرع الثاني: القصص.

تُعدُّ مادة القصص حقلاً خصباً للاستنباط والتنزيل؛ وذلك بما حوته من تجارب محمودة، في ظروفٍ ومُعطياتٍ خاصَّة، ويجد النَّاظر فيها بُغيته إذا أنعم النَّظر وسأل الله التوفيق والرَّشاد، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف ١١١).

وهذا المبحث يحتاج منَّا الكثير من التفكير والإنضاج؛ لأنَّ التعامل مع القصص على أنهَّا مناهج صالحة للتطبيق على واقع الدَّعوة الحالي هو أمرٌ من الخطورة بمكان، لأنَّنا نعتقد أنَّ في منهج النبي صلى الله عليه وسلم تفصيلاً لكافة ما تحتاجه الأمَّة -وهذا ما سنناقشه لاحقاً-.

قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة ٤٨).

---

(١) سنن أبي داود ٣/ ٢٨٣، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

نصل هنا إلى أنَّ القصص جاءت تترجم لنا القوانين والسُّنن التي استودعها الله في كتابه العظيم، لا أنْ ترسم لنا منهج التطبيق في الدَّعوة ومقارعة الباطل.

كمثل قصّة سيدنا يونس إذْ ترك ديار قومه مُعتزلاً لهم فقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ (الأنبياء ٨٧)، لتسري عليه سنَّة الله في من يخرج معتزلاً هاجراً دعوته بأنْ يدخل في بطن المجهول: ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ (الصافات ١٤٢)، حتى يتوب إلى الله ويرجع مُصحّحاً خطأ اجتهاده.

قال تعالى: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٧).

وتصحيح الخطأ هنا هو أنْ يعود عن عزلته ويستمسك بدعوته، فجاء دخول الناس في دين الله أفواجاً، برهاناً من الله أنَّ هداية النَّاس أمرٌ خاصٌّ بالخالق جلَّ في علاه، أمَّا المخلوق فدوره بذْل الوسع، قال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ (الصافات ١٤٧-١٤٨).

ونجد في ترجمة هذا القانون قصَّة أخرى في سورة الكهف لأصحاب الكهف حين قالوا: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾ (الكهف ١٦)، هرباً بدينهم واعتزالاً للناس وتركاً للدَّعوة، فإذا بهم يمكثون في بطن المجهول لأكثر من ثلاث مائة عام، ليخرجوا وقد انتصر دين التوحيد بغير جهدهم هم، ليتأملوا في تطبيق هذا القانون، ثمَّ لينتهي أجلهم وهم مُقرّونٌ بقوانين الله وسننه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (الكهف ٢١).

وبدون قراءة القصص القرآني على أنها تترجم قوانين الله عزَّ وجل المستودعة في كتابه لن نستدلَّ على المنهجيَّة الدَّقيقة في تنزيل القصص على الواقع السياسي قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (يوسف ١١١)، وفي الآية الكريمة بيانٌ من الله تعالى أنَّ في إيراد القصص في القرآن الكريم عبرةٌ وفكرة وتذكرة لأولي العقول والألباب، ووجه هذا الاعتبار أنَّ أولي العقول والألباب هم الذين يقرؤون القصص القرآني على أنَّها ترجمة لسنن الله تعالى وقوانينه، وكيفية توظيف هذه السُّنن في خدمة المشروع الإسلامي، ثمَّ يعقِّب الله تعالى بعدها فيقول: (مَا كانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى) لينفيَ عن كتابه ما ادَّعاه بعض المشركين من أنَّ هذه القصص مخترعة، ثمَّ يستدرك الله عليهم باستخدام حرف الاستدراك (لكنْ)، أنَّ القرآن الكريم ما نزل إلا ليصدق ما جاء في الكتب السابقة، وأنَّ فيه تفصيل كلِّ شيء ممَّا يلزم الجماعة المسلمة، ومُقتضى كون القرآن الكريم في تفصيل كلِّ شيء أنْ يقوم أولوا الألباب باستنباط ما يلزم من هذا القرآن المفصَّل لرسم حركة الكتلة المسلمة وكيفية ترجمة هذه السُّنن والقوانين، التي هي هدىً ورحمة للمؤمنين، فالقرآن الكريم جاء ليرسم لنا النموذج الأمثل الصالح للتطبيق بتفصيل وبيان للتأسي به على أنَّه هو التجربة الوحيدة التي تصلح لتكون منهجيَّة للتطبيق، وما هذه القصص إلا ترجمة عملية للسُّنن والقوانين التي يجب على الجماعة المسلمة

مراعاتها في حركتها.

وهذا التصديق والتفصيل في القصص -وهو كلُّ ما تحتاجه الأمَّة منها- يتحقَّق في أنها ترجمة عملية لقوانين الله وسننه لا على أنها نماذج معروضة للاتباع، فلنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، نفعل ما فعل ونترك ما ترك: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر ٧).

وفيما نعتقد أنَّ لكلِّ سورة وحدتها الموضوعية، وأنَّ التناسبَ بين القوانين والسُّنن المستودعة في كلِّ سورة وبين القصص فيها هو تناسبٌ منهجيٌّ دقيق، حيث إنَّ القصص في كلِّ سورة تترجم وتصوِّر حقيقة القوانين المستودعة في هذه السورة، كمثل سورة الإسراء، فالمتأمل في هذه السورة سيجد أنهَّا تحتوي على ستة وعشرين قانوناً، وسنة واحدة، ضمن وحدةٍ موضوعيَّة ترسم حالة الأمَّة وهي تنتقل من أواخر مراحل الاستضعاف، إلى أولى مراحل التمكين والاستخلاف، ولذلك جاءت القصص لترسم هذا المشهد الانتقالي.

فقد استفتحت السورة بقصة سيدنا نوح: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء ٣)، وهذه الآية تُصوِّر لنا مشهد سيدنا نوح وقد ركب السفينة منتصراً، ليُعلن الانطلاق من آخر محطَّات الاستضعاف، إلى أولى مراحل التمكين والبناء والاستخلاف بعد القضاء على الأعداء.

وتذهب بنا السورة في ختامها إلى قصة سيدنا موسى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (الإسراء ١٠٣)، فتعود هذه الآية لترسم مشهداً انتقاليّاً آخر من آخر مراحل الاستضعاف حين صوَّرت لنا مشهداً مهيباً لنبيِّ الله موسى يشقُّ البحر مع أتباعه منتصراً، وعلى أثره من خلفه جند مُغرقون!

كما نرى في هذين المشهدين أنَّ هناك ترجمة دقيقة لما يقارب الستة وعشرين قانوناً من هذه السورة تدور كلها حول وحدتها الموضوعيَّة، وفي منتصف السورة نجد وعد الله للنبي صلى الله عليه وسلم يصف لنا الصورة التي ستتحقِّق على شاكلتها حالة الانتقال من آخر مراحل الاستضعاف إلى أوَّل مراحل التمكين والاستخلاف حيث قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٦).

ويمكننا أنْ نطبِّق هذا المنهج على كافَّة سور القرآن، وذلك باستخراج القوانين التي استُودِعت في السورة، ثمَّ فهم مُخرجات هذه القوانين ومنهجيات تطبيقها من خلال رصد القصص القرآني المذكور في نفس السورة، وهذا شكل من أشكال -ومهمة من مهام- القصص في شرح القوانين والسُّنن؛ وقد نفرد لهذا المبحث مصنفاً خاصاً إن شاء الله.

الفرع الثالث: الأمثال.

تعتبر الأمثال في القرآن الكريم مادةً خصبة للاستنباط والتوجيه والاسترشاد السياسي، وإن كانت القصص ترجمت لنا سنن الله وقوانينه في الأمم السابقة، فإنَّ الأمثال تُترجم لنا القوانين والسُّنن في باقي مخلوقات الله عزَّ وجل كافَّة وحركة الكون المنظور، ومن المعلوم أنَّ القرآن الكريم أكثَرَ من ضرب الأمثال، ومن الدَّعوة إلى تدبُّرها وفهم مغازيها التعليميَّة والمنهجيَّة.

ومن كمال العناية الربانيَّة بالعباد وتمام اللطف الإلهي بهم والحرص على هدايتهم أنْ تنوَّعت في الكتاب العزيز صيغ الخطاب وطرائق تقرير المعاني في النفوس والعقول، من أجل تحقيق المقصد الأسمى من إنزال القرآن وهو الهداية والرشاد للأفراد والجماعات، قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام ٦٥).

«وتصريف الآيات يشمل تنويع الحجج والبراهين على قضيَّة واحدة، فيؤتى للقضية الواحدة بأكثر من دليل وبرهان، فتتابع عليهم الحجج وتُصرَّف لهم الأمثال والعبر»[١].

ويشمل تصريف الآيات تنويع الأساليب، فيتمُّ تقرير المعنى الواحد وترسيخه بكمٍّ وافرٍ من الأساليب: فتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام، وأخرى بالنفي والإثبات، وأحياناً بضرب الأمثال أو القصص، وأحياناً أخرى بعرض الحوارات أو بتقرير القوانين والسنن أو بإسداء التوجيهات ونحو ذلك من الأساليب .

ولعلَّ هذا التنوّع الزاخر يجمع بين مقصد إنزاله وسموِّ بيانه قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة ١٨٥).

ومن بدائع الأسلوب القرآني المعجز ضرب الأمثال للناس، بقصد إيصال الأفكار المجرَّدة بصورةٍ حسِّيةٍ مرئيَّة، يكون لها من الأثر في النفوس، والتأثير في العقول، ما لا يكون للفكرة المجرَّدة من ذلك، فتتجسَّد المعاني وتبرز الحقائق، وقد أسهب سيد قطب –رحمه الله– في إيضاح هذا الضَّرب من ضروب البلاغة القرآنيَّة في كتابه «التصوير الفني في القرآن الكريم».

والأمثال: جمع مَثَل، والمَثَل والمِثْل والمثيل: كالشَّبه والشِّبه والشبيه، لفظاً ومعنى.

والمثل في القرآن الكريم: هو إبراز المعنى في صورة حسِّية موجزة تتضمَّن التشبيه.

والمثل إمَّا أنْ يكون صريحاً وإمَّا أنْ يكون ضمنيَّاً كامناً؛ ومثال التشبيه الصريح –الذي ذكر فيه الممثَّل له– قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (يونس ٢٤).

ومثال التشبيه الضِّمني –الذي حذف فيه الممثَّل له– قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن

(١) التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم، عبد المحسن الجزائري، بحث على موقع ملتقى أهل اللغة: http: / /www.ahlalloghah.com /showthread.php?t=

يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (الحجرات ١٢)[١].

ويُطلق المثل في القرآن ليكون أنموذجاً معيارياً لقضايا أو سنن أو أعمال تتشابه مع أحوال الأفراد والجماعات، ونفهم من خلالها كيف نتعامل معها ونقيس كل ما شابهها على مرِّ الزَّمان[٢].

ومدار المثل القرآنيُّ هو في ترجمة السنن والقوانين المبثوثة في الكتاب المسطور، والتربية للفرد والتوجيه للأمَّة والإصلاح للمجتمع؛ إذ القرآن الكريم ليس كتاب أحكام فحسب وإنما كتاب حياة: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل ٨٩).

وكذلك فإنَّ ضرب الأمثال للنَّاس من شأنه أنْ يُنشِّط عقولهم ويستثيرها ويجعلها متوقِّدة ويكسر حالة الجمود التي تعتريها في ظروف معيَّنة؛ فالمنعم جلَّ وعلا لا يقبل كفراناً لنعمائه؛ فهو لا يرتضي للعقل الإنساني بلادةً أو تكلُّساً أو جموداً أو خمولاً: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر ٢١).

ولذا فإنَّ القصص والأمثال تحتاج أكثر من غيرها إلى إعمال عقل وتفكُّر وتدبُّر من أجل استنباط المعاني الغزيرة الغائرة في بواطنها وتفاصيلها، لا سيما وأنها تكتنز كمّاً وفيراً من العبر والمعارف والهدايات، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا العالِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٣).

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار السِّياق القرآني الذي احتضن المثل القرآني لعلمنا مقدار التناغم والتناسق والانسجام بين درر العقد القرآني، وهذا يقودنا إلى المقصد والثمرة ويسعفنا كثيراً في فقه تنزيل هذه الأمثال على واقع الحياة .

«وغاية المثل القرآني: إصلاح النفوس، وتنشيط العقول، وصقل الضمائر، وتهذيب الأخلاق، وتقويم المسالك، وتصحيح العقائد، وتنوير البصائر، والهداية إلى ما فيه خير الفرد وصلاح الجماعة، والتنبيه إلى المساوئ لتُجتنَب، وإلى المحاسن لتقبل عليها النفوس الطيبة، والقلوب الزَّكية»[٣]، وتقديم حركة الكائنات والمجرَّات كنموذج يُستنبط منه قوانين الله -عزَّ وجل- في بناء الكتلة المؤمنة وتشخيص أعدائها، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام ٣٨).

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المثل القرآني بأنَّه تفصيلٌ للآيات بما تضمَّنته من معانٍ غزيرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ

(١) انظر: الواضح في علوم القرآن الكريم ١٩٧-١٩٨، مصطفى ديب البغا ومحيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، ودار العلوم الإنسانية-دمشق، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

(٢) أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم، ١/ ١٠٤، مكتبة التراث الإسلامي-القاهرة، ١٩٩٣م.

(٣) التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم، عبد المحسن الجزائري، بحث على موقع ملتقى أهل اللغة: http://www.ahlalloghah.com/showthread.php?t=١٥٥٣

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس ٢٤).

وقد تناولت الأمثال القرآنيَّة الموضوعات المفصلية والمطالب العالية كقضايا الإيمان والحاكميَّة والولاء والبراء وفقه الصراع وغيرها من أصول الدين، ولذا فقد أشاد الله سبحانه بأمثال القرآن مبيناً أنَّه اشتمل على كلِّ مثل من الحق يحتاجه الناس، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف ٥٤).

وبيَّن سبحانه أنَّ الأمثال من حجَّته البالغة على عباده وأنَّه لم يعذِّب أمَّة بتكذيبها إلا بعد أن بيَّن لها الأمثال[1].

قَال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (إبراهيم ٤٤-٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ (الفرقان ٣٩).

هذا وإنَّ الناس ينقسمون إزاء تلك الأمثال إلى قسمين :

قسمٌ تكون تلك الأمثال هاديةً مرشدةً له بعد أن اعتبر بها فيها من الحقِّ واتبَّعه.

وقسمٌ آخر يزداد ضلالاً إلى ضلاله جرَّاء الانصراف عنها وعدم الاتعاظ بمتضمَّناتها، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (البقرة ٢٦).

وبالأمثال يتعرَّف النَّاس إلى الحقِّ والباطل، ويستشرفون المآلات الحميدة لاتباع الحقِّ والعواقب الوخيمة لاتباع الباطل :قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ (محمد ٣).

مثال : والآن فلنذهب إلى الرَّوعة القطبيَّة في البيان :

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤١-٤٣).

يقول سيد -رحمه الله- في دلالة هذا المثل القرآني: «إنَّه تصويرٌ عجيبٌ صادقٌ لحقيقةِ القوى في هذا الوجود، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً، فيسوء تقديرهم لجميع القيم، ويفسد تصوَّرهم لجميع الارتباطات، وتختلُّ

---

(١) انظر : الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبدالله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

في أيديهم جميع الموازين، ولا يعرفون إلى أين يتوجَّهون، ماذا يأخذون؟ وماذا يدعون؟

وعندئذٍ تخدعهم قوَّة الحكم والسلطان، يحسبونها القوَّة القادرة التي تعمل في هذه الأرض، فيتوجَّهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم، ويخشونها ويفزعون منها، ويترضونها ليكفُّوا عن أنفسهم أذاها، أو يضمنوا لأنفسهم حماها!

وتخدعهم قوَّة المال، يحسبونها القوَّة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة، ويتقدَّمون إليها في رغب وفي رهب؛ ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها، ويتسلَّطوا على الرِّقاب كما يحسبون!

وتخدعهم قوَّة العلم، يحسبونها أصل القوة وأصل المال، وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول، ويتقدَّمون إليها خاشعين، كأنَّهم عباد في المحاريب!

وتخدعهم هذه القوى الظاهرة، تخدعهم في أيدي الأفراد، وفي أيدي الجماعات، وفي أيدي الدُّول، فيدورون حولها، ويتهافتون عليها، كما يدور الفراش على المصباح، وكما يتهافت الفراش على النار!

وينسون القوَّة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة، وتملكها، وتمنحها، وتوجِّهها، وتسخِّرها كما تريد حيثما تريد.

وينسون أنَّ الالتجاء إلى تلك القوى سواءً كانت في أيدي الأفراد، أو الجماعات ، أو الدول، كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت، حشرةً ضعيفةً رخوةً واهنة، لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن، وليس هنالك إلا حماية الله، وإلا حِماه، وإلا ركنه القوي الرَّكين.

هذه الحقيقة الضَّخمة هي التي عُني القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها، وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكَّت بها المعاقل والحصون، قوَّة الله وحدها هي القوَّة، وولاية الله وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل؛ مهما علا واستطال، ومهما تجبَّر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل، إنها العنكبوت وما تملك من القوى، ليست سوى خيوط العنكبوت»[1].

فالأمثال عبارة عن أشياء وحالات جزئيَّة معيَّنة من أشخاص وصفات وأسباب وتصرفات، ولكنَّها نموذجيَّة متكرِّرة، سواء أكانت حسنة أم سيئة، فسنن الله تعالى المطرِّدة الجارية في خلقه، **تسمح بأن يكون المثل الجزئي المضروب ذا دلالة كليَّة في أمثاله وأشباهه** ، فالله تعالى حينما يقول: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ (الجمعة ٥)، نرى أنَّ الكلام هنا يخصُّ بني إسرائيل أهل التوراة، ولكنَّ الحقيقة أنَّ هذا المثل يسري ويصدق في كل الحالات المماثلة إلى يوم القيامة .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٦-٢٧٣٧، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

الفرع الرابع: النصوص الإخباريَّة.

وهو أن يأتي الخبر من القرآن الكريم واصفاً مرحلة من المراحل أو حالاً من الأحوال التي تعيشها الأمَّة في يوم من أيامها، أو هي النُّصوص التي جاءت لترسم لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، أو لتصفَ لنا الظواهر الكونيَّة والحقائق العلمية، فينظر المتأمِّل المتفكِّر ليرى في الواقع تجلِّيَ النصِّ الشرعي، حتى لكأنَّه ينظر إليه.

كمثل من يقرأ سورة الإسراء ويتأمَّل وصف الله -عزَّ وجل- لهذه المرحلة من الصِّراع مع بني إسرائيل ثم ينظر إلى واقع العلوِّ مُستشعراً آيات الله وهي تتنزَّل عليه، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ (الإسراء ٤-٧).

هذة الآيات نزلت بنصِّها الإخباري على النبي صلى الله عليه وسلم ولم تتنزَّل إلا في هذا الزَّمان!

وكمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ (آل عمران ١٤٤)، نزلت بعد معركة أُحد ولم تتنزَّل إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فسمعها عمر على لسان أبي بكر -رضي الله عنهما- وقال: وكأنِّي أوَّل مرَّة أسمعها.

روى البخاري بسنده إلى أبي وائل عن حذيفة رضي الله عنه قال: «لقد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما ترك فيها شيئاً إلى قيام السَّاعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيت، فأعرف ما يعرفُ الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه»[1].

وفي رواية جرير: «وأنَّه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره،كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه»[2].

ففي الحديث:

أنَّ الشرع قد جاء بالكثير من الأخبار المتعلِّقة بما يكون في الأمَّة إلى قيام الساعة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّه إنَّما جاء به الشرَّع لفائدة الأمَّة ومنفعتها، وتحذيرها من الفتن وهدايتها إلى المخارج منها.

وفيه ما سمَّيناه: «التجلِّي الواقعي»؛ وهو ما ذكره حذيفة رضي الله عنه، إذْ ينظر الناظر إلى الواقع الذي يستدعي النصَّ، فيراه ماثلاً أمامه، مُتجلياً بمعانيه بشكل دقيق.

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٦٠٤، ٨/ ١٥٤، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١١/ ٤٩٦، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمدفؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليها تعليقات: عبد العزيز ابن باز.

والنصوص الإخباريَّة التي نزلت ولم تتنزَّل كثيرة لذلك فإن من القرآن آيات نزل تأويلها قبل أن تنزل، ومنه آيات نزل تأويلها حينما نزلت، ومنه آيات نزل تأويلها بعد ما نزلت، ومنه آيات لم ينزل تأويلها بعد.

ولكن:

لا شكَّ أنَّ لمثل هذا التنزيل ضوابط، حتى لا يقع الباحث في إشكاليَّة كبيرة، تتمثَّل في تنزيل النصوص على غير مواضعها، وفهمها بصورة مغايرة للمقصود الشرعي، ناتجة عن عدم ضبط تامٍّ لمعطيات الواقع، فكأنَّنا هنا نتكلم عن ضرورتين متعلِّقتين بهذا التنزيل:

الأولى: فهم النص فهما سليماً تاماً، خالياً من الهوى والضَّغط الناتج عن الرَّغبة في اكتناه الواقع ومعرفة المستقبل.

الثانيَّة: ضرورة فهم الواقع، وعدم الغفلة عن ملابساتٍ ومعطياتٍ مؤثرة في التنزيل.

وقد وقعت أخطاء جسيمة في مثل هذا مراراً، وأقسم أقوامٌ الأيمان المغلَّظة على ما تنبؤوا به من أحداث وتحليلات، قامت على تلفيق النصوص وانتقائها لاستكمال مشهد تصوَّروه، ثمَّ جاء ما كانوا أقسموا عليه الأيْمان، وبدا لهم ولغيرهم اغترارهم وتسرَّعهم في ذلك، ألا فليتنبَّه إليه.

ثم إنَّ من محذوراته -أقصد التنزيل غير المنضبط- تشكيك الناس في دينهم، وإدخال الريب حول النصوص الشرعيَّة في قلوبهم، والحاصل:

أنَّ التنزيل أمرٌ مهم، هو الفائدة الأصليَّة من ذكر الشرع لهذه النصوص أصلاً، إلا أنَّه ينبغي أنْ يجري على نَمَط رَفيع من الفهم والدقَّة والاستنباط، والابتعاد عن التسرُّع والرغبة الفضوليَّة في رسم المشاهد المتوقَّعة والمتخيَّلة للواقع والمستقبل، والاعتماد لتحصيل ذلك على النصوص الإخباريَّة الصحيحة.

الفرع الخامس: الأحكام والتوجيهات.

ومن أهمِّ العناصر التي ينبغي أن يُلتفت إليها وأنْ توضع نصب العيون وهي الأحكام والتوجيهات التي تعد خلاصة ما نبحث عنه بعد إدراك السنن والقوانين المبثوثة في كتاب الله تعالى والمترجمة على شكل القصص والأمثال والنصوص الإخبارية لنصل بهذه الأحكام إلى تنزيل هذه السُّنن في تغيير واقعنا والنهوض بأمتنا، وهو ما سماه سيِّدٌ -رحمه الله-: «أصول التقدير»، قال -رحمه الله- عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ (التوبة ٨٣).

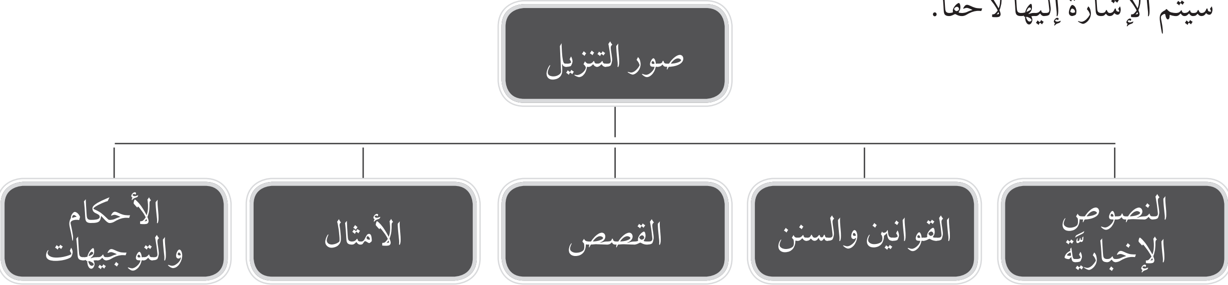
«ولقد ذكر المفسِّرون حوادث خاصَّة عنتها هذه الآية، ولكنَّ دلالة الآية أعمُّ من الحوادث الخاصَّة، فهي تقرِّر أصلاً من أصول التقدير في نظام الجماعة المكافحة في سبيل العقيدة، وهو عدم التسامح في منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح الشاق، وعدم المجاملة في تقدير منازل الأفراد في الصف، ومقياس هذا

التقدير هو الصَّبر والثبات والقوَّة والإصرار والعزيمة التي لا تسترخي ولا تلين.

فالصلاة والقيام تكريم: ﴿و وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ (التوبة ٨٤)، والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصَّف في ساعة الجهاد، لتبقى له قيمة، ولتظلَّ قيم الرجال منوطةً بما يبذلونه في سبيل الله، وبما يصبرون على البذل ويثبتون على الجهد، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله، لا يتخلَّفون بها في ساعة الشِّدة ثمَّ يعودون في الصفِّ مكرَّمين»[1].

نحسب أنَّ كثيراً من الأصول التي يُستعان بها في ضبط مسيرة اتخاذ القرار السياسي -كهذا المثال السالف- يُمكن أن نستخرجها من النصِّ القرآني، وأن ننظر باحثين عن أمثالها في السنة النبويَّة، الأمر الذي سيكوِّن لدينا ثروة كبيرة من الأصول التي يَسترشد بها المنظِّر والسياسي والباحث عند اتخاذه القرار أو التوجيه إليه، وعند صناعته للحدث أو التعامل معه.

وسنأتي على مبحث ضبط الأحكام والتوجيهات بشيءٍ من التفصيل في سياق كلامنا على الاستنباط، وكيف أنَّ هذه الأحكام والتوجيهات مضبوطةً بعلم التبديل، الذي هو مُقيَّدٌ بفقه التنزيل على المراحل السياسيَّة الست التي سيتم الإشارة إليها لاحقاً.



المطلب الثاني:
التبديل

من الأمور التي ينبغي أن تراعى في منظومة النظر التنزيلي؛ الأحكام التي تنزَّلت في الكتاب مما لم يُنسخ، وإنما تبدَّلت لتبدُّل الأحوال والظروف، وأشهر الأمثلة في ذلك: آيات الجهاد وأحكامه، فإنَّه وإن كان بعض العلماء قد ذهب إلى أنَّ آية السَّيف قد نسخت كلَّ آيات الجهاد وما دلَّت عليه قبلها، فإنَّ المحقِّقين اختاروا أنَّ هذه الأحكام لم تُنسخ، وإنما تبدَّلت بتبدُّل الظروف والأحوال، بحيث صارت الآية تجد طريقها حسب الواقع ومعطياته.

ومع أنَّنا مُجمعون على أنَّ هذا الدين صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ بل ومُصلحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ إلا إنَّنا غفلنا عن أبرز الصفات التي تجعله كذلك، أعني صفة الحركيَّة والمرونة؛ فرحنا نجمِّد الدين ونقولبه ونتعامل مع آخر النصوص نزولاً والتي وافقت -بطبيعة الحال- آخر المراحل تقدماً، وراح البعض منا يناضل عن القرآن ويذود عنه بالقول بالنسخ عند أدنى صعوبة للجمع بين الآيات، متغافلين المقام الذي تحمله كل آية وفقه حتى غدا القرآن

(١) في ظلال القران ٣/ ١٦٨٣-١٦٨٤، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

يحوي كمّاً هائلاً من الآيات منسوخة المضمون !!!

ورحنا نتعامل مع قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة ٣)، على أنَّ الدين هنا هو «الفرمان الأخير» و«النسخة الختامية» من الآيات، وما زلنا نحاول جاهدين أنْ نُقحم أحكاماً سياسيَّة مُعيَّنة بمقاماتٍ مغايرة تماماً ونريد سحب النسخة الأخيرة وتعميمها على كلِّ مراحل الإسلام اللاحقة، كل هذا والقرآن ينادينا مراراً وتكراراً أنْ نتعقَّل ونتدبَّر ونتأسَّى برسول الله صلى الله عليه وسلم!

ولعلَّ تلك الغفلة –أعني الغفلات– لم تكن بالغة التأثير في حقب تاريخية سابقة أو لم يظهر تأثيرها البالغ؛ إذ دولة الإسلام قائمة والشريعة حاضرة تقريباً، ولكنَّ الواقع اليوم كفيلٌ بإيقاظنا من غفلتنا: فما حملات التكفير المسعورة وما نجم عنها من ذبح وحزٍّ للرؤوس إلا محصِّلة لسوء الفهم هذا!

وبهذا؛ بدلاً أنْ يكون اكتمال الدين لنا نعمة ونعيماً، استحال إلى نقمة وتشديد، وبدل أن يكون النسق النبويُّ هادياً لنا في كيفيات التعامل وتنزيل الأحكام وفق الأحوال، صرنا ننظر إليه على أنَّه قصَّة تراثية ناجحة مضت واندرست !

قال تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه ١-٢)، ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة ٦).

ثمَّ كيف –بالله عليكم– نتعامل مع الغربتين بازدواجية في المعايير والأحكام؟ أهي تسهيلاتٌ للجيل القرآني الفريد الذي يزدهي برسول الله بينه، وتعسيرٌ على أهل الغربة الثانية الذين لا يجدون نصيراً على الحقِّ ولا وحياً ينزل من السماء؟

وعلى العموم فقد هدى الله العلَّامة ابن عاشور إلى معنىً للتبديل يُعيد للقرآن ألقه وحضوره وحركته ومرونته، ويُعيد للنُّفوس تفاعلها وإقبالها على القرآن وكأنَّه ينزَّل للتوِّ إذ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل ١٠١-١٠٢).

فإلى كلام ابن عاشور –رحمه الله– حيث يقول: (ذلك الاختلاق هو تعمُّدهم التمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفاً لآيات أخرى لاختلاف المقتضي والمقام، والمغايرة باللِّين والشِّدة، أو بالتعميم والتخصيص، ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلق بها، فيتخذون من ظاهر ذلك دون وضعه مواضعه وحمله محامله مغامز يتشدَّقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطراباً من القول ويزعمونه شاهداً باقتداء قائله في إحدى المقالتين أو كلتيهما.

روي عن ابن عباس أنَّه قال: (كان إذا نزلت آية فيها شدة ثمَّ نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: والله ما محمد

إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغداً ينهى عنه، وأنَّه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه).

فالمراد من التبديل في قوله تعالى: (**بدَّلنا) مُطلق التغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها.**

والتبديل في قوله تعالى: (بدَّلنا) **هو التعويض ببدل،** أيْ عِوَض، والتعويض **لا يقتضي إبطال المعوَّض،** بل يقتضي أنْ يجعل شيء عوضاً عن شيء.

و(مكانَ آية) منصوبٌ على الظَّرفية المكانية بأنْ تأتي آية في الدَّعوة والخطاب في مكان آية أخرى أتتْ في مثل تلك الدَّعوة، فالمكان هنا مكان مجازي، وهو حالة الكلام والخطاب، كما يسمى ذلك مقاماً، فيقال: هذا مقام الغضب، فلا تأتِ فيه بالمزح، وليس المراد مكانها من ألواح المصحف ولا بإبدالها محوها منه.

وجملة (والله أعلم بما ينزِّل) معترضةً بين شرط (إذا) وجوابها، والمقصود منها تعليم المسلمين لا الردُّ على المشركين، لأنَّهم لو علموا أنَّ الله هو المنزِّل للقرآن لارتفع البهتان، والمعنى: أنَّه أعلم بما ينزِّل من آية بدل آية، فهو أعلم بمكان الأولى ومكان الثانية ومحمل كلتيهما، وكلٌّ عنده بمقدار وعلى اعتبار.

وضمير (أكثرهم) للذين قالوا: (إنما أنت مُفترٍ)، أيْ: ليس كما قالوا، ولكنَّ أكثر القائلين ذلك لا يعلمون، **أيْ لا يفهمون وضع الكلام مواضعه وحمله محامله،** ولا يعلمون أنَّ التنزيل من عند الله لا يُنافي إبطال بعض الأحكام إذا اختلفت المصالح أو روعي الرِّفق)[1]، انتهى كلام ابن عاشور رحمه الله.

قلنا: وقد جاء بعد «مصطلح التبديل» (وإذا بدَّلنا ..) «مصطلح التنزيل»: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ... قُلْ نَزَّلَهُ) الذي يدل على **التفريق،** وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى بعد آية التبديل أنَّ الحكمة من (التبديل) هي (تثبيت الذين آمنوا) كما بيَّن سبحانه وتعالى بأنَّ الحكمة من (التفريق) هي (تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم)، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ (الفرقان ٣٢).

ومن غير الصَّائب أن نحصر سبب هذا الطلب: (لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً) بمخالفة نزول القرآن الكريم لحدث تاريخي معتاد غير ثابت، يتمثَّل بأنَّه نزل على خلاف باقي الكتب السماوية التي نزلت جملة واحدة ونغفل الجانب الأهم المتمثِّل بخوفهم من متضمنات القرآن التي تناسب الواقع وتكشفه، قال تعالى: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴾ (التوبة ٦٤).

فهم إذْ يطلبون نزول القرآن جملة واحدة لا يعنون نزول حروفه لذاتها جملة واحدة، وإنما لشيءٍ أعمق يتمثَّل بما تحمله

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف بالتحرير والتنوير ١٤/ ٢٨٠-٢٨٤، محمد الطاهر عاشور، الدار التونسية للنشر-تونس، ١٩٨٤م.



هذه الحروف من معانٍ عظيمة تشكِّل الذَّخيرة التي يجاهدهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من بعده: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان ٥٢)،

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل ١٠٢).

وعلى هذا المعنى يكون (**التفريق والتبديل**) طريقان يحصِّنان الأمَّة المحمَّدية من الانحراف عن منهج الوحي والرُّكون إلى منظومة إبليس ويثبتانها على الصراط المستقيم: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٣-٧٤).

وإنَّنا إذ نفعل ذلك لا نكون مشرِّعين والعياذ بالله، وإنما نختار من التشريعات الكاملة التامَّة ما يناسب المقام.

ولا شكَّ أنَّ مثل هذا في القرآن الكريم دالٌّ على حركيَّة النصِّ القرآني وقدرته على التعامل مع مختلف الظروف، وقد بيَّنَّا قبل في ثنايا الدراسة شمول المصادر المرجعيَّة لكلِّ حالة مفترضة، ومن الفهم الوارد على لسان الأستاذ سيد قطب رحمه الله في هذا المعنى: ما ذكره بعد الكلام في مراحل التشريع الجهادي من الأمر بالصبر وكفِّ اليد إلى الإذن بالدَّفع إلى قتال مَن بدأ بالقتال، وانتهاء بإعلان حربٍ شاملة على الكفار تؤول إلى تخييرهم بين الإسلام والجزية والقتال فيقول:

«ومن هذا التلخيص الجيِّد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلَّى سماتٌ أصيلة وعميقةٌ في المنهج الحركيِّ لهذا الدين، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً، ولكنَّنا في هذه الظلال لا نملك إلا أنْ نشير إليها إشاراتٍ مجملة:

السمة الأولى: هي الواقعيَّة الجديَّة في منهج هذا الدين، فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً، وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي، إنها تواجه جاهليَّة اعتقاديَّة تصوُّرية؛ تقوم عليها أنظمة واقعية عملية؛ تسندها سلطات ذات قوَّة ماديَّة، ومن ثمَّ تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه، تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوَّة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها؛ تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات؛ وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل، إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد، وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرَّك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجيء.

والسِّمة الثانية في منهج هذا الدين، هي **الواقعيَّة الحركيَّة، فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكلُّ مرحلةٍ تسلم إلى المرحلة التي تليها**، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجرَّدة، كما أنَّه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمِّدة، والذين يسوقون النصوص القرآنيَّة للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد، ولا يراعون هذه السِّمة فيه، ولا يدركون طبيعة المراحل التي مرَّ بها هذا المنهج، وعلاقة النصوص المختلفة بكلِّ مرحلة منها؛ الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً، ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائيَّة، ذلك أنهم يعتبرون كل نصٍّ منها كما لو

كان نصّاً نهائياً، يمثِّل القواعد النهائية في هذا الدين، ويقولون-وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبقَ لهم من الإسلام إلا العنوان-: إنَّ الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يُسْدون إلى هذا الدين جميلاً بتخلِّيه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لربِّ العباد! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكنْ بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة، بعد تحطيم الأنظمة السِّياسية الحاكمة، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها»[1].

وقال كذلك -في التصريح- بأنَّ تلك الأحكام المرجعيَّة ليست منسوخة، ولكنَّها تُستدعى للتطبيق كلما تشابهت ظروف التطبيق مع ظروف النزول، يقول -رحمه الله-:

«إن تلك الأحكام المرحليَّة ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أيِّ ظرفٍ من ظروف الأمَّة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة، ذلك أنَّ الحركة والواقع الذي تواجهه في شتَّى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدِّد عن طريق الاجتهاد المطلق أي الأحكام هو أنسب للأخذ به، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يُصار إليها متى أصبحت الأمة الإسلامية في الحال التي تمكِّنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساسٍ من هذه الأحكام الأخيرة النِّهائية سواء في معاملة المشركين، أو أهل الكتاب»[2].

وعند الكلام عن أحكام القتال الواردة في سورة التوبة قرَّر هذه المسألة وبيَّن ملامحها وأُطُرها وأبعادها، إذ قال:

«وحقيقة أنَّ هذه الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة كانت تواجه حالة بعينها في الجزيرة؛ وكانت تمهيداً تشريعياً للحركة المتمثلة في غزوة تبوك، لمواجهة تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله-وهي الغزوة التي يقوم عليها محور السورة- ولكنَّ وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخيَّة معينة، إنما كان وليد حقيقة دائمة مستقرة؛ كما أنَّ حربهم للإسلام والمسلمين لم تكن وليدة فترة تاريخيَّة معينة، فهي ما تزال مُعلنة ولن تزال، إلا أن يرتدَّ المسلمون عن دينهم تماماً، وهي معلنة بضراوة وإصرار وعناد، بشتى الوسائل على مدار التاريخ، ومن ثَمَّ فهذه الأحكام الواردة في هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمانٍ ولا مقيَّدة بمكان، **ولكنَّ العمل بالأحكام إنما يتمُّ في إطار المنهج الحركيِّ الإسلامي**، الذي يجب أنْ يتمَّ الفقه به، قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام في ذاتها، وقبل أن يحمل واقع ذراري المسلمين-الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان- ضعفهم وانكسارهم على دين الله القوي المتين.

إنَّ الأحكام الفقهية في الإسلام كانت-وستظلُّ دائماً- وليدةَ الحركة وفق المنهج الإسلامي، **والنصوصُ لا**

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٧٩، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٨٠، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

يمكن فهمها إلا باستصحاب هذه الحقيقة، وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ؛ والنصوص في صورتها الحركية وفق المنهج الإسلامي، ولا بدَّ من هذا القيد: «**الحركة وفق المنهج الإسلامي**» فليست هي الحركة المطلقة خارج المنهج؛ بحيث نعتبر «الواقع البشري» هو الأصل أيّاً كانت الحركة التي أنشأته، ولكنَّ«الواقع البشري» يصبح عنصراً أساسياً في فقه الأحكام إذا كان قد أنشأه المنهج الإسلامي ذاته.

وفي ظل هذه القاعدة تسهل رؤية تلك الأحكام النهائية في العلاقات بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم؛ وهي تتحرَّك الحركة الحيَّة؛ في مجالها الواقعي؛ وفق ذلك المنهج الحركي الواقعي الإيجابي الشامل»[1].

والحقُّ أن سيداً -رحمه الله- وإن كان-كما رأيت- قد تكلَّم في الموضوع مراراً وأصَّله على وجهٍ بديع إلا إنَّه لم يكن أوَّل من تكلَّم بهذا من أهل العلم، إذْ قد سبقه في ذلك أكابر المحققين من العلماء العاملين، الذين شهد الميدان لهم بأنهم فرسان التغيير، وأئمة حركة النهضة في أزمانهم.

يقول الإمام الزَّركشي-رحمه الله- محققاً لهذه المسألة مُبيِّناً لها:

«ما أمر به لسبب ثمَّ يزول السبب؛ كالأمر حين الضَّعف والقلَّة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والجهاد ونحوها، ثمَّ نسخه إيجاب ذلك، **وهذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نسء**، كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ (البقرة ١٠٦)، فالمنسأ هو الأمر بالقتال، إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضَّعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى.

وبهذا التحقيق تبيِّن ضعف ما لهج به كثير من المفسِّرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك بل هي من المُنسأ، بمعنى أنَّ كلَّ أمرٍ ورد يجب امتثاله في وقتٍ ما لعلَّة توجب ذلك الحكم، ثمَّ ينتقل بانتقال تلك العلَّة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدا، و إلى هذا أشار الشافعي في «الرِّسالة»؛ إلى النَّهي عن ادِّخار لحوم الأضاحي من أجل الدافَّة، ثم ورد الإذن فيه، فلم يجعله منسوخاً، بل من باب زوال الحكم لزوال علَّته، حتى لو فاجأ أهل ناحية جماعة مضرورون تعلَّق بأهلها النهي.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ (المائدة ١٠٥) الآية، كان ذلك في ابتداء الأمر، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والمقاتلة عليه، ثمَّ لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ» عاد الحكم، وقال صلى الله عليه وسلم: «فإذا رأيت هوىً مُتَّبعاً وشحَّاً مُطاعاً وإعجاب كلِّ ذي رأيٍ برأيه فعليك بخاصَّة نفسك».

وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة، إذ لو وجب لأورث حرجاً ومشقَّة؛ فلمَّا أعزَّ الله الإسلام وأظهره ونصره، أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٣١، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.

تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية إنْ كانوا أهل كتاب، أو الإسلام أو القتل إنْ لم يكونوا أهل كتاب.

ويعود هذان الحكمان-أعني المسالمة عند الضَّعف والمسايفة عند القوة- بعود سببهما، وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة، بل كلٌّ منهما يجب امتثاله في وقته»[١].

وقال أبو بكر الجصاص الحنفيُّ-رحمه الله- في أحكام القرآن بعد ذكر نسخ الموادعة مع الكفار في وقت النبي صلى الله عليه وسلم: «إلا أنَّه إن احتيج إلى ذلك في وقت لعجز المسلمين عن مقاومتهم أو خوف منهم على أنفسهم أو ذراريهم جاز لهم مهادنة العدو ومصالحته من غير جزية يؤدونها إليهم، لأنَّ خطر المعاهدة والصُّلح كان سبب قوَّتهم على العدو واستيلائهم عليهم، وقد كانت الهدنة مُباحة في أوَّل الإسلام، وإنما حُظرت لحدوث هذا السبب، فمتى زال السبب وعادت الحال التي كان المسلمون عليها من خوفهم من العدوِّ على أنفسهم عاد الحكم الذي كان من جواز الهدنة»[٢].

هذا الكلام لبعض كبار أهل العلم يدلُّ على ما ذكرناه من أنَّ التبديل في الأحكام أو «الإنساء» فيها -بتعبير الزركشي- من طبيعة نصوص المصادر المرجعيَّة، **وهي طبيعة حركيَّة دالَّةٌ على قدرة هذه المصادر على «التنزُّل» على أيِّ واقع بشري، تُستدعى لمعالجته.**

والحقُّ أنَّ هذا المطلب« التبديل» مطلبٌ يطول فيه الكلام، وقد صنِّف فيما يلحق به ويدور حوله من الكتب والأبحاث الشيء الطيب، وإن كان ما يزال يحتاج إلى تأمُّل وإنضاج.

وحرصاً على عدم الإطالة حول ما يغلب على الظَّن أنَّ القارئ لن يخالفنا فيه، نؤثر الاكتفاء بما انقضى والانتقال إلى المطلب الأخير.

المطلب الثالث:
الروح

في مقابل ما ذكرناه في «فقه النزول» مما جاء في المبحث السابق، وهو: «الوحي المتصل» الذي عاش معه الصحابة ساعة بساعة، ينتظرون توجيهه، ويتلقُّون تربيته، في مقابل ذلك هناك نضع هنا في «فقه التنزيل»: «الروح»، وذلك استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى ٥٢).

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى ٥١).

وقد وصفت هذه الآية أنواع الاتصال بين الخالق العظيم وبين البشر: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، وكانت هذه

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤٤، بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى: ١٣٧٩هـ، ١٩٥٧م.

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٨٩، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ١٤٠٥هـ.

الأنواع من الوحي غالباً ما اختصَّ بها الأنبياء ثمَّ تأتي الآية التي تليها لتصف القرآن بكونه وحياً مُتَّصلاً يحقِّقُ حالة الاتصال مع الخالق العظيم بعد اكتمال النُّبوة وتوقف إرسال الأنبياء وكأنَّنا نقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى ٥٢)، صفة اتِّصال الوحي بعد انتهاء مرحلة الرُّسل ولذلك قلنا بأنَّ القرآن بوصفه روحاً يقوم مقام الوحي المتصل، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم ٤)، هو وحيٌ كما وصفه الله -عزَّ وجل-، لكنَّ من خصائصه أنَّه «يوحى»، يوحى للمؤمنين في كلِّ عصر من عصور الأمَّة أمرَ رشدهم كما كان يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في النزول الأوَّل، لكنَّ هذه الصِّفة في القرآن لا تتحقَّق لأحد من البشر **حتى يحقق كمالات الاتصال مع القرآن كمرجعيَّة**، فيصير القرآن بين يديه روحاً تحيا معها الأمَّة، وقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة ٢٢).

أيَّدهم بروح منه نجد أنَّ الله يؤيِّد بهذا الروح العظيم من سلَّم لمرجعيته هذا الدين دون خلط أو إخفاق مع أعدائه، وحتىً في سورة الإسراء نجد أنَّ السؤال عن الروح: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٨٥).

وفي الآية التي تليها مباشرة، يأتي التهديد بالذِّهاب بالوحي وانقطاعه، وكأنها تشير إلى أنَّ انقطاع الأمَّة عن اتصالها بالكتاب العظيم كوحي متَّصل وروح تبعث الحياة، مُؤذنٌ بانقطاع هذا النوع من الوحي: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ (الإسراء ٨٦)، ثمَّ يستمرُّ الحديث عن القرآن بوصفه محلَّ الإعجاز والتحدي: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء ٨٨-٨٩).

وفي هذا إشارة دالة على أنَّ من أعظم أوجه الإعجاز في القرآن، هي تلك الخاصِّيَّة الأصيلة فيه بأنَّه « روح».

ويشرح هذا الفهم حديث أبو لبيدة الذي أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى وابن حبَّان والحاكم وغيرهم واللفظ لأحمد عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي قال: حدَّثنا جبير بن نفير، عن عوف بن مالك أنَّه قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ذات يوم، فنظر في السماء، ثمَّ قال: «هذا أوان العلم أنْ يُرفع»، فقال له رجلٌ من الأنصار يقال له زياد بن لبيد: أيُرفع العلم يا رسول الله وفينا كتاب الله، وقد علَّمناه أبناءنا ونساءنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنْ كنت لأظنُّك من أفقه أهل المدينة»، ثمَّ ذكر ضلالة أهل الكتابين، وعندهما ما عندهما من كتاب الله -عزَّ وجل-»[1].

فالقرآن روحٌ تحيا به الأمَّة ما حييت، يمدُّها متى احتاجت بالتوجيه والإرشاد، لأنَّ الروح سببُ الحياة، ولا يمكن تصوُّر حياة الأمَّة بدون اتصالها بالروح.

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (٢٣٩٩٠) ٣٩/ ٤١٧، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد، إشراف: د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

ومقتضى ذلك -إلحاقاً بما مضى- أنَّه لا يمكن أنْ لا تتَّصف المصادر المرجعيَّة بالحيويَّة للأمَّة، وأنْ لا تكون مرجعاً تجد فيه الأمَّة حاجتها!!

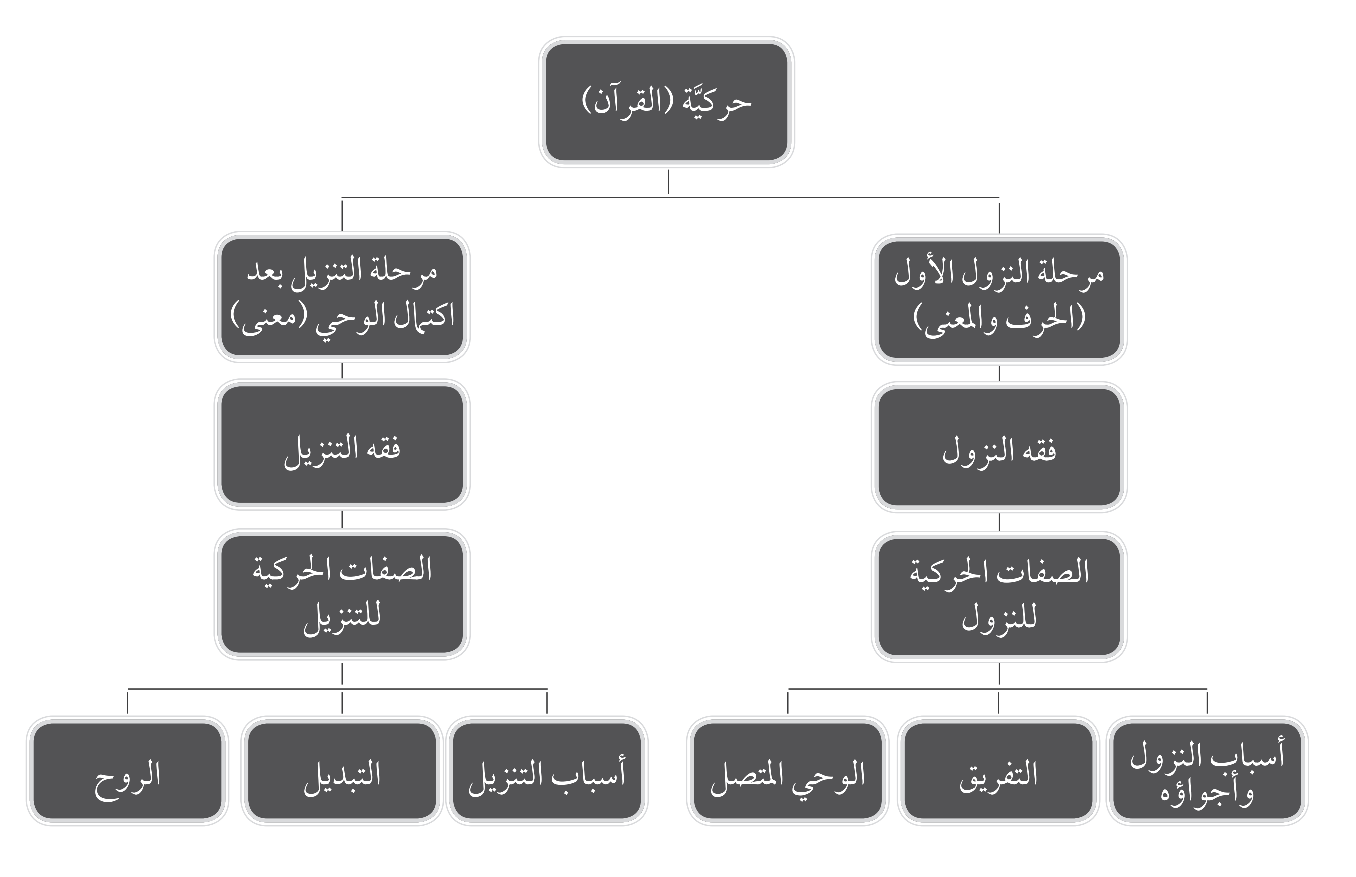
إذْ إنَّ مقتضى كون القرآن روحاً أنْ يمد الأمَّة بالحياة وأسبابها عن طريق حضوره في معالجة مشكلاتها وهدايتها في مواجهة الضَّلالات التي تواجهها في مختلف أزمانها وأحوالها.

ومما يدلُّ على هذا المعنى من كتاب الله كذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ (الأنفال ٢٤).

إنَّ الاستجابة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم -المصدرين المرجعيَّين الأساسيَّين- هو سبب حياة الأمَّة ودليلها، وإنَّ الرجوع إلى هذه المصادر هو الكفيل بإبقاء الروح ساريةً تحيي هذه الأمَّة وتبثُّ فيها أسباب النجاة والفلاح.

وقد مرَّ بنا في ثنايا الكلام ما يتعلَّق بهذه الفكرة، فنكتفي به مخافة التكرار والإطالة، ونسأل الله أن يوفقنا ويوفقكم ويستعملنا ويستعملكم في إعادة إحياء الأمة المسلمة، وتمكينها في أستاذيتها على هذه الأرض:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (النور ٥٥).



الفصل التاسع

السُّنَّة والسيرة شموليتهما وأدلَّة كونهما مرجعيَّة



المبحث الأول :
شمولية السنة والسيرة

السنَّة والسيرة مصطلحان متداولان مشتهران في الوسط الإسلامي ولهما في اصطلاح العلماء معان؛ فالسنَّة عند الأصوليين لها مدلولٌ مختلفٌ عن مدلولها عند المحدثين، ولها عند الفقهاء مدلولٌ ثالث، والسيرة مدلولها مختلف؛ إذ تطلق ويُراد بها استعراض حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ميلاده إلى وفاته.

والذي يهمُّنا من هذين المصطلحين في دراستنا هذه، هو مدلول مصطلح السنة عند الأصوليين، إذ يعرِّفونها بأنَّها: «ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير».

وأمَّا السيرة، فما نحن بصدد النظر فيه منها-في هذا المقام-: **السِّياق السياسيُّ في الدَّعوة الإسلاميَّة،**

من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاته.

والاختيار أنْ نتكلَّم عن السُّنة والسيرة في الصفحات القادمة في سياقٍ واحد، إلا إذا اقتضى المقام التفصيل.

فنقول -وبالله التوفيق-:

السنَّة النَّبويَّة مصدرٌ تشريعيٌّ مستقلٌّ من مصادر التشريع الإسلامي، تبيِّن مُبهم القرآن، وتفصِّل مجمله، وتقيِّد مُطلقه، وتخصِّص عامَّه، وتفسِّر آياته، وقد تزيد شيئاً كذلك على أحكامه.

وقد دلَّ القرآن الكريم نفسه على هذه المكانة المصدريَّة للسنة النبوية، فصارت السُّنة بالدليل القرآنِّي مصدراً رئيسياً مستقلاً لا يجوز تركه أو الاستهانة به:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر ٧).

وقال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ (المائدة ٩٢).

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء ٦٥).

وقال: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف ١٥٨).

وقال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (آل عمران ١٣٢).

وقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى ٥٢).

وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء ٨٠).

والآيات في ذلك كثيرة جداً، وكذا الأحاديث، والأمر معلومٌ واضح فلا داعي للإطالة في الاستدلال.

أمَّا السيرة فهي النَّموذج التطبيقيُّ للقرآن، والانعكاس الواقعيُّ لمناهجه وأوامره ونواهيه، وهي الشكل

التطبيقيُّ لفقه النزول الأول للقرآن الكريم بكافَّة تفصيلاته؛ حيث كانت الكتلة الإسلامية الأولى تتحرك على ضوء حركة النصِّ الشرعيِّ، بحيث عالجت السيرة النبوية الشمولية التفصيلية التي جاءت في القرآن الكريم تفسيراً وتفصيلاً وتطبيقاً، وهذا ما صرَّحت به عائشة رضي الله عنها إذ قالت واصفة خلُق رسول لله صلى الله عليه وسلم: «كان خلقه القرآن»، ومعنى هذا: أنَّه -عليه الصَّلاة والسلام- صارَ امتثالُ القرآنِ لهُ أمراً ونهياً سجيَّةً وخُلُقاً تطبَّعه وترك طبعه الجبليّ.

ولا نحسب أنَّ معنى قولها رضي الله عنها «كان خلقه القرآن»، الأخلاق بالمعنى المتداول فحسب، من البشاشة وحسن التعامل والعفَّة وغيرها، إنَّما معناه:أنَّ كلَّ ما كان في القرآن صار صبغةً صَبغتَه -صلى الله عليه وسلم-، ومنهجاً يُسيِّر حياته ويضبطها فهو صلى الله عليه وسلم مصدر الأخلاق، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص ٨٦).

والله تعالى يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب ٢١).

ويتحصَّل لدينا من مجموع ما ذكر:

أنَّ مدلول السُّنة والسيرة يتضمَّن كلَّ ما يتعلَّق بالقرآن الكريم تفسيراً وتفصيلاً وتطبيقاً، وممَّا يدلُّ على هذا المعنى على سبيل التحديد:

قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل ٤٤)، فوظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم بيان الذِّكر، وهو يشمل كلَّ ما تمَّ بيانه.

وإذا كان القرآن الكريم شاملاً-كما ذكرنا- لكلِّ جوانب الحياة فالسُّنة والسيرة شاملتين كذلك لما يشرحانه: شاملتين لكلِّ جوانب الحياة.

وإذا كان القرآن هدى، فإنَّ اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم هدى:

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ (النور ٥٤).

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران ٣١).

وإذا كان القرآن قد اهتمَّ في أصل خطابه بالنَّاحية السياسيَّة، يهدي بذلك الأمَّة، ويأخذ بيدها إلى أنوار الأمان، فإنَّ اتباع سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بسيرته والنَّظر فيها والإفادة منها كفيلة بذلك.

بل نقول: إنَّ الاكتفاء بالنَّظر في القرآن مع تنحية السُّنة والسيرة هو ضلالٌ عن الطريق، وتيهٌ في غياهب الباطل، وهو تركٌ لما أوجبه القرآن الكريم ودلَّ عليه وأكَّد أشدَّ تأكيد، فيؤول إذاً إلى أنَّه تركٌ للعمل بالقرآن ولما دلَّ عليه وأوجبه، وقد تقدَّم التدليل على ذلك في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أَلا إِنِّي أُوتيتُ الكِتابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلا إِنِّي أُوتيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلا يوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَني شَبْعاناً عَلى أَرِيكَتِهِ يَقولُ: عَلَيْكُم

بِالْقُرْآنِ، فَما وَجَدْتُمْ فيهِ مِنْ حَلالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَما وَجَدْتُمْ فيهِ مِنْ حَرامٍ فَحَرِّموهُ)[1]، وهو معلومٌ بالضرورة.

وإنما نؤكِّد عليه ونذكِّره لما نرى من عدم وضوح هذه الحقيقة عند كثير ممن ينتسبون إلى «الفكر الإسلامي» فليتنبه.

وممَّا تشمله السيرة والسنة: الجانب السياسي، الذي بيَّنا فيما سبق أهميَّته من بين الجوانب، وأصالته في الخطاب الشرعي الإسلامي، وكونه من المقاصد الأوليَّة للكتاب والسنَّة.

وبالنَّظر إلى السُّلوكيَّات والقرارات السياسيَّة النبويَّة في السيرة ودراسة ظروفها وملابساتها يُمكننا أن نخرج بالكثير من الفوائد المتعلِّقة بالمسلك السياسي والهدي النَّبوي في ذلك، خصوصاً وأنَّ السيرة النبوية شاملة لمراحل التطور والنُّضوج بالشكل الكامل من التأسيس والضَّعف إلى الاكتمال والقوَّة، وهذه المراحل هي الإطار النظريُّ والعمليُّ لكلِّ دعوةٍ إسلاميَّة على مدار الزَّمان؛ إذ تبدأ كلٌّ منها بمرحلة التأسيس ضعيفة متواضعة الإمكانات، تُواجَه بالضَّغط والعداء من المحيط، وتمرُّ بألوان الابتلاء والمحن، ثمَّ تنتقل إلى البحث عن النَّصيرِ وطرْق أبواب الفرج، إلى تأسيس نواة الدولة ومجابهة أخطار البدايات، والنمو بعد ذلك والاستغلاظ، حتى تستويَ على سوقها، قويَّة متينة تَنال ولا تُنال، تَقضي ولا تُقضى، تُهاب ولا تَهاب: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ (الفتح ٢٩).

والدَّعوة الإسلاميَّة لا تخلو أنْ تكون على إحدى هذه الأحوال، إمَّا في حال التأسيس أو في حال القوَّة أو في الحالات التي بينهما، وإنها-أيْ الدعوة-لا بدَّ واجدة في السيرة النبوية ما يتناسب وحالتها، ويُشابه خصائص مرحلتها العامَّة، فتفيد حينئذٍ من التصرُّف النبوي وتسترشد به في اتخاذ القرار ورسم المسار.

وهنا مسألة لا بدَّ من التنبيه عليها: وهي الادِّعاء بأنَّ السيرة النبويَّة غير شاملة للمحاور السياسيَّة الخمس التي أشرنا إليها سابقا، فنقول:

إنَّ القول بأنَّ السيرة النبويَّة ليست شاملة لجميع أجزاء ومحاور العمليَّة السياسيَّة هو قول إمَّا أنْ يكون قد بُني على استقراء لمراحل السيرة النبوية وإمَّا أنْ لا يكون.

فإن كان القول غيرَ مبنيٍّ على استقراء تامٍّ فهو كلامٌ نظريٌّ لا حاجة لنا في الوقوف عنده طويلاً، فهو مجرَّد ادِّعاء يخلو من أي دليل؛ لأنَّ مبنى الإثبات والنفي في هذه القضية هو الاستقراء لا غير.

وإن كان القول مبنياً على استقراء فنحن ننازع هذا الادِّعاء، بادِّعاء آخر أقمنا عليه استقراء تاماً تقريباً وهو شمولية السيرة النبويَّة لكلِّ أجزاء العملية السياسيَّة، وكوننا هنا في هذه النظرية قد أشرنا إلى بعض أجزاء من هذه الشمولية كما سيأتي بيانه، فلنا مبحث كامل في هذه السلسلة يثبت لنا بالاستقراء التامِّ والكليِّ كيف أنَّ السيرة النبوية قد شملت جميع محاور العمليَّة السياسيَّة اللازمة لاستكمال المشروع الإسلامي، وقد أشرنا إلى بعضها كما سلف ذكره، وإثبات الشمولية في السيرة النبوية مبنيٌّ على الاستقراء فقط وقد أثبتناه في ثنايا ما أنجزناه إلى الآن، ولا زال العمل على إنضاجه بشكل أكمل.

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (١٧١٧٤) ٢٨/ ٤١٠، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد، إشراف: د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

وقد ينحى البعض منحىً آخر فيقول:

إنَّ السيرة النبويَّة شاملةٌ لجميع أجزاء ومحاور العمليَّة السياسيَّة، لكنَّ عملية استنساخِ فترةٍ زمانيَّةٍ تاريخيَّةٍ مضتْ وانتهتْ مستحيلةَ الوقوع والتحقُّق؟

ونحن نقول: إنَّ رفع الواقع السياسي المعاصر على مقتضى المحاور السياسيَّة الخمس لا يلزم منه استنساخُ الفترة الزمانيَّة والتاريخيَّة نفسها، إذْ التاريخ لا يعيد نفسه، لكنَّ مقتضى القول هو مراعاة القيد المرحلي للواقع السياسي بناءً على القيد المرحليِّ في السيرة النبويَّة، ومن ثمَّ رفع هذه المحاور بناء على تلك المراحل، وسيأتي بيانُ ذلك في مبحث «الاستنباط» -إن شاء الله-.

وفي مبحث المنهج السياسيِّ للسيرة النبويَّة سوف نعرض لهذا الموضوع بشيءٍ من التفصيل مع ذكر الأدلَّة والمناقشة، وذلك في ثنايا هذه السلسة المباركة، ولا زال العمل عليها قائما إلى الآن.

ونترك المقام الآن للإمام الموفَّق ابن القيم -رحمه الله تعالى- ليزيِّن المعنى المسوق بعباراته الرَّائعة، وبلاغته الشهيرة، إذْ يقول -رحمه الله- في إعلام الموقعين:

«وتَقسيمُ بعضهم طُرُقَ الحكم إلى شَريعَة وَسِياسَة كَتَقْسيم غَيْرهِمْ الدِّينَ إلى شَريعَة وَحَقيقَة، وكَتَقْسيم آخرينَ الدِّينَ إلى عَقْل وَنَقْل، وكُلُّ ذَلكَ تَقْسيمٌ باطلٌ، بل السِّيَاسَةُ وَالْحَقيقَةُ وَالطَّريقَةُ وَالعَقْل كُلُّ ذَلكَ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْن: صَحيح، وفاسِد؛ فَالصَّحيحُ قِسْمٌ مِنْ أقْسام الشَّريعَة لَا قَسيم لها، وَالْبَاطلُ ضِدُّها وَمُنَافيها، وهذا الأَصْلُ مِنْ أَهَمِّ الْأُصُول وَأنْفعها، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلى حَرْف واحد، وَهُوَ عُمُومُ رسالَته صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بالنِّسْبَة إلى كُلِّ ما يَحْتَاجُ إلَيْه العبادُ في مَعارفهمْ وَعُلومهمْ وَأعْمالِهم، وَأنَّهُ لم يُحوجْ أمَّتَهُ إلى أَحَد بَعْدَه، وإنَّما حاجَتُهُمْ إلى مَنْ يُبَلِّغُهُمْ عَنْهُ مَا جاءَ به، فَلرسالَته عُمُومان مَحْفُوظان لا يَتَطَرَّقُ إلَيْهما تَخْصيص: عُمُومٌ بالنِّسْبَة إلى الْمُرْسَل إلَيْهم، وعُمُومٌ بالنِّسْبَة إلى كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إلَيْه مَنْ بُعثَ إلَيْه في أُصُول الدِّين وَفُرُوعه؛ فَرسالَتُهُ كافيَةٌ شافيَةٌ عامَّةٌ، لَا تُحْوجُ إلى سواها، وَلا يَتمُّ الْإيمانُ به إلَّا بإثْبات عُمُوم رسالَته في هَذا وَهَذا، فَلا يَخْرُجُ أَحَدٌ منَ الْمُكَلَّفينَ عَنْ رسالَته، وَلا يَخْرُجُ نَوْعٌ منْ أَنْوَاع الْحَقِّ الَّذي تَحْتَاجُ إلَيْه الأُمَّةُ في عُلُومها وَأعْمالها عَمَّا جاءَ به»[1].

وقال: «وبالجُملة فَجاءَهُمْ بخَيْر الدُّنْيا وَالآخرَة برُمَّته، وَلَم يُحوجْهُم اللهُ إلى أَحَد سواهُ، فَكَيْفَ يُظَنُّ أَنَّ شَريعَتَهُ الكاملَةَ الَّتي ما طَرَقَ العَالَمَ شَريعَةٌ أَكْمَلُ منْها ناقصَةٌ تَحْتاجُ إلى سياسَة خارجَة عَنْها تُكَمِّلُها، أَوْ إلى قِياس أَوْ حَقيقَة أَوْ مَعْقُول خارج عَنْها؟ ومن ظَنَّ ذَلكَ فَهُوَ كَمَنْ ظَنَّ أَنَّ بالنَّاس حاجَةً إلَى رَسُول آخرَ بَعْدَه، وَسَبَبُ هَذا كُلِّه خَفاءُ مَا جاءَ به عَلى مَنْ ظَنَّ ذَلك، وَقلَّةُ نَصيبه منْ الفَهْم الَّذي وَفَّقَ اللهُ لَهُ أَصْحابَ نَبيِّه الَّذينَ اكْتَفَوْا بما جاءَ به، وَاسْتَغْنَوْا به عَمَّا ما سواهُ، وَفَتَحُوا به الْقُلُوبَ وَالْبلادَ، وَقالُوا: هَذا عَهْدُ نَبيِّنَا إلَيْنا وَهُوَ عَهْدُنا إلَيْكُم، وقدكانَ عُمَرُ -رَضيَ اللهُ عَنْهُ- يَمْنَعُ منَ الْحَديث عَنْ رَسُول اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- خَشْيَةَ أَنْ يَشْتَغلَ النَّاسُ به عَنْ الْقُرْآن، فَكَيْفَ لَوْ رَأى اشْتغالَ النَّاس بآرائهمْ وَزَبَد أَفْكارهمْ وَزُبالَة أَذْهانهمْ عَنْ الْقُرْآن وَالْحَديث؟ فَاللهُ الْمُسْتَعانُ.

وَقَدْ قالَ الله تعَالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ

(١) إعلام الموقعين ٦/ ٣٠، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ، ١٩٩١م، وانظر: العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د.سفر بن عبد الرحمن الحوالي، دار الهجرة، دون تاريخ.

يُؤۡمِنُونَ ﴾ وقالَ تَعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ ، وَقالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ »[1].

بقي أنْ يُقال: أليس من الممكن أنْ يكون شرْعُ من قبلنا ومناهج الأنبياء السابقين، منهجاً لنا في الدَّعوة والسياسة؟

فنقول: شرعُ من قبلنا نعني به شرائع الأنبياء السابقين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كإبراهيم ونوح وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرُّسل الذين قصَّ علينا القرآن الكريم أخبارهم، وهو خاصٌّ بالتشريعات السماوية دون التشريعات الوضعية التي سبقت رسالة الإسلام، كالتشريع الروماني وتشريعات قدامى المصريين وشريعة حمورابي وغيرها، فإنها ليست شرائع مُعتبرة في نظر المتدينين في العالم من غير خلاف؛ لأنَّ حقَّ التشريع إنما هو لله وحده ولا يحق لأحد غيره في التشريع مطلقاً، قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف ٦٧).

وقد اختلف الفقهاء في حكم شرع من قبلنا، أيعتبر شرعاً مُلزما لنا، كإلزام شرعنا لنا، أم لا يعتبر تشريعاً ملزماً لنا؟ وذلك على أقوال ومذاهب متعدِّدة، فنقول :

إنَّ شريعة من قبلنا لابدَّ أن تعتريها الحالات التالية:

١ - أنْ يقصَّها الله تعالى علينا ويأمرنا باتباعها، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة ١٨٣)، فهذا مُلزم لنا بالإجماع، **لا لأنَّه شرع من قبلنا ولكن لأنَّه شرعنا.**

٢ - أنْ يقصَّها الله تعالى علينا ويقوم الدَّليل الشرعيُّ على نسخها، مثل حكم الغنائم، فإنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنَّ الغنائم كانت محرَّمة على من قبلنا ثمَّ أبيحت لنا، وذلك ثابت بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الخصوصيَّة، عن جابر رضي الله عنه: (وأحلَّت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحد قبلي)، فهذا منسوخٌ في حقِّنا باتفاق الفقهاء أيضاً، لقيام الدَّليل الشرعي على نسخه.

٣ - أن لا يقصَّها الله تعالى علينا مطلقاً، فإنها لا حجة فيها علينا بالاتفاق، لعدم ثبوتها بالطرق التي نقبلها، ولا يؤثر في ذلك أنها ثابتة عندهم، لأنهم بكفرهم سقطت عدالتهم وأهملت روايتهم، فلم يبقَ فيها نوع حجة علينا لذلك.

٤ - أن يقصَّها الله علينا من غير إلزام لنا بها أو نسخ لها، مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (المائدة ٤٥)، وهذا هو موضع الخلاف بين الفقهاء.

فقد ذهب جمهور الحنفيَّة، إلى أنَّ شرعُ من قبلنا الذي قصَّه الكتاب علينا دون بيانٍ لنسخه شرعٌ لنا.

وذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة، إلى أنَّ شرع من قبلنا الذي قصَّه الله علينا دون أن يأمرنا به ليس شرعاً لنا، وهو ما اختاره الغزالي والآمدي والرازي وابن حزم الظاهري.

---

(١) إعلام الموقعين ٦/ ٤٢٨، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

و في ذلك نقول: أنَّ خلاف العلماء في هذه المسألة له أصل، لكنَّنا لن نسرد خلافهم وآراءهم في هذا الباب، بل سنتطرق فقط إلى الأخذ بقول الجمهور أنَّه ليس شرعاً لنا، **ونظنُّ أنَّه لا يصحُّ لنا أنْ نقول بغير ذلك إذا ما اتفقنا على شمولية السيرة**، وتبقى الفائدة في شرع من قبلنا في ما قد وضحناه من قبل من أن ما جاء في قصص الأولين يعد تطبيقاً للسنن والقوانين المبثوثة في القرآن الكريم، لا لرسم الحالة التي يجب أن تكون عليها الدعوة ومشروعها السياسي، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فإنَّه لو كان موسى حيًّا بين أظهركم، ما حلَّ له إلا أن يتبعني)[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة ٤٨).

المبحث الثاني:
السنة معيار التطبيق

نلحظ في الخطاب القرآنيِّ أنَّه جعل سنَّة النبي صلى الله عليه وسلم هي الشاهدة على كمال اتباع المنهج القرآنيِّ أو الانحراف عنه، ولمسنا ذلك في عدَّة آياتٍ من القرآن الكريم؛ حينما قرَّر القرآن الكريم أنَّ اتباع النبي –صلى الله عليه وسلم– بمنهجه هو الشاهد الفصل يوم القيامة على أمَّته، وأنَّ أمَّته هي الشاهدة بكمال اتباع المنهج النبويِّ على الأمم الأخرى.

وذلك حينما قال تبارك وتعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء ٤١)، والشهيد في هذه الآية هو الرسول صلى الله عليه وسلم، فالمعيار المصحِّحُ لشهادة النبي صلى الله عليه وسلم على أمَّته بالخير والصَّلاح يوم القيامة هو في **كمال اتباع المنهج النبوي**، فمن كمُل اتباعه فقد نجا، ومن نقُص فقد خاب وخسر، والشهادة في الآية: **هي القياس على كمال التشريع في المنهج النبويِّ**، ويشهد لهذا الكلام الآية التي تلت هذه الآية مباشرة بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٤٢)، فعطف الله على الذين كفروا مَنْ عَصَوُا الرسول في اتباع منهجه، ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وشهادة الأمَّة على الناس تكون في الفصل بينهم وتقرير الحقِّ من الباطل ووزن قيمهم وتصوراتهم بكمال التشريع الإسلامي، وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم في **أنَّه هو الذي يقرِّر لهم الموازين والقيم ويقول فيهم كلمة الفصل الأخيرة بكمال تشريعه ومنهجه**، وما لم تكن الحقيقة في أنَّ الأمَّة قد كَمُلت في اتباعها المنهج النبوي، فلن يصدق عليها إذن أنها أمَّة الشهادة المحمديَّة!

والدَّليل على ما قلناه أيضاً ما جاء في الآية الكريمة: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (١٤٦٣١) ٢٢/ ٤٦٨، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد، إشراف: د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل ٨٩)، **فيوجد مناسبة لصيقة جدا بين شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على أمّته، وبين تنزيل الكتاب الذي فيه بيان كل شيء**، ومن المعلوم أنَّ الكتاب أشار إلى أنَّ المبيِّن لما جاء في القرآن الكريم هو النبي –صلى الله عليه وسلم–، فيكون بيان كلِّ شيء هو فقط عن طريق منهجه في فهم الكتاب، ومن اتبع منهجه في فهم الكتاب فقد حصل له كمال اتباع المنهج النبوي، ومن حصل له كمال الاتباع فقد تحقَّق بشرف الشَّهادة على النَّاس المبيَّن في الآية: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، ولن يحصل الإنسان على شرف الشهادة على الناس إلا بأنْ يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد شهد له بأنَّه قد كَمُل في اتباع المنهج النبوي.

إذن: فالسُّنة واتباعها واستخراج المنهج الكامل من سنة النبي صلى الله عليه وسلم **هو المعيارُ الأساس في قياس الأعمال والأفعال**، ولن يحصل ذلك إلا بتحقيق شرط الاستجابة الكاملة في اتباع منهج النبي صلى الله عليه وسلم في سنته وإلا فهو الضَّلال واتباع الهوى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص ٥٠)، ويكون تحقُّق كمال الاستجابة بكمال التحاكم إليه في منهجه دون أدنى حرج: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء ٦٥)، وكمال التحاكم بكمال الطاعة: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (النساء ٨٠)، وبالتحاكم والطاعة يكون الاتباع الكامل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران ٣١-٣٢) ، والنتيجة بعد هذا كلِّه هي الهداية الكاملة إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى ٥٢-٥٣).

ويخبرنا القرآن الكريم أيضاً أنَّ الله قرن مجيءَ النبيين يوم القيامة بمجيء الشهداء الذين يشهدون على الأمم الأخرى في كمال اتباعهم تشريع أنبيائهم من عدمه، فيقول: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الزمر ٦٩).

وفي قصَّة الحواريين أنصار دعوة سيدنا عيسى –عليه الصلاة والسلام– يسألُ الحواريُّونَ الله تعالى بإيمانهم بما أنزل في كتابه وبما جاء به، وباتباعهم الرسول وهو عيسى –عليه السلام– أن يكتبهم الله من الشاهدين الذين سيشهدون على أمَّتهم يوم القيامة فيقول الله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران ٥٣)، وذلك كما جاء في موضع آخر في حكاية الله عن النصارى الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (المائدة ٨٣).

إذن: فالشهادة وهي القياس على كمال التشريع في المنهج النبويِّ، هي المعيارُ في الحكم على الأفراد والأمم باستقامتهم وصلاحهم وكمال اتباعهم، نسأل الله أنْ يكتبنا مع الشَّاهدين.

الفصل العاشر

حركيَّة السيرة النبويَّة



إنَّ السيرة النبويَّة تُشكِّل النموذج التطبيقي للقرآن الكريم، وبما أنَّ القرآن الكريم شاملٌ فلا بدَّ أن يكون الوعاء الذي حوى هذه الشمولية شاملاً أيضاً، **ولذلك فإنَّ السيرة النبويَّة هي المعيار الضابط لشموليَّة القرآن الكريم،** ومن هذا الباب أنزلنا المحاور الخمسة للعملية السياسية ونقصد بها: (نظام الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم، ومنظومة الدَّعوة والمواجهة، والاقتصاد السياسي، وعلم الاجتماع السياسي، وعلم النفس السياسي) على السيرة النبوية لنضبط حركة السيرة ومراحل التنزيل، وبعد تنزيل المحاور الخمسة على السيرة النبوية اتَّضحتْ لنا السيرة مُقسَّمة إلى ست مراحل تختلف أحياناً اختلافاً جوهرياً وأحياناً اختلافا جزئياً فيما يتعلَّق بإدارة العمليَّة السياسيَّة.

وبما أنَّنا نعتقد بأنَّ السيرة شاملة لكل سنن الله – عزَّ وجل – وقوانينه وسنن النَّصر والتمكين، فإنَّ هذه المراحل الستة ستشكِّل حالةً من الشمولية لحركة الكتلة المؤمنة وهي تشقُّ طريقها إلى هذا النصر، ضابطين بذلك تنزيل ما تحتاجه الأمَّة من أحكام سياسيَّة عبر قياس المرحلة التي تعيشها الكتلة بواحدة من المراحل الست.

فإذا تمَّ استخراج الخصائص العامَّة لكلِّ مرحلة من مراحل السيرة في محاور العمليَّة السياسيَّة الخمسة المشار إليها، نكون قد وصلنا إلى «صناعة قالب» يمكن أنْ يشكِّل القاعدة الأساسيَّة لعمليَّة الإفادة من حركيَّة النصوص الشرعيَّة، إذ قد تحصَّل لدينا –بذلك– مراحل مختلفة من حيث الطبيعة والخصائص، شاملة للحالات المنطقية التي تمرُّ بها الدَّعوات، فتستطيع أيُّ دعوة في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ أنْ تجد في مراحل السيرة الموضوعيَّة نموذجها المحتذى.

وهذا القالب الذي ينبثقُ من إيماننا بكمال التشريع وشموليَّة القرآن وشموليَّة السيرة كونها التطبيق العملي للقرآن الكريم سيعطينا الضابط الأساسيَّ في رسم حركة مُنضبطة لتنزيل الأحكام المتعلِّقة بالعمليَّة السياسيَّة بحيث ينضبط تنزيل الأحكام بضابط المرحلة، وهذا الضابط هو ما أسميناه **(قيد المرحلة)** وهو ما نعول عليه لإخراج الأمَّة من عشوائية الاستدلال والاستشهاد بالنصوص الشرعيَّة إلى مرحلة الاتصال الأمثل مع المرجعيَّة لأنَّ غاية النصوص الشرعيَّة في العمليَّة السياسيَّة هي: **(ضبط حركة الكتلة المسلمة بحركة النصِّ الشرعي)** وهو غاية ما نسعى إليه بقيد المرحلة.

المبحث الأول:
عناوين المراحل الست في السيرة النبوية

وضَّحنا من قبل في مبحث حركيَّة القرآن ماهيَّة هذه الحركية عن طريق ضبط مجموعة من العلوم الحركيَّة التي تمَّ ذكرها في المباحث السابقة، وفي هذا المبحث سنوضِّح ماهيَّة الحركيَّة في السيرة النبويَّة، وإنْ كانت الحركيَّة في السيرة النبويَّة أشدَّ وضوحاً من القرآن الكريم، حيث اصطلح العلماء على التفريق بين المكِّي والمدني وما ترتَّب على ذلك من اختلافٍ في الأحكام والأدوات والمنهجيَّات، وهذا التقسيم وحده لا يكفي أيْ المرحلة المكيَّة والمدنية فقط؛ بل ثمَّة تقسيمٌ آخر قد يكون أكثرَ دقَّةً وشموليَّةً، وهو تقسيم السيرة النبوية إلى ستِّ مراحل: ثلاثٌ منها مكية، وثلاثٌ مدنيَّة، ولكلٍّ من هذه المراحل طبيعةٌ خاصَّة في التوجيه كما سيأتي بيانه، ونستعرض هنا عناوين

المراحل الست من السيرة النبويَّة وهي على النحو التالي:

وذلك بتقسيم مراحل الدَّعوة إلى مرحلتين: المرحلة الأولى وهي المرحلة المكِّيَّة، والمرحلة الثانية وهي المرحلة المدنية، ومن ثمَّ تقسيم كلِّ مرحلة من المرحلتين إلى ثلاثة مراحل أخرى، ليكون المجموع ستة مراحل على النَّحو التالي:

المرحلة المكيَّة

السنَّة	الهدف
١ – ٣	الدَّعوة السريَّة (سريَّة الدَّعوة وسريَّة التنظيم)، وذلك من بداية البعثة إلى الدعوة الجهرية.
٣ – ١٠	الدَّعوة الجهريَّة (علانية الدعوة وسرية التنظيم من ٣-٦، ومن ثم علانية الدعوة وعلانية التنظيم من ٦-١٠)، وذلك من نهاية الدعوة السرية حتى الخروج من شعب بني هاشم.
١٠ – ١٣	البحث عن مظلَّة سياسيَّة للدَّعوة لحمايَّة المشروع الإسلامي، وذلك من الخروج من شعب بني هاشم حتى الهجرة.

المرحلة المدنيَّة

المرحلة	الهدف
١ – ٥	بناء دولة المدينة باستراتيجية الدفاع، وذلك من الهجرة حتى معركة الأحزاب.
٥ – ٨	مرحلة نغزوهم ولا يغزوننا (استراتيجية التوسع والهجوم)، وذلك من معركة الأحزاب حتى فتح مكة.
٨ – ١٠	مرحلة الخطاب العالمي، وذلك من فتح مكة حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني:

المحاور السياسية الخمس في مراحل السيرة النبوية الست

حتى يسهل علينا إثبات شموليَّة السيرة النبويَّة وحركيَّتها في الحياة السياسيَّة، لا بدَّ لنا من دراسة محاور العمليَّة السياسيَّة الخمس في كلِّ مرحلةٍ من مراحل السيرة النبوية الست، للخروج بقالبٍ عامٍّ من الشموليَّة لكلِّ أجزاء العمليَّة السياسيَّة في كلِّ مرحلة، ولتحديد الاستراتيجيات والمنهجيات والأدواتِ المستخدمة في كلِّ مرحلة، وقد درسنا محاور العمليَّة السياسيَّة في كلِّ مرحلة على حدة، فكانتْ على النَّحو التالي باختصارٍ وإجمال:

مراحل السيرة النبوية	نظام الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم، أو القيادة بالقاعدة.
المرحلة المكيَّة الأولى (١-٣)	العمل على الانتقاء الدقيق للأفراد، والتربية الشاملة، وتوحيد القدوة والمرجعيَّة المتمثِّلة بالنبي صلى الله عليه وسلم، حيث كانت الأوامر الصَّادرة عن القيادة تطبَّقُ حسب الوسع والقدرة دون إلزام ووعيد، وقد عمل النبي -صلى الله عليه وسلم- على تأمين أصحابه وتوفير الحماية لهمّ دون التزام أيٍّ من الطَّرفين بتقديم الحماية للآخر.
المرحلة المكيَّة الثانية (٣-١٠)	لم يكن في هذه المرحلة إجبارٌ أو توجيه إلزاميٌّ محدَّدٌ من القيادة، فكان تجنُّبُ المواجهة بالهجرة أو الثبات والصبر مع التحدي الظَّاهر أو محاولة كتمان الإسلام، والخيارات مُتاحة حسب الوسع والقدرة ولكنْ تحت سقف السِّلمية، والقيادة توزِّع المهام وتعطي أدواراً محدَّدةً، مع العمل على تأمين أفراد الدَّعوة وحمايتهم، حيثُ تميَّزتْ هذه المرحلة بإعطاء القائد الحريَّةَ الكاملة للأفراد في إظهار إسلامهم، والاستفادة من أقوياء الصَّحابة لحماية الدَّعوة.
المرحلةالمكيَّة الثالثة (١٠-١٣)	كانت أوامر القيادة للأفراد في هذه المرحلة قد أخذت طابع الإلزام اتجاه الأعمال التي يكلفون بها، وكانت حالة توزيع وإعطاء المهام كبيرة للكوادر العاملة مع الثِّقة فيهم، وقد كان هنالك تهديدٌ ووعيدٌ لمن يخالف الأمر، وكانت العلاقة بين القيادة والقاعدة في هذه المرحلة مبنيَّةٌ على الثِّقة والسرِّيَّة التامَّة والدِّقَّة الشَّديدة في التنفيذ، حيث عمل النبي صلى الله عليه وسلم على تشكيل مجموعة من الأوس والخزرج وإرسال السُّفراء للتحضير للمرحلة الانتقالية في المدينة، والعمل على تعيين القادة عن طريق الشورى في بيعة العقبة الثانية، وقد برزت في هذه المرحلة قضيَّة البيعة التي لم تكن بارزةً من قبل.
المرحلة المدنيَّة الأولى (١-٥)	أخذت العلاقة في هذه المرحلة طابع الالتزام ضمن القوانين المرسومة، كما وتمَّ وضعُ وصناعة القوانين والتعليمات العامَّة عبر وثيقةِ المدينة، وتشكيلِ الفرق المتخصِّصة في شتى المجالات من سرايا ومخابرات وجيش وأمن وإعلام ومستشارين واقتصاديين وتعليميين وغيرهم، حيث عمل النبي صَلى اللهً عليه وسَلم على تماسكِ المجتمع الإسلاميِّ واستقلاله فشرَّع المؤاخاة، وبنى السوق والمسجد.

المرحلة المدنيَّة الثانية (٥-٨)	كانت العلاقة في هذه المرحلة بين الحاكم والمحكوم في أعلى المستويات من الالتزام والدِّفاع والتضحيَّة المتبادلة؛ حيث كانت الدولة تدافع عن أفرادها بشكلٍ كاملٍ كما ظهر ذلك في الانتقام لحارثة بن عمير الأزدي الذي قتله الغساسنة الأمر الذي تسبَّبَ عنه غزوة مؤتة، كما وبرزت في هذه المرحلة أهميَّة الشورى والعمل على بناء مؤسَّساتها المختلفة.
المرحلة المدنيَّة الثالثة (٨-١٠)	أخذت العلاقة في هذه المرحلة أعلى شكلٍ من أشكالِ الالتزام بين الحاكم والمحكوم، والعمل على تقديم النُّخَب والكفاءاتٍ لقيادة الصُّفوف، ولم يكن هنالك متَّسعٌ للمخالفين والمقصِّرين أبداً، كما ظهر ذلك في غزوة تبوك في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع المنافقين والمخلَّفين.

مراحل السيرة النبوية	منظومة الدَّعوة والمواجهة
المرحلة المكيَّة الأولى (١-٣)	اقتصرت العلاقة في هذه المرحلة على الاكتفاء بالسِّريَّة وعدم المواجهة العلنيَّة مُطلقاً (المواجهة بالسِّريَّة).
المرحلة المكيَّة الثانية (٣-١٠)	تميَّزت هذه المرحلة بعلانيَّة الدَّعوة وسريَّة التنظيم في أوَّلها حتى إسلام عمر وحمزة -رضي الله عنهما- في السَّنة السَّادسة للبعثة؛ حيث انتقلت الدَّعوة بعدها إلى مرحلةِ العلانية المطلَقَة في الدَّعوة والتنظيم، وذلك مع الاكتفاء بعدم المواجهة والدَّعوة السِّلمية، والصَّبر وتحمل الأذى، واعتماد أسلوب المفاوضة والحوار، والاستعانة بالأدوات السياسيَّة السَّائدة مثل العُرف القبلي والعشائري في حماية الدَّعوة.
المرحلة المكيَّة الثالثة (١٠-١٣)	انتقلت الدَّعوة في هذه المرحلة من طور المحليَّة إلى طور الإقليمية، حيث بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتشكيل العلاقات الخارجيَّة مع شتى القبائل المختلفة وعرض الإسلام عليهم بمشروعه السياسيِّ المستقل فكانت الجهود في هذه المرحلة مُنصبَّةً على المحيط الخارجيِّ لطلب النُّصرة وإنشاءِ نظامٍ سياسيٍّ كاملٍ على بقعةٍ جغرافيَّةٍ محرَّرة.
المرحلة المدنيَّة الأولى (١-٥)	كانت المواجهة في أوائل هذه المرحلة تدور حول صراع الوجود، والتحوُّل من طورٍ إلى طور، حيث انتقلت الدَّعوة بعدها للمواجهة المسلَّحَة باستراتيجيَّة الدِّفاع ضمن منظومةِ المواجهة العسكريَّة، والعمل على تشكيل السَّرايا والجيوش والخلايا الاستطلاعيَّة والاستخباراتيَّة.

مراحل السيرة النبوية	منظومة الدعوة والمواجهة
المرحلة المدنيَّة الثانية (٥-٨)	انتقلت الدَّعوة في هذه المرحلة من سياسة الدِّفاع إلى سياسة الهجوم المباشر، مع العمل على توسيع رقعة الدَّولة الإسلاميَّة، وتشكيل العلاقات الخارجيَّة العالميَّة، مع المحافظة على مبدأ التفاوض والحوار.
المرحلة المدنيَّة الثالثة (٨-١٠)	كانت سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة هي المواجهة الشاملة، والعمل على استعادة الأرض وفكِّ الحصار، وبسط الهيمنةِ على الجزيرة العربية بأسرِها، ولم تتوقَّف حركة السَّرايا والعيون في هذه المرحلة، وكان هدف المرحلة هي الرَّغبة في الاستقلاليَّة الكاملة مع استراتيجيَّة التوسُّع.

مراحل السيرة النبوية	علم الاقتصاد السياسي
المرحلة المكيَّة الأولى (١-٣)	كان الوعاءُ الماليُّ ومصدر الدَّخل مُعتمداً على التربية الشخصيَّة والجهود الفرديَّة الذي تمثَّل في مال السيدة خديجة وأبي بكر -رضي الله عنهما-، والتوجيهُ المحدَّدُ لسياسة الإنفاق هو تأمينُ احتياجات الدَّعوة في أولى مراحلها التأسيسيَّة، لكي تتمَّ عمليةُ الدَّعوة ضمن برنامج السرِّيَّة والكتمان.
المرحلة المكيَّة الثانية (٣-١٠)	بقي مصدر الدَّخل في هذه المرحلة مُعتمداً على الجهود الشخصيَّة للأفراد المتمثِّلة في مال السَّيدة خديجة وأبي بكر -رضي الله عنهما-، والمبادرات الفرديَّة من الصَّحابة، والاستعانة قدر الإمكان بمال القبيلة والعشيرة كما ظهر ذلك في حصار بني هاشم؛ حيث لم يكن هنالك إلزامٌ للصَّحابة بوجوب الإنفاق على الدَّعوة، وكان الهدف من سياسة التوجيه المالي في هذه المرحلة هو معالجة الوضع الاقتصاديِّ الصَّعب الذي حلَّ بالمسلمين، ودفع الظلم عنهم وتثبيتهم، وقد برزت في هذه المرحلة قضية تسخير المال لتحرير العبيد وتخليصهم من الرِّقِّ في حال إسلامهم، مما أدَّى إلى ثورةٍ في مجتمع العبيد والرقيق.
المرحلة المكيَّة الثالثة (١٠-١٣)	اعتمد مصدر الدَّخل في هذه المرحلة على المتطوعين من الصحابة مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي لم ينقطع عن رفد الدَّعوة بالوعاء المالي اللازم، حيث كانت سياسة الإنفاق المالي تهدف للتجهيز للمرحلة الانتقاليَّة في المدينة، وتأمين احتياجات الهجرة لتحقيق الغاية الكبرى من هذه المرحلة وهي البحث عن مظلَّةٍ سياسيَّةٍ لحماية المشروع الإسلاميِّ وتأمين فرصةِ استقلاله.
المرحلة المدنيَّة الأولى (١-٥)	توسَّعت مصادر الدَّخل في هذه المرحلة بشكلٍ ملاحَظ وكبير؛ حيث كان الوعاء المالي مُعتمداً على بناء السوق وأموال الزكاة والصَّدقاتِ والغنائم والديَّات وفداء الأسرى، وقد كان هنالك إلزامٌ بوجوب الإنفاق على الدَّعوة، والهدف من سياسة الإنفاق الماليِّ في هذه المرحلة هو بناءُ الدولة الإسلاميَّة، ومعالجة مشكلة الأفراد الاقتصاديَّة، وبناء المؤسَّسات المدنيَّة، والترسانة الدِّفاعية المتماسكة، وتوفير الرَّصيد المالي الكافي لإدارة الغزوات والحروب.

المرحلة المدنيَّة الثانية (٥-٨)	بقي الوعاء الماليُّ في هذه المرحلة مُعتمداً على أموال الزكاة والصَّدقات والغنائم والديَّات وفداء الأسرى والجزية والخراج، مع توسُّع ملاحَظٍ في مصادرِ الدَّخل المختلفة، حيث كان التوجيه المالي في هذه المرحلة يهدف للوصول إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي، وعدم الاستعانة بأحدٍ أو الاحتياج إلى الغير، وتسخير المال للمعارك والحروب بشكلٍ كبير.
المرحلة المدنيَّة الثالثة (٨-١٠)	تعدَّدت مصادر الدَّخل في هذه المرحلة بشكلٍ أكبرَ من ذي قبل، حيث بقي مصدر الدَّخل معتمداً على الزكاة والصَّدقات والتَّبرعات وغنائم الحروب والأنفال والجزية والخراج، وبقي التوجيه المالي قائماً على تسخير المال للحروب والغزوات وخاصَّة الكبيرة منها ضمن استراتيجية التوسُّع العالميِّ في المواجهة المفتوحة مع معسكر الكفر، والوصول إلى مرحلةِ الاكتفاءِ الذاتيِّ والاستقلال التام، والعمل على تأليف قلوب حديثي العهد بالإسلام بالعطايا والغنائم.

مراحل السيرة النبوية	علم الاجتماع السياسي
المرحلة المكيَّة الأولى (١-٣)	لم يظهر تمايزٌ واضحٌ وكبيرٌ بين مختلفِ الكتل المتعدِّدة في هذه المرحلة، حيث انقسمت الكتل الظاهرة فيها إلى اثنتين فقط: الكتلة المسلمة والمتمثِّلة بجماعة المسلمين، والكتلة الكافرة والمتمثِّلة بقريش فقط.
المرحلة المكيَّة الثانية (٣-١٠)	بدأ التمايزُ الواضح بين الكتل المختلفة في هذه المرحلة، حيث بقيت جماعة المسلمين كتلةً واحدةً من حيث الانسجام، والفرق الواحد بين أفرادها هو القوَّة والضَّعف، حيث انقسمت الكتل الأخرى إلى عدة أقسام: الكتلة الحاكمة في مكة من كفار قريش، والكتلة المناصرة من غير المسلمين مثل: أبي طالب وجماعة تمزيق الصحيفة وجماعة النجاشي في الحبشة، وكتلة القبائل العربية المحيطة بمكة والتي وقفت في وجه الدَّعوة.
المرحلة المكيَّة الثالثة (١٠-١٣)	ظهرت في هذه المرحلة كتلٌ خارجيَّةٌ جديدة، حيث انقسمت ما بين الرَّافضين المعتدِّين كجماعة الطائف، وما بين الرَّافضين غير المعتدِّين كجماعة بني شيبان وعامر، وظهرت كتلةٌ جديدة مُتمثِّلة بالأوس والخزرج والتي قبلت البيعة، كما وبدأت تظهر ملامح كتلة جديدة ستظهر على السَّاحة متمثلة في اليهود وما جرى بينهم وبين الأوس والخزرج.
المرحلة المدنيَّة الأولى (١-٥)	أعطت الهجرة في هذه المرحلة تصنيفاً خاصَّاً لصفِّ المؤمنين ما بين المهاجرين والأنصار لكنَّه تصنيفٌ إيجابيٌّ، ويلاحظُ في هذه المرحلة أنَّ المشروعَ الإسلاميَّ أصبح كياناً سياسيَّاً مُستهدفاً مع بروز اليهود كدينٍ وكتلةٍ سياسيةٍ محيطة، إضافةً إلى المعسكر المعادي من كفار قريش، وبداية تشكُّل المنافقين في المدينة.

مراحل السيرة النبوية	علم الاجتماع السياسي
المرحلة المدنيَّة الثانية (٥-٨)	ازداد التمايز بين الكتل الدَّاخلية والخارجيَّة بشكلٍ موازٍ مع ازدياد المشروع الإسلاميِّ في التوسُّع؛ حيث ازدادت الكتل المناوئة للمشروع الإسلاميِّ ما بين معسكر قريش واليهود والمنافقين إلى الروم والفرس والحبشة والغساسنة، كما وظهرت كتلٌ أخرى جديدة عملت على قلب الموازين تمثَّلتْ بالمنشقِّينَ في حرب العصابات مع قريش، وكتلة الحلفاء من بني بكر وخزاعة.
المرحلة المدنيَّة الثالثة (٨-١٠)	تعتبرُ هذه المرحلة من أكثر المراحل تعقيداً من حيث الكتل الدَّاخلية والخارجية، ففيها خطرٌ في الداخل عبر صورة متقدِّمة من النِّفاق، وظهور أدعياءِ النُّبوة وأتباعهم، ومعسكر النفاق اتَّسع وكَبُرَ، ومعسكر الكفر ظهر في تنوُّعٍ واسعٍ في أنواع الأعداء.

مراحل السيرة النبوية	علم النفس السياسي
المرحلة المكيَّة الأولى (١-٣)	كان الخطاب في هذه المرحلة خاصَّاً ونوعيَّاً بعيداً عن الخطاب العام الجماهيري؛ حيث اقتصر على انتقاء المقرَّبين وتجنيدهم تحت لواء الدَّعوة، مُعتمداً على السريَّة والكتمان، مع الاكتفاء بعدم المواجهة مطلقاً.
المرحلة المكيَّة الثانية (٣-١٠)	تعدَّدت سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الكتل المختلفة وبشكلٍ متفاوت؛ حيث كانت سياسته مع قريش هي الصَّبر والتحمُّل على الإيذاء، ومع النجاشي طلب النُّصرة والإيواء، ومع أبي طالب وحزبه العمل على الاستفادة من العُرف القبلي والعشائري في خدمة الدَّعوة، ومع كُتَّاب الصحيفة في عدم مواجهتهم، ومع ممزِّقيها تعزيزهم والاستفادة من دورهم على كفرهم.
المرحلةالمكيَّة الثالثة (١٠-١٣)	حرص النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة على توسيع نطاق دعوته بعد معاندة قريش للدَّعوة، حيث كانت الدَّعوة في هذه المرحلة تركِّزُ على الكتل أكثر من الأفراد، مع الحفاظ على دائرة المواجهة السِّلميَّة، وتقديم الإسلام ومشروعه السياسي المستقل، مع الثبات التام على كمالات هذا الدين وقبول النصرة على أن تكون غير مشروطة.
المرحلة المدنيَّة الأولى (١-٥)	اتبع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة سياسة المواجهة والقتال المباشر مع الكتل المناوئة للمشروع الإسلامي ضمن استراتيجية الدِّفاع، ومحاولة تحييدِ ما يمكن تحييدُهُ من الكتل المشركة الأخرى.

المرحلة المدنيَّة الثانية (٥-٨)	كان الخطاب في هذه المرحلة توسُّعيًا ومُتقدِّماً لتحقيق توازن الرُّعب وتقديم المشروع الإسلامي كقوَّةٍ إقليميَّةٍ مستقلَّة، مع القضاء بشكلٍ كاملٍ على أيِّ خطرٍ من الممكن أن يهدِّد المشروع الإسلاميَّ، كما وعمل النبي صلى الله عليه وسلم على إرسال الرسائل للوفود والعالم الخارجيِّ في إطار توسعة رقعة الدَّولة.
المرحلة المدنيَّة الثالثة (٨-١٠)	كان مستوى الخطاب في هذه المرحلة أعلى من أيَّة مرحلة سابقة، ليست المواجهة المفتوحة وحسب؛ بل رفض قاعدة الشراكة إلا على قاعدة الإسلام في بعض المناطق، وكانت سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة قائمة على تصفية جميع المشركين من الجزيرة العربية، وعقد وتأمين العهود والمواثيق التي تحفظ الدَّولة الإسلاميَّة، وفضح وكشف المنافقين في المدينة.

وهذا الجدول البسيط للمحاور السياسيَّة الخمسة في مراحل السيرة النبويَّة الست ما هو إلا إشارات ومفاتيح وعناوين كليَّة ورئيسيَّة، وإلا فإنَّ لهذا المبحث جهدٌ بحثيٌّ خاصٌّ في مشروع دراسة المنهج السياسيِّ في السيرة النبويَّة إنْ شاء الله تعالى.

المبحث الثالث:
موقع السيرة النبوية في الاستنباط السياسي

حتى يتم العمل للإفادة من السيرة النبوية في الاستنباط السياسي، ونقترب بالأمر من المنحى العملي، ونقدم النموذج التطبيقي لهذه الدَّعوة لعملية الإفادة من واقع السيرة والسنة فإنَّنا نقترح القيام بالخطوات الآتية:

أولا: النَّظر إلى السيرة النبوية على أنها مرجعية شاملة، وتقسيمها إلى مراحل سياسية، حسب طبيعة معطياتها.

ثانيا: النظر في هذه المراحل واستخراج الخصائص العامَّة لكل منها في كلِّ محور من محاور العمل السياسي، ونجملها هنا بما يأتي:

- إدارة وضبط العلاقة بين القيادة السياسية والقاعدة الشعبية من حيث الحقوق والواجبات، وما يتعلق بشكل الحكم ومتعلقاته في عمل الكتلة المسلمة أو الدولة، وآليات الرقابة عليه.

وقد أسميناه: بنظام الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم.

- منظومة تحقيق الغايات الكبرى للمشروع الإسلامي التي يبحث فيها عن النظر في الاستراتيجيات والمنهجيات والأدوات المستخدمة للمواجهة في كلِّ مرحلة، وتغيُّر هذه الأدوات بتغير المرحلة.

وقد أسميناه: بمنظومة الدَّعوة والمواجهة.

◆ أولويات إدارة المال في كل مرحلة من مراحل المشروع من حيث:

أولاً: الكسب.

ثانياً: الإنفاق.

ثالثاً: الرقابة.

وقد أسميناه: بعلم الاقتصاد السياسي.

◆ تصنيف الكتل التي يتعامل معها المشروع، ويمكن تقسيمها مبدئياً إلى:

أولاً: كتل داخل المشروع.

ثانياً: كتل محيطة بالمشروع.

وقد أسميناه: بعلم الاجتماع السياسي.

◆ دراسة طبيعة الخطاب والسلوك الموجه لهذه الكتل، وتغيُّر هذا الخطاب بتغيُّر حالة المشروع.

وقد أسميناه: بعلم النفس السياسي.

ثالثاً: النَّظر إلى الواقع الذي تحياه الدَّعوة المعاصرة، واستخراج خصائصه العامَّة في المحاور الخمسة المبيَّنة للعملية السياسية، ورصد هذه الخصائص بدقة وتؤدة.

رابعاً: بعدما تمَّ استخراج خصائص الواقع ينبغي أنْ يقوم الباحث برصد المقاربات بين خصائص الواقع المُعاش الذي تواجهه الدَّعوة وما يناسبها ويشابهها -في الخصائص العامَّة بطبيعة الحال- من مراحل السيرة النبويَّة.

خامساً: قد أشرنا من قبل إلى ضرورة النظر فيما نزل من الآيات في كلِّ مرحلة من مراحل السيرة، لتحليل التوجيه والخطاب الرباني للجماعة المسلمة في حينه بما يتناسب مع خصائص المرحلة، ويتحرَّى كذلك أن يصنف ذلك على حسب المحاور الخمسة للعملية السياسية.

وقد يتساءل بعضهم حول إمكانيَّة تصنيف الآيات على حسب المراحل في السيرة، هل يمكن ذلك؟

والجواب: أنَّ ثمة عدد من المحاولات لترتيب القرآن حسب النزول، ولا تخلو إحداها من تكلُّف ومجازفة، لكننا لا نقصد إلى ذلك في هذا المشروع؛ وإنما نقصد إلى التصنيف العام لنزول عموم الآيات ضمن مراحل السيرة، إذ نحسب أنَّ معرفة جل ما نزل قبل الدعوة الجهريَّة ممكن إلى حدٍّ معقول، وكذلك معرفة جل ما نزل بعد فتح مكَّة إلى آخر عهد النبوَّة مثلاً، ولا يعنينا في هذا المقام ضبط كل آية من الآيات، ولا ضبط وقت نزولها على سبيل التحديد والتدقيق، وتقسيم نزول الآيات إلى مكي ومدني لا يكفي وحده لتنزيل الآيات على الواقع كما أشرنا إلى ذلك سابقا، لأن معظم الأحداث المهمة والانتقالية من مرحلة إلى مرحلة كان لها خطاب وتوجيه قرآني خاص بها،

حتى في ظل اشتراكها في المكيَّة أو المدنيَّة.

سادساً: بعد جمع كلِّ هذا ينظر الباحث ويقارب، ليحدد أين يقع من مراحل السيرة النبوية ليستخرج منها الاستراتيجيات والمنهجيات في المحاور الخمسة.

وبهذا البيان اتضح كيف تقررت المرجعيَّة للكتاب والسنة على هذا الوجه، واتَّضح السبيل إلى النَّظر وفق هذا النظريَّة المقترحة.

المبحث الرابع:
الأفعال النبوية السياسية.

لنا هنا وقفة:

هل نستطيع الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل أفعاله السياسيَّة! ألم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم خصوصيَّة في منهجيَّة القيادة كونه نبي عُيِّن كقائد بخبر السماء؟ وحكمه مؤيَّد بالوحي؟ كيف نستدلُّ من السيرة على ما تحتاجه الأمَّة لإدارة علاقتها مع القيادة واضعين في حسباننا خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم ؟

«إِنَّ الطُّرُقَ الَّتِي مِنْهَا تُلُقِّيَتِ الْأَحْكَامُ عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – بِالْجِنْسِ ثَلَاثَةٌ: إِمَّا لَفْظٌ، وَإِمَّا فِعْلٌ، وَإِمَّا إِقْرَارٌ»[1].

ولعلماء الأصول تفصيلٌ في أفعال النبي صلى الله عليه وسلم من حيث كونه مشرعاً أو قائداً أو كان فعله مبنياً على الجبلة أو على أمر دنيوي أو على خصوصية ثبتت له، فنقول باختصار شديد:

أفعال النبي صلى الله عليه وسلم إن كانت مبنيَّةً على الجبلة والعادة فهي على نوعين:

الأول: إمَّا أن تكون لها صلة بالعبادة، وإمَّا أن لا تكون لها به صلة.

فإنْ كانت مما ليست لها صلة بالعبادة، ففعله حينئذٍ يدلُّ على الإباحة ولا أسوة فيه، فمن شاء فعل ومن شاء ترك، وإن كان له صلة بالعبادة فالقول فيه بالنَّدب على خلاف.

وأما أفعال النبي صلى الله عليه وسلم التي ثبتت خصوصيَّته فيها والتي لا يُشاركه فيها أحد، فلا يدلُّ ذلك على المشاركة بيننا وبينه فيه إجماعاً، فإمَّا إن كان عُرف فعله بياناً لنا أو بقرائن الأحوال فهو دليلٌ لنا، لكن هنا تنبيه لطيف ذكره الإمام الآمدي –رحمه الله– لبيان نُدرة الأفعال التي ثبتت فيه خصوصيَّة النبي –صلى الله عليه وسلم– فيها فيقول: (**وأمَّا بالنسبة لأمَّته؛ فلأنَّه وإن كان صلى الله عليه وسلم قد اختصَّ عنهم بخصائص لا يشاركونه غير أنها نادرة، بل أندر من النادر بالنسبة إلى الأحكام المشترك فيها، وعند ذلك، فما من واحد من آحاد الأفعال إلا**

---

(1) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١/ ٩، ابن رشد القرطبي الحفيد، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

واحتمال مشاركة الأمَّة للنبي صلى الله عليه وسلم فيه أغلب من احتمال عدم المشاركة إدراجاً للنادر تحت الأعم الأغلب فكانت المشاركة أظهر)[1].

وأمَّا القول في أفعاله الدَّنيوية التي ليس لها مُتعلَّقٌ بأمر تشريعي والتي يكون الغرض منها تحصيلٌ نفع في البدن أو المال له أو لغيره، أو دفع ضرر كذلك، أو دبَّر تدبيراً فيً شأنه خاصَّة أو شؤون المسلمين عامَّة، لغرض التوصل إلى جلب نفعٍ أو دفع ضر فاختلف فيها على قولين:

الأول:أنَّه صلى الله عليه وسلم معصومٌ من خطأ الاعتقاد في أمور الدنيا، بل كل ما يعتقده في ذلك فهو مطابق للواقع، وهذا ما نعتقده ونقر به.

والثاني: أنَّه لا يلزم أنْ يكون اعتقاده في أمور الدنيا مطابقاً للواقع، بل قد يقع الخطأ في ذلك الاعتقاد قليلاً أو كثيراً، بل قد يصيب غيره حيث يخطئ هو صلى الله عليه وسلم، وهذا مما لا نقر به ونعتقد أنه مناف لمقتضى النبوة والرسالة في حقه صلى الله عليه وسلم.

فأمَّا إذا انضمَّ إلى الفعل الدنيوي قولٌ آمرٌ، **فذلك يخرجه من باب الأفعال**،، وويعود النَّظر إلى الدَّليل القولي، فإنْ أمرٌ فوجوب أو ندب، وإنْ نهيٌ فحرام أو مكروه،،**أمَّا إذا تردَّد الفعل بين أن يكون دنيوياً أو دينياً، حُمل على الدينيّ**؛ لأنَّه الأكثر من أفعاله صلى الله عليه وسلم، **والعبرة للأعمِّ الأغلب وهو الدينيّ هنا.**

وأمَّا القول في أفعاله التشريعيَّة، فلا خلاف في كونها دليلاً للأمَّة.

يبقى أن نقول الآن: أفعال النبي صلى الله عليه وسلم السياسيَّة تحت أي نوعٍ من الأفعال تندرج؟

فنقولُ: أنَّ الفعل السياسيَّ فعلٌ دنيويٌ في أصله، لكن حينما اقترن هذا الفعل السياسيُّ بتصرف أو قول صدر من النبي صلى الله عليه وسلم لغرض ديني، حُمِلَ هذا الفعل على أنَّه تشريعٌ لأمَّته، ولا يقال بأنَّ هذا الفعل مخصوصٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم كونه قائداً موحىً إليه؛ **لأنَّ ثبوت الخصوصيَّة لا بدَّ له من دليل**، بل الصواب أن يُقال أنَّه فعلٌ عام لأمته لارتباطه بغرض ديني، **وفعله السياسيُّ هنا متردِّدٌ بين كونه فعلاً دينياً وفعلاً دنيوياً**، وكما قلنا من قبل أنَّنا نحمله على الأعمِّ الأغلب وهو أنَّه فعلٌ ديني، لكي تحصل الفائدة من أفعال النبي صلى الله عليه وسلم لأمَّته، ولا تكون لمجرد الحكاية والرواية فقط لا غير!

قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: « فَالْفِعْلُ مِنْهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَلِيلٌ عَلَى مُطْلَقِ الْإِذْنِ فِيهِ مَا لَمْ يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى غَيْرِهِ؛ مِنْ قَوْلٍ، أَوْ قَرِينَةِ حَالٍ، أَوْ غَيْرِهِمَا، وَالْكَلَامُ هَنَا مَذْكُورٌ فِي الْأُصُولِ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَخُصُّ هَذَا الْمَوْضِعَ أَنَّ الْفِعْلَ مِنْهُ أَبْلَغُ فِي بَابِ التَّأَسِّي وَالِامْتِثَالِ مِنَ الْقَوْلِ الْمُجَرَّدِ»[2].

والفعل السياسيُّ ينقسم كما أسلفنا سابقاً إلى خمسة محاور، **وجميع هذه المحاور أفعال دنيوية في أصلها، لكنَّها**

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٧٥، أبو الحسن الآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي-بيروت-دمشق-لبنان، دون تاريخ.

(٢) الموافقات ٤/ ٤٢٠، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

صارت دينيَّة باعتبار الشارع لها وهو النبي صلى الله عليه وسلم،وإلا فلا فائدة منها إلا أنْ تكون سرداً لقصَّة تاريخيَّة قضت ومضت، أو حكاية لقصة نجاح لا يمكن أن تستنسخ مرَّة أخرى!

إن أفعال النبي صلى الله عليه وسلم السياسية جزء أصيل في رسم حركة الكتلة المسلمة، ففيها ندرك الأعداء، ونوالي من يستحق المحبة والولاء، وعليها تحقن الدماء وتسال، ومن خلال بنائها تستقر الأمة فتقيم شرعها أو تطرب فيختل أمرها، والعجيب أن نقول أن أفعاله المتعلقة في مسائل فقهية جزئية حجة لنا ومن ثم لا بد لنا أن نقتفيها ونقتدي بها، ثم نقول أن أفعاله في سياسة الأمة وحفظ المسلمين ورسم طريق التمكين لا تكون حجة لنا !

لذلك جاء القرآن الكريم ليرصد ويقيم ويوجه أفعال النبي صلى الله عليه وسلم السياسية بالإجمال حيناً والتفصيل أحياناً، فإذا كانت أفعاله السياسية -صلوات ربي وسلامه عليه- ليست تشريعاً لنا فلماذا يخلدها القرآن الكريم؟!

ثم يأتي عتاب الله -عز وجل- لنبيه الكريم في بعض الأفعال السياسية التي يعتقد أنها ليست تشريعاً لنا مثل فداء أسرى بدر أو قتلهم، والصلاة في مسجد الضرار، والصلاة على المنافقين، فإذا كانت هذه الأفعال مقصدها المصلحة الخاصة فلماذا العتاب طالما أنها مصلحة آنية خاصة يصح فيها الاجتهاد؟!

إن النظر في هذه الأفعال على أن محركها المصلحة الخاصة للنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة الكرام هي نظرة قاصرة جزئية من حيث اعتبارها مصلحة خاصة، لكنها صحيحة كون أنها من المصلحة العامة والمتعدية، لأن الفعل السياسي لا بد أن يراعي من يمثلهم من حيث الإمكانيات وما ينبني على الفعل من نتائج فلا بد أن تكون المصلحة مراعاة ومقصودة، لكن هذه المصلحة تمثل طبيعة حركة الكتلة، لذلك هي مصلحة متصلة بطبيعة حركة الكتلة وما ينبني عليها من مصلحة في مرحلتها، أي أن هذه المصلحة المتحققة من فعل النبي صلى الله علية وسلم في المرحلة المحددة ستكون مصلحة للكتلة المسلمة إذا كانت في نفس المرحلة، وبذلك يكون محرك الفعل المصلحة لكنها ليست مصلحة قاصرة خاصة بل هي مصلحة عامة متعدية متجددة مع حركة كل كتلة مسلمة.

والمتأمل في مهمة النبي صلى الله عليه وسلم الموكلة إليه من الله من التبليغ قال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (المائدة ٩٩)، والتعليم والتزكية قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٥١)، والحكم والقضاء قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء ٦٥)، وقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء ١٠٥)، يجدها كلها تقتضي شمولية أفعاله صلى الله عليه وسلم وصلاحيتها للتطبيق في الحياة السياسية كما هي في المحاور التشريعية الأخرى لأن هذه المهام ليست مهاماً خاصة للصحابة بل هي للمسلمين جميعاً.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم حياً بيننا وقد أبلغنا الله تعالى ذلك فقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ

﴿وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ (الحجرات ٧)، وقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران ١٠١)، ومقتضى الحياة أن يكون بيننا كما كان بين الصحابة الكرام يقضي ويحكم ويربي ويوجه ويبلغ، ولو كان بيننا الآن -صلوات ربي وسلامه عليه- فإنه لن يفعل ولن يقدم لنا إلا ما قدم في حياته الأولى ولو كان هناك ما يضيفه أو يزيده لما لمات لأنه يلزم منه القول بأن رسالته ناقصة حاشاه صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (المائدة ٣)، فكونه حياً بعد موت فإذن أفعاله شاملة كاملة صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

لكن قد يقول قائل لنا: إن السياسة عنصر متغير غير مستقر تختلف أدواته باختلاف المراحل، ولذلك فما كان يصلح في الزمان الأول فلا يصلح لنا اليوم لما يقتضيه اختلاف الزمان والمكان من تغيير وتبديل !

فنقول: إن العملية السياسة من حيث التنفيذ تنقسم إلى ثلاث محاور وهي: الاستراتجيات ونقصد بها: الخطوط العامة والكلية لتحقيق الأهداف المرسومة على المستوى الكلي للمشروع، والمنهجيات ونقصد بها: طرق وخطوات تطبيق الاستراتيجية بنظام تفصيلي ثابت، والأدوات ونقصد بها: الطرق التي تستخدم لتحقيق الاستراتيجيات الكلية والمنهجيات التطبيقية بما يتناسب والإمكانيات المتوفرة والقادرة على تحقيق الاستراتيجيات في ظروف المرحلة.

ولذلك نقول أننا لو درسنا أفعال النبي صلى الله عليه وسلم السياسية وقسمنها حسب المراحل الستة إلى استراتجيات عامة تبني المرحلة، ومنهجيات عملية ترسم معالم الحركة، وأدوات مستخدمة للتطبيق، فإننا سنجد أننا نستطيع أن نرسم واقعنا من خلال استراتجيات ومنهجيات النبي صلى الله عليه وسلم التي رسمها لكل مرحلة، ولكننا مع الأدوات في حل من أمرنا نستخدم منها ما يحقق أهدافنا المستخلصة من ثقافة واقعنا المعاش، ولهذا قال الله تعالى لنا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال ٦٠)

، فالإعداد يكون على مستوى الاستطاعة، وهذا كله دائر في فلك الأدوات التي يتسع فيها المجال للإبداع والابتكار.

لكن السؤال الآخر هل من الممكن لمرحلة مدتها ثلاث وعشرين عاماً أن ترسم للبشرية حركتها وما تحتاج إليه في بنائها السياسي على اختلاف مراحلها وثقافتها وبنيتها وتعقيداتها؟!

فنقول:

اكتشف علماء النفس أن البشر كلهم على اختلاف أشكالهم ومنابتهم ولغاتهم، وكثرة التعقيدات في العلاقة فيما بينهم، نستطيع أن نردهم جميعهم إلى مجموعة من الأنماط الكلية التي لن يخرج عنها كل البشر، مع أن أعداد البشر أكبر بكثير في أن تحصر في مجموعة من الأنماط الشخصية !

كما أن الطاقة في هذا الكون على اختلاف أشكالها وتقلباتها ثابتة لا تزيد ولا تنقص: (فالطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ولكن يمكن تحويلها من صورة لأخرى)، لذلك فإن كمية الطاقة الكلية في النظام المغلق لا تتغير.

كما أن كمية الماء في الأرض ثابتة مع اختلاف أشكالها وحركات تقلبها.

كما أن المتأمل في قصة الانفجار العظيم الذي ذكره الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٠)، يرى أن حال السماوات والأرض ستعود لما كانت عليه فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء ١٠٤).

كما أن الله خلق الأرض والسماء وقدر فيها أقواتها فكل شيء فيها بقدر معلوم بحركة منضبطة، فالبشر على اختلاف تعقيداتهم سلمنا بأنهم محصورون في أنماط معينة لا يتعدونها، والطاقة على اختلاف أشكالها ثابتة، والماء على سعة حركته وكثره تقلبه ثابت لا يزيد ولا ينقص، فأين العجب والغرابة أن تكون السيرة النبوية بمراحلها الست تمثل المسار التطبيقي الشمولي لحركة الكتلة المسلمة من شدة الاستضعاف إلى قمة التمكين والاستخلاف؟!

لكننا وفي هذا المقام لا ننفي الخصوصية التامة لوجود النبي صلى الله عليه وسلم في السيرة النبوية لأن هناك أفعالاً سياسيَّة لا يمكن أن توجد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم خصوصيَّة له مع أهميَّة هذه الأفعال السياسيَّة، من مثل تداول السلطة والحكم، ومعالجة البغي والخروج على الدَّولة، فكيف يمكن معالجتها هنا؟

فنقول: إنَّ السيرة النبويَّة تطبيق سياسيّ شامل لكلِّ مراحل الدَّعوة من الاستضعاف إلى الاستخلاف، قادها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، والأصل أن يُقال إنَّه ما من فعلٍ سياسيٍّ إلا ويمكن أن يُستنبط من السنة والسيرة النبويَّة، لكنَّ هناك أفعالاً من جوهر العمليَّة السياسيَّة لم يصح أن تكون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، لكنْ تمَّت الإشارة إليها فقط، مثل آلية تداول السُّلطة وهي من صميم العملية السياسية، وهنا يُقال: أنَّ مثل هذه الأفعال يتمُّ التعامل معها على شقَّين:

الأوَّل: النَّظر إلى أصل هذا الفعل السياسي من السيرة النبوية، ومحاولة العثور على ما يشير إليه.

الثاني: استنباط هذا الفعل السياسي من مرحلة الخلافة الراشدة وذلك باعتبار أن هذه المرحلة التجربة البشرية التطبيقيَّة المحضة للمشروع السياسي الإسلامي.

وهنا تُعالَج نقطة الأفعال السياسية التي هي من صميم المشروع الإسلامي السياسي التي لا يصح أن تكون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لخصوصيَّته.

ومعنى ذلك أنَّنا بحاجة لمرحلة أخرى تكون بمثابة مرجعيَّة تتشكَّل فيها مجموعة من القضايا السياسيَّة، ما كان لمرحلة السيرة النبوية أن تعالجها، وذلك لخصوصية النبي صلى الله عليه وسلم، مثل مشهد البغي: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات ٩).

فليس لمثل هذا المشهد أن يتحقَّق في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنَّ الخروج على النبي صلى الله عليه وسلم ليس بغياً إنما هو كفر، ولأهمية هذا الحدث، لا بدَّ له من تطبيق لاستكمال أحكامه، فاقتُضِيَ إضافة مرحلة مرجعيَّة أخرى تعالج مسألة البغي مع مراعاة خصوصيَّة النبي صلى الله عليه وسلم، مع بقاء استمدادها من مشكاة النبوة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فإنَّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كل مُحدثة بدعة، وإنَّ كل بدعة ضلالة»[1].

وكذلك الأمر في تداول الحكم، الذي ما كان ليحصل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، بالرَّغم من ضرورة حصول هذا المشهد، حتى ندرك حقَّ الأمَّة في اختيارها وواجبها في البيعة.

وكذلك ما يخصُّ أهل الانحراف المنهجي كالخوارج وأدوات التصدي لهم، لا يمكن أن يكون إلا في منهجيَّة قابلة للتطبيق، مختلفة عن مرحلة النبوة ومتصلة بها أيضاً.

لذلك كان ظهور الخوارج ومواجهتهم جزءاً من مرحلة الخلافة الراشدة، والتي تتناسب مع وظيفتها كمرجعيَّة سياسيَّة.

ولكن بقي الكلام في مرحلة الخلفاء الراشدين، ففيها بقيَّة مهمَّة يجب التنبه لها، ونتركُ الكلام فيها إلى الجزء الخاصِّ بها.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (١٧١٤٤) ٢٨/ ٣٧٣.

الفصل الحادي عشر

الخلافة الراشدة وأدلة كونها مرجعية



الخلافة الرَّاشدة هي الخلافة التالية لعهد النبوَّة، وقد حدَّدها النبي صلى الله عليه وسلم بالثلاثين سنَّة التالية لعهده، فقد جاء في الحديث: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»[1]، وفي رواية: «خلافة النبوَّة ثلاثون سنة، ثمَّ يُؤتي الله من يشاء، أو قال ملكه من يشاء»، قال سعيد راوي الحديث عن سفينة: «أَمْسَكَ أبو بكر سنتين، وعمر عشراً، وعثمان ثنتي عشرة، وعليٌّ ستاً»[2].

وقال أهل التحقيق: إنَّ كل بيعة عقدت في المدينة النبويَّة هي خلافة نبوة، وقد كانت آخر بيعة عقدت في المدينة بيعة علي رضي الله عنه، وقيل: إنَّ الثلاثين سنةً لا تكمل إلا بخلافة الحسن، وهي نصف سنة تقريباً.

ويُعدُّ عصر الخلفاء الرَّاشدين المهديين النموذج البشريُّ الخالص للمشروع السياسي في الإسلام، إذ إنَّ عصر النبوة، وإن كان تنفيذاً بشرياً للمشروع إلا أنَّه تنفيذٌ مؤيَّد بالوحي، يحوطه الوحي خطوة خطوة: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان ٣٣)، فالتجربة التنفيذيَّة الأولى للمشروع السياسي الإسلامي كانت في عهد الخلفاء الراشدين، ذلك العهد الذي أشارت الأحاديث المذكورة إلى اعتباره عهداً واحداً ومرحلة متكاملة.

«لا خلاف بين الأئمة وسلف الأمة، أن خلافة النبوة ثلاثون سنة، وأن الأربعة الخلفاء الذين بايعهم الصحابة في المدينة النبوية أئمة هدى يجب الاقتداء بهم فيما سنوه من سنن توافقوا عليها ولم يختلفوا فيها، فقد كان الخلفاء الأربعة المهديون، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، من جيل كبار الصحابة، ومدة خلافتهم ثلاثون سنة، وهي خلافة النبوة، والخلافة الراشدة، التي ورد فيها النص، وكل من تشبه وسار على سننهم في باب الإمامة، وكان اختياره عن رضا الأمة وشوراها، فهو خليفة راشد، قياساً عليهم، بل هو خليفة راشد بنص الشارع كما في حديث: (ثم تكون خلافة على نهج النبوة ثم تكون ملكاً عضوضاً ثم جبرياً ثم تعود خلافة على نهج النبوة)»[3].

وهذا العهد لم تكن له هذه الصفة فحسب، بل يمكن الذهاب إلى أنَّه عهد استُكمل فيه المشروع السياسي في جوانب لا يمكن وجودها في العصر النبوي، كالخلاف السياسي مثلاً، فما وقع بين الصحابة من خلاف ما كان يمكن أن يحصل في العهد النبوي لِمَا يقتضيه حضور النبي صلى الله عليه وسلم بينهم، ولما يقتضيه الإيمان برسالته ووجوب طاعته.

وكتداول السلطة وعملية انتقال الحكم، التي لم يُمكن أنْ تتمثَّل بهذا الشكل في العهد النبوي، مثلُ هذا اقتضى وجود عهدٍ تحصلُ فيه هذه القضايا، وتعالج فيه هذه المشكلات البشريَّة، ثمَّ يكون لهذا العهد صفة المرجعيَّة والاقتداء والتأسي.

وقد عمدنا إلى تنزيل الخلافة الرَّاشدة للاستدلال والاستشهاد في حيِّز التطبيق ضمن قيود ثلاث وهي: قيد التوجيه النبوي، وقيد الاختصاص، وقيد الإجماع السياسي.

---

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان حديث رقم (٦٩٤٣) ١٥/ ٣٩٢، محمد بن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

(٢) المعجم الكبير حديث رقم (٦٤٤٤) ٧/ ٨٤، الطبراني، تحقيق: حموي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية-القاهرة، الطبعة الثانية، دون تاريخ.

(٣) تحرير الإنسان وتجريد الطغيان ٢٦٢، د.حاكم المطيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

المبحث الأول:
قيد التوجيه النبوي

ونقصد بهذا القيد هو التوجيهات النبويَّة في السُّنة حول وجوب اتباع سيرة الخلفاء الراشدين المهديين في متعلَّقات وأجزاء العمليَّة السياسيَّة.

والدَّليل على وجوب الاقتداء بسنن هذا العهد الراشدي: الحديث المشهور الصحيح الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم فيه بالاقتداء باتفاقات الخلفاء وعدم الخروج عنها إلى غيرها، واعتبار ما خرج عن ذلك من السُّنن والسياسات بدعاً وضلالات: «فإنَّه من يعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضواً عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثةٍ بدعة، وإن كلَّ بدعة ضلالة»[1].

ونستخلص من هذا الحديث أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا باتباع الخلفاء الراشدين بما يخصُّ منهجهم السياسي بوصفهم خلفاء، وهذا ما اعتبرناه قيد من قيود تنزيل الخلافة الراشدة وهو: **(قيد التوجيه النبوي)**.

المبحث الثاني:
قيد الاختصاص

ونعني بهذا القيد أنَّ كلَّ خليفة من الخلفاء الراشدين كان يُجسِّد مهمَّة في مرحلته عالجت بعض المحاور المتعلِّقة باستكمال العمليَّة السياسيَّة، بحيث اكتملت فيها هذه المهمَّة وصارت الأساس الذي يبنى عليه بالنَّظر إلى مجموع مراحل الخلافة الراشدة.

إنَّ لخلافة الشيخين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- من الخصوصيَّة في العهد ما ليست لغيرهما، فقد وردت أحاديث خاصَّة بهما تأمر باتباعهما والاقتداء بهما، ومنها:

حديث: «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»[2].

وحديث: «إني لا أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذَين من بعدي وأشار إلى أبي بكر وعمر»[3].

كما أنَّ عصرهما كان عصر اجتماع وألفة، فكان كبار الصحابة متوافرين في المدينة ولم تحدث آنذاك فرقة ولا

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (١٧١٤٤) ٢٨/ ٣٧٣، أبو عبدالله أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد، إشراف: د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(٢) ورد في سياق حديث طويل في صحيح مسلم رقم (٦٨١) ١/ ٤٧٢، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، دون تاريخ.

(٣) رواه الترمذي حديث رقم (٣٦٦٣) ٦/ ٥١، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ١٩٩٨م.

اختلاف ولا فتنة، ولهذا صار عصرهما يمثِّل النموذج الكامل، حتى إنَّ الصحابة لم يبايعوا عثمان-رضي الله عنه- إلا على شرط الالتزام والعمل بسنَّة الشيخين، فكانت سننهما من باب الإمامة واجبة الاتباع بالنصِّ والإجماع، فإذا كانت هنالك سنَّة في باب الإمامة تقرَّرت في عهدهما وخالفتها سنة في عهد من بعدهما، كانت سنتهما أولى بالاتباع من سنَّة غيرهما.

والمتأمِّل سيجد أنَّ الخلافة قد مرَّت بمرحلتين: مرحلة الشيخين، ومرحلة الصِّهرين، وخلافة الحسن كانت هي الخاتمة لهذه المرحلة الراشدة، وإنْ كان العلماء يقولون بأنَّ اتباع منهج أبي بكرٍ وعمر أولى بالاقتداء إلا أنَّنا لا نرى خلافاً معهم، فقد جسَّدت مرحلة الخلافة دورة حياة كاملة لمشروع إسلامي بشري كامل.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، هؤلاء أئمة العدل/ ما أعطوا فعطيتهم جائزة، ولقد بلغ من عدل علي رحمه الله أنه قسم الرمان والأبزار»[1].

هو مشهدٌ من نور التنزيل والنبوة تكاملت فيه أركانه من الخلفاء الراشدين بالرشد والاتباع بما تقتضيه مصلحة الأمَّة حسب المرحلة، وإنْ فُهم أنَّ مرحلة أبي بكر وعمر أفضل لأنَّها جسَّدت مرحلة الصعود والاستقرار، إلا أنَّه بالنَّظر إليهم بكونهم مرجعيَّة، قد يتشابه الفضل والأهميَّة بحسب المهمَّة، ولا يلغي هذا فوارق الأفضلية والمكانة، ويكون النظر إلى هذه المرحلة بأنها تمثِّل دورةً كاملة ترسم مشهداً مفصَّلاً للأمَّة بين مراحل الصُّعود والهبوط لتكتمل الأحكام وأوليات التطبيق حسب احتياج الأمَّة وقدرتها على الصعود إلى مراحل التمكين والاستخلاف.

وبهذا تكون السوابق التشريعية الاجتهادية في عهد الشيخين خاصَّة في باب الإمامة أقوى حجيَّة من غيرها؛ لكونها تقرَّرت حال الجماعة والشورى، قبل الفتنة والخلاف، ولهذا اشترط الصحابة كما في الصحيحين على عثمان رضي الله عنه وبايعوه على سنَّة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار والأمراء والأجناد والمسلمون، وإنَّما اشترطوا عليه ذلك لأنَّ سنن الشيخين كانت عن شورى الصحابة وإجماعهم، وما يتعلق من أحكام البغي وإدارة النِّزاعات الداخلية بين جماعة المسلمين فمرجعه خلافة علي رضي الله عنه، وكذلك مواجهة أهل الانحراف الفكري كمثل الخوارج، وهذا ما جعلناه أحد قيود التنزيل في الخلافة الراشدة (قيد الاختصاص) أيْ أنَّ كلَّ خليفة كان يجسِّد مرحلةً بمجموعة من المهام نستكمل بها تطبيق أحكام الشريعة السياسيَّة بنموذجٍ عمليٍّ بحيث تكون مرحلته بمهمَّته صاحبة الأفضليَّة في توضيح الأحكام المتعلِّقة بها.

ونقدِّم جدولاً توضيحياً يبيِّن الاختصاص والمهمة التي عالجها كل خليفة:

---

(١) السنة ٢/٤١٨، أبو بكر الخلال الحنبلي، تحقيق: د.عطية الزهراني، دار الراية الرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ، ١٩٩٨م.

قيد الاختصاص:		
الخليفة	الاختصاص	الشواهد
أبو بكر الصديق رضي الله عنه	الحفاظ على كمال التشريع في ظلِّ التهديدات الخارجيَّة.	قتال مانعي الزكاة، وبعث أسامة في حروب الردَّة.
عمر بن الخطاب رضي الله عنه	بناء نموذج الدَّولة المتكاملة في سياستها الدَّاخلية والخارجيَّة.	بناء مؤسسات الدَّولة، وتحقيق حالة الاستقرار الدَّاخلي، واتساع رقعة الفتوحات.
عثمان بن عفان رضي الله عنه	إدارة الدَّولة في حالة الاستقرار والرَّخاء باستراتيجية اللين والسِّلم، وإدارة الدَّولة في حالة المعارضة السياسيَّة والثورة الشعبيَّة السلميَّة.	زيادة مستوى الرَّخاء المالي، وبروز التيارات المسيطرة في داخل نظام الحكم، وبروز تيارات معارضة للحكم.
علي بن أبي طالب رضي الله عنه	إدارة الدَّولة في أعلى مستوى تهديدٍ داخلي.	مواجهة البغي وقتال الخوارج.
الحسن بن علي رضي الله عنه	تحقيق الصُّلح بين المسلمين.	التنازل عن الحكم لصالح معاوية (عام الجماعة).

المبحث الثالث:

قيد الإجماع السياسي.

تكلَّم الأصوليون في مسألة الاحتجاج بما اتفق عليه الخلفاء الأربعة، هل هو حجَّة لا يجوز مخالفتها؟ فذهب الجمهور إلى أنَّه ليس حجة إذا خالفهم غيرهم، وقال الإمام أحمد والقاضي أبو خازم من الحنفية: إنَّه حجة وإنْ وُجد المخالف، «واستدلَّا على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنَّواجذ»، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباع سنَّتهم كما أمر باتباع سنَّته، واتباع سنَّته واجبٌ فاتباع سنَّتهم كذلك، فيكون إجماعهم حجَّة، ولذلك فقد قوَّاه أبو حامد في الرونق وجعله أصحَّ قولي الشافعي، واستحسنه الزركشي الشافعي في البحر المحيط.

وأجاب الجمهور عن ذلك بأنَّ المراد من الحديث أنَّ الخلفاء الأربعة أهلٌ لاقتداء الغير بهم إذا كان من أهل التقليد، وليس المراد به جعل إجماعهم حجَّة بحيث يجب على المجتهد اتباع قولهم وإنْ خالف ما غلب على ظنِّه؛

لأنَّ المجتهد لا يقلِّد مجتهداً آخر، وإنَّما يعمل بما غلب على ظنِّه.

وليس المقام هنا يسمح بمناقشة أصوليَّة، فليس هذا محلُّه.

لكن لبسط المقام في الكلام عن الإجماع السياسي فنقول:

حيث إننا قرَّرنا من قبل أنَّ القرآن الكريم والسُّنة النبويَّة المطهَّرة هما العلَّة لاعتبار السيرة النبويَّة مرجعاً في العمليَّة السياسيَّة فنقول: إنَّ السيرة النبويَّة هي العلَّة في اعتبار الخلافة الراشدة مرجعاً من مراجع العمليَّة السياسيَّة باعتبار أنَّ بعض أجزاء من العمليَّة السياسيَّة لا يمكن تحقُّقها في عصر السيرة النبويَّة لخصوصيَّة النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرناها من قبل، فيُصار إلى الخلافة الراشدة لاستكمال ما صعُب تحقُّقه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بدلالة قيد التوجيه النبوي، ويجب التنبه أنَّ ما اتفق عليه الخلفاء الراشدون في أمور السياسة والحكم ووافقه عليهم الصَّحابة هو أكثر مما اختلفوا فيه، إذْ يقلُّ أنْ تجد حُكماً سياسياً اتفق عليه الخلفاء الراشدون وخالفهم فيه أحد الصحابة، أو حتى تستطيع أنْ تقول أنَّه يندر وقوع ذلك أصلاً، وبهذا علم أنَّ ما عنيناه بالإجماع في عصر الخلفاء الراشدين هو غير ما عناه الأصوليون عند حديثهم عن الإجماع الفقهي، فليتنبه!

فإجماعات الخلفاء الراشدين السياسيَّة شكَّلت لنا إطاراً عامَّاً للنِّظام السياسي الإسلامي وهو أهمُّ وجهٍ من أوجه الاستدلال بالخلافة الرَّاشدة، ونذكر هنا بعض أوجه الإجماع[1]:

- الالتزام بمرجعيَّة القرآن والسنة ومبادئها الأصوليَّة.
- تداول الحكم والسلطة بطرق شوريَّة .
- البيعة .
- استمرار الفتوحات.
- توزيع الأموال من قبل الدولة على الرَّعية.
- حقُّ الأمَّة في اختيار الإمام.
- حقُّ الأمَّة في الرَّقابة.
- مبدأ مسؤولية الدولة عن مواطنيها.
- حقُّ التقاضي والتقاصّ أمام القانون .

---

(١) ينظر بالتفصيل مبحث: «سيرة الخلفاء الراشدين وسننهم في الإمامة وسياسة الأمة» من كتاب: تحرير الإنسان وتجريد الطغيان ٤٠١، د.حاكم المطيري، المؤسسة العربيية للدراسات والنشر-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

▶ حقُّ الناس في التعبير عن آرائهم وقبول جميع الآراء والتعدديَّة السياسيَّة .

▶ وحدة الدَّولة والأمَّة مع إقرار حقِّ المعارضة.

ونخلص من هذه النقطة إلى اعتماد هذا العهد-عهد الراشدي- كعهد متمِّمٍ لعهد النبوة في هذه الناحية.

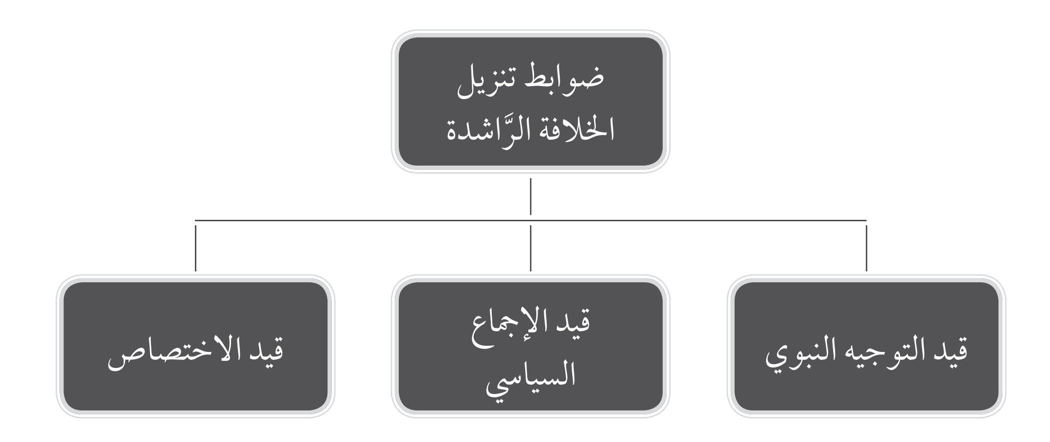
ويبقى أنْ نجيب على شبهة مفادها: إذا كانت السنَّة والسيرة -كما أسلفنا- شاملة، فكيف تحتاج إلى متمِّم، وما يحتاج إلى متمِّم ليس شاملاً؟

والجواب: أنَّ السنَّة قد دلَّت على وجوب الاقتداء والاستنان بسنَّة الخلفاء الراشدين، فصار ذلك جزءاً من السُّنة بهذا الاعتبار، كما أنَّ القرآن دلَّ على وجوب الأخذِ بالسُّنة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الحشر ٧).

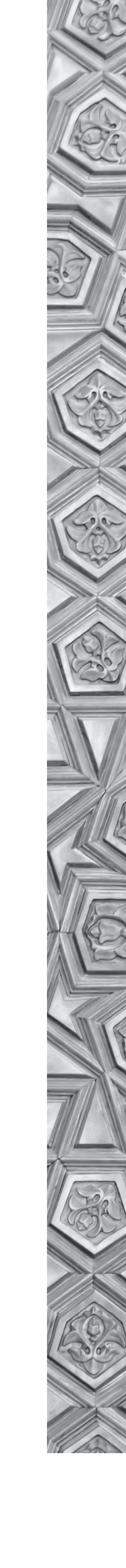
وممَّا نُقل عن العلماء في التنبيه على هذه المنهجيَّة التي سلفت ما ذكره الإمام السيوطي [1] قال:

«وقال الشافعي مرَّة بمكة: سلوني عمَّا شئتم أخبركم عنه من كتاب الله، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر ٧)، وحدَّثنا سفيان بن عُيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعيّ بن حراش عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر، وحدَّثنا سفيان عن معْدِ بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب: أنَّه أمر بقتل المحرم الزنبور».

فانظر إلى أنَّه -رحمه الله- ربط كلاً من المراجع بأصله الذي دلَّ عليه، وجعل ذلك تابعاً لدلالة القرآن الأولى، وهو ما نقرِّره هنا ونسير عليه، والله الموفِّق وهو الهادي إلى سواء السبيل.



(١) الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٢٩، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.



الفصل الثاني عشر



علاقة النظرية بعلم الأصول



المبحث الأول:
آلية التعامل مع قواعد علم الأصول

اتّفق الأصوليون قديماً وحديثاً على أنّ أدلّة الأحكام الشرعيّة العمليّة مردُّها إلى أربعة مصادر مرجعيّة لا خلاف فيها وهي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، واختلفوا في المصادر المرجعيّة الأخرى في اعتبارها دليلاً من أدلّة الأحكام وهي: قول الصحابي وسد الذرائع والعرف والاستصحاب والمصلحة المرسلة والاستحسان و شرع من قبلنا.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما هو موقفنافي هذه النظرية من هذه المصادر المرجعيّة واعتبارها أحد أدوات الاستدلال في العملية السياسيّة؟

فنقول: موقفنا من هذه المصادر المرجعيّة هو الاعتبار الكامل لها بلا أي خلاف يُذكر مع الأصوليين، وهذا في الأحكام الفقهية الشرعيّة العمليّة الجزئيّة، **التي لا يصحُّ فيها إلا أنْ يكون موقفنا فيه موقف جميع الفقهاء والأصوليين**، ومن قال بخلاف ذلك فقد جانب الصَّواب كثيراً فيما نرى!

أمّا في العملية السياسيّة وبالتحديد، فنقول:

أنَّ مصادرنا المرجعيّة المعتمدة في العمليّة السياسيّة تتمثّل في: القرآن الكريم، والسنّة والسيرة النبويّة، وإجماع الخلفاء الرَّاشدين الذي أطلقنا عليه الإجماع السياسي، والقياس الذي قيّدناه بقيد المرحلة أو الغلاف الزَّمني للمرحلة، أمّا المصادر المرجعيّة الأخرى المختلف فيها فقد **قيدناها بالغلاف الزمني للمرحلة** كما سيأتي بيانه الآن، وبالنسبة للقواعد الأصوليّة والفقهيّة المختلفة فهي تمثّل لنا **أساس الفهم** في تطبيق هذه النظريّة.

فأمّا القرآن الكريم والسُّنة والسيرة النبويّة فقد وضحنا ضرورة اعتبارهما مرجعاً أصيلاً في نظريتنا، وفصّلنا فيه ما نعتقد فيه الكفاية في هذه المقام، مع العلم أنَّ لنا عودة تفصيلية لهذه المراجع في أجزاء هذه السلسلة المباركة إن شاء الله.

أمّا الإجماع السياسيُّ وعصر الخلافة الراشدة فقد بيّنا فيما سبق أنَّ السيرة النبويّة هي العلّة في اعتبار عصر الخلافة الرَّاشدة مرجعاً أصيلاً عندنا، باعتبار أنَّ بعض أجزاء من العمليّة السياسيّة يصعُب تحقُّقها في عصر النبوة من مثل عملية تداول السلطة، والبيعة السياسية، والخروج والبغي اللَّذيْن يعدان كفراً في عصر النبوة، وبيّنا أنَّ عصر الخلافة الراشدة باعتباره التجربة البشريَّة المحضة للمشروع السياسي الإسلاميِّ الناجح هو التطبيق العمليُّ لأجزاء العمليّة السياسيّة التي صَعُب تحققها في عصر النبوة، وبيّنا أنَّ إجماع الخلفاء الرَّاشدين في أمور السياسة والحكم مُلزمٌ لنا، وأنَّه يقلُّ أو يندر وجود من خالف من الصحابة في أيِّ إجماع سياسيٍّ قد تحقَّق في عصر الخلافة الراشدة، وأنَّنا نقصد بالإجماع الملزم لنا هو الإجماع السياسيُّ الذي اتفق عليه الخلفاء الخمسة الراشدون فقط: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن، لا الإجماع الفقهي في فروع الفقه الذي لا نخالف فيه الأصوليين أبدا، فإنَّ ما اعتبره الأصوليون من إجماعات متفق عليها ملزم لنا بالضرورة.

المبحث الثاني:
قيد المرحلة

نعني بقيد المرحلة في العملية السياسيَّة هنا هو **مراعاة علَّة الفعل السياسي الذي وقع في عصر السيرة النبوية مع إضافة قيد الغلاف الزَّمني للمرحلة السياسيَّة التي حدث فيه، وهو ما أسميناه بقيد المرحلة**، وإليكم التفصيل:

جاء في تعريف القياس الشرعي عند الأصوليين أنَّه: إلحاق ما لم يرِدْ فيه نصٌّ بحكمه، على ما ورد فيه نصٌّ بحكمه، لاشتراكهما في علِّة ذلك الحكم، وحدَّدوا لصحَّة هذا القياس أربعة أركان لا يصحُّ إلا بها وهي: الفرع، والأصل، وحكم الأصل، والعلَّة المشتركة، ونحن في نظريتنا وبما أنَّ مفردات بحثنا متعلقة بأجزاء العلميَّة السياسيَّة فقط، **نضيف إلى عملية القياس الغلاف الزمني للمرحلة السياسية، كي يصح تعدية حكم الأصل إلى فرعه، لتعلُّق الفعل السياسي بقيده المرحلي.**

وإنما أضفنا قيد المرحلة والغلاف الزَّمني إليه؛ **لأنَّه يصعب فهم الحدث السياسي من غير النَّظر إلى قيده المرحلي المتعلِّق به،** فيتحصَّل لنا عند فهم الحدث السياسي أمران:

الأول: النظر إلى علِّته المطَّردة التي يصحُّ تعديتها من أصلها إلى فرعها، وتخريجها وتنقيحها وتحقيقها، بالبحث في **مسالك العلَّة** التي اعتنى بذكرها الأصوليون.

الثاني: مراعاة الغلاف الزَّمني للمرحلة السياسيَّة التي صدر فيها هذا الفعل السياسي.

والقول بهذا التفصيل يعصم من الوقوع في الكثير من الانحرافات المنهجيَّة التي تعاني منها بعض الجماعات الإسلاميَّة اليوم، فنحن حينما نفهم الحدث السياسي بالنظر إلى مرحلته سواء كانت هذه المرحلة مرحلة ضعف أو قوة، فإنَّ هذا يساعدنا كثيراً على فهم فقه التنزيل الذي أشرنا إليه سابقاً، وإنْ أردنا أن ندلِّل على ما نقول فإليكم هذا المثال:

قام النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة الأحزاب بإعلام الصحابة بانتقال الدَّعوة من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم، ومن ذلك توجُّهه بعد الغزوة لقتال يهود بني قريظة، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بقتل حييّ بن أخطب زعيم يهود بني النضير، وكعب بن أسد زعيم بني قريظة، معلناً الحرب الشاملة على كلِّ من ناكف المشروع الإسلامي بقوله: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**» ،،فإن نظرنا إلى علَّة قتل النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المجرمين وجدنا أنَّ العلَّة هي مناكفتهم للمشروع الإسلامي وقيادة معسكر المواجهة مع المسلمين، لكنَّنا يصعبُ أنْ نكتفي بهذه العلَّة لتعليل هذا الحدث السياسي، لهذا أضفنا إلى هذه العلَّة قيد المرحلة التي حدث فيها هذا الفعل وهي المرحلة المدنية الثانية: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» الذي أصبح للمشروع الإسلاميِّ فيه كيانٌ متماسكٌ ودولةٌ قويَّة يُمكِّنه من تصفية قيادات المعسكر المعادي للمشروع الإسلامي، لهذا نقول: إنَّ تعدية هذا الحكم إلى واقعنا

المعاصر بعد معرفتنا لعلَّته، مع تجاهل تشابه المرحلتين، يوقع في أخطاء منهجيَّة خطيرة على مستوى العمل السياسي الإسلامي المعاصر، **وهذا يؤدي إلى انتقاء النصوص انتقاءً عبثيًّا وعشوائيًّا متى تحقَّقت علَّة فعله مع الغفلة عن قيده المرحلي**، فنحن تارةً ما نجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أعلن المواجهة المباشرة والشاملة مع معسكر الكفر، وتارةً ما نجده قد انتهج مبدأ السِّلمية والتفاوض مع الخصوم، وبهذا ظهرت بعض التيارات الإسلامية المعاصرة التي تقول بأنَّ السِّلمية في الإسلام هي الأصل في التعامل مع الخصوم كافَّة بناءً على النظر إلى المرحلة المكِّيَّة وتعميمها على كافَّة المراحل، وتيارٌ آخر يقول بأنَّ الحرب والقتال هو الأصل في التعامل مع الخصوم بناءً على النظر إلى المرحلة المدنيَّة وخاصة المرحلتين الثانية والثالثة منه، ومن ثمَّ اعتبروا هذه الأحكام هي أحكام نهائيَّة يصلح تعميمها على جميع المراحل السياسيَّة، وكلٌّ فريقٍ منهما يستدلُّ ببعض النصوص والأحداث السياسية الجزئية التي تؤيِّد موقفه من السيرة النبوية، ونحن نخالف المنهجين تماماً ونعمل على فهم الحدث السياسي الذي وقع في عصر النبوة كالتالي:

الأوَّل: البحث عن العلَّة المشتركة بين الحدثين السياسيين بالنَّظر في مسالك العلَّة المختلفة، ثمَّ النَّظر في تحقُّق هذه العلَّة في فهم الحدث السياسي المعاصر.

الثاني: النظر إلى المرحلة السياسيَّة والغلاف الزَّمني الذي وقع فيه هذا الحدث السياسي وفهمه بناء عليه، ثمَّ تصنيفُ المرحلة السياسيَّة المعاصرة من حيث تشابهها بأحد المراحل السياسية الست المقسَّمة على المشروع الإسلامي السياسي في عصر النبوة.

وبهذا يسهُل علينا تنزيل النصوص على الحدث السياسي المعاصر، ثمَّ محاولة معالجة هذا الحدث بما يتناسب ومرحلته السياسية، على ضوء المنهج النبوي في تطبيقه، فتارة تكون السِّلمية هي التصرف السياسيُّ الأمثل في ضوء المرحلة، وتارةً تكون المواجهة الشاملة هي الحلُّ الأمثل في قيد المرحلة، وهكذا في بقية مفردات العملية السياسية كافَّة، وينبِّه على هذه المنهجيَّة الشيخ محمد أحمد الراشد في كتابه: (أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريَّات فقه الدَّعوة الإسلاميَّة) تحت عنوان: (المكيَّة والمدنيَّة معنيان نسبيَّان يؤثران في الفتوى) فيقول: (وما كان في القرآن من أحكام راعتْ وضع المسلمين الضعيف في العهد المكي ثمَّ تغيَّرُها أيام المدينة لما قويتْ شوكة المسلمين: إنما هي أحكامٌ تصلح في رسم السياسة الإسلامية دائماً إذا تشابه ظرف الدَّعوة أو الدَّولة الإسلاميَّة مع العهد المكي، في ارتباط نسبي، بحسب القوَّة والضعف، ثمَّ يقول: وفي هذا وضوح أنَّ سؤال المكيَّة والمدنية صحيحٌ **إذا كان مدى تشابه الظرف هو المحكَّم، لا** عدد السنين التي مررنا بها وإيجاب من أوجب العزائم بعد ثلاثة عشرة سنة من تاريخ بدء الدَّعوة كما توهم ذلك من لا فقه له)[1].

وأمَّا بالنسبة للمصادر المرجعيَّة الأخرى التي أشرنا إليها سابقاً، فيُقال فيها مثل ما قيل في القياس

---

(١) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية ٢/ ٢٠١-٢٠٣، محمد أحمد الراشد، دار النشر للجامعات، ٢٠١٢م.

من إضافة قيد المرحلة والغلاف الزمني لها، حتى يصحَّ استعمالها في فهم الحدث السياسي، بل إنَّ الإمام فخر الدين الرازي قد ذهب إلى أبعدَ من هذا حيث قرَّر أنَّ ما سِوى الأصول الأربعة من الكتاب والسنَّة والإجماع والقياس مردودٌ وباطل وذلك في ثنايا تفسيره لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء ٥٩)، حيث قال -رحمه الله-: (هذه الآية دالَّة على أنَّ ما سوى هذه الأصول الأربعة -أعني الكتاب والسُّنة والإجماع والقياس- مردودٌ وباطل؛ وذلك لأنَّه تعالى جعل الوقائع قسمين: أحدهما: ما تكون أحكامها منصوصةٌ عليها وأمر فيها بالطاعة، وهو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾، والثاني: ما لا تكون أحكامها منصوصاً عليها وأُمر فيها بالاجتهاد وهو قوله: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، فإذا كان لا مزيد على هذين القسمين وقد أمر الله تعالى في كلِّ واحدٍ منهما بتكليفٍ خاصٍّ معيَّن دلَّ ذلك على أنَّه ليس للمكلَّف أنْ يتمسَّك بشيءٍ سوى هذه الأصول الأربعة، وإذا ثبت هذا فنقول: القول بالاستحسان الذي يقول به أبو حنيفة رضي الله عنه، والقول بالاستصلاح الذي يقول به مالك -رحمه الله- إنْ كان المراد به أحد هذه الأمور الأربعة فهو تغييرُ عبارة ولا فائدة فيه، وإن كان مغايراً لهذه الأربعة كان القول به باطلاً قطعاً لدلالة هذه الآية على بطلانه كما ذكرنا)[1].

وننبِّهُ مرَّة أخرى أنَّ ما قلناه سالفاً متعلِّق بالعمليَّة السياسيَّة فقط، ولا يتعدَّى ما قلناه إلى الأحكام الفقهيَّة التي ليس لها تعلق بالقيد المرحلي.

وهذا الجهد هو خطوة أولى لاستقلالية السياسة الشرعيَّة بمرجعيَّتها وأدوات تطبيقها عن المنظومة القائمة التي لا تراعي القيد المرحلي في الإسقاطات السياسيَّة، وقد كان للشيخ محمد أحمد الراشد جهدٌ طيِّبٌ في هذا المقام وذلك في ثنايا ما كتبه في مؤلفه الشهير: أصولُ الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريَّات فقه الدَّعوة الإسلاميَّة، في خطوةٍ جادَّةٍ لإنتاج المشروع الإسلامي الشامل المستقل، ومن ذلك ما قرَّره من أنَّ مجال العمل في حقل الدعوة يتجاوز الخمسمائة آية المذكورة في الأحكام إلى خمسة آلاف آية فيقول: (وأوَّل ما نعترف به ونُذعن له: النصُّ القرآنيُّ، وقد شرحنا في مواضع أخرى سعة الفقه الدَّعوي، فهو أوسع من فقه المعاملات والحدود، ويعتني ببيان آداب الدَّعوة وسلوك الدَّاعية مع المدعوين على اختلاف أصنافهم، ولذلك فإنَّ الفقه العام إنْ كان يجد في خمسمائة آيةٍ من آياتِ الأحكام في القرآن بُغيته، فإنَّ فقه الدَّعوة يقتبسُ من كلِّ آيات القرآن أحكامه وآدابه، ففي أخبار الأمم الماضية وسير الأنبياء -عليهم السلام-، وفي كلِّ الآيات المتعلِّقة بغزوات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبقيَّة سيرته المطهَّرة: في كلِّ ذلك أحكامٌ دعويَّة وموازين وآداب، وكلُّها تصلح أنْ تكون أدلَّة، بحسب براعة الفقيه في استلهام معانيها، هذا فقط، وما أظنُّ أنَّ النقاش الطويل في كتب الأصول حول عام القرآن وخاصِّه، وناسخه ومنسوخه

---

(١) مفاتيح الغيب المعروف بتفسير الرازي ١٠/ ١١٦، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ.

يعنينا كثيراً في أبواب فقه الدعوة، إذْ لم أجد آية تتضمن حكماً دعوياً أو أدباً دعوياً تتجاذبها اختلافات الفقهاء، ويتحوَّل المبحث القرآني الأصولي عندنا إلى تذكير المجتهد بعشرات الموازين القرآنيَّة ينبغي عليه أنْ يستحضر مدلولاتها ودقائقَ معانيها إذْ هو يفتي ويستنبط، وتشكِّل هذه الموازين كتلةً مستقلَّة متميزةً تحتلُّ حيِّزاً واضحاً في موارد فقه الدَّعوة ليس له مثيل في أصول الفقه العام، وهذه الموازين تمزج بين حكم التصرفات ودورانها بين الجواز والمنع والقبول والرفض والمدح والذم، وبين معانٍ عقيديةٍ غيبيةٍ تقوم شاهدة على المعنى الدنيوي أو بديلة عنه، وتمزج كذلك شيئاً من الملاحظات الحيويَّة وجريان الأقدار وقصص واقعية تقوم على نتائجها بالإشارة إلى مقدِّماتها الصَّائبة أو الخاطئة)[1].

وقد كان للأستاذ الشهيد سيد قطب -رحمه الله- قصب السبق في التأصيل لهذا المشروع، وخاصة في ثنايا ما كتبه في تفسيره: في ظلال القرآن، وتبعه في ذلك الشيخ سعيد حوى -رحمه الله- وما كتبه في سلسلته الشهيرة بفقه الدعوة والبناء والعمل الإسلامي، وما كان هذا المشروع إلا لاستمكال ما بدأه مشايخنا الأوائل، نسأل الله تعالى أن يجمعنا وإياهم في جنته ودار مُقامه، اللهم آمين.

---

(١) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية ١/ ١٥٢-١٥٣، محمد أحمد الراشد، دار النشر للجامعات، ٢٠١٢م.

الفصل الثالث عشر



الاستنباط السياسي





المبحث الأول:
تعريف الاستنباط

الاستنباط لغة: من نَبَطَ، والنَّبط: الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حُفرت، وأنبطنا الماء أيْ استنبطناه وانتهينا إليه، وكل ما أظهر فقد أنبط، واستنبطه واستنبط منه علماً وخبراً ومالاً: استخرجه، والاستنباط: الاستخراج، واستنبط الفقيه إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه، وقال الزَّجَّاج: معنى يستنبطونه في اللغة: يستخرجونه، وأصله من النبط وهو الماء الذي يخرج من البئر أوَّل ما تحفر، ويقال من ذلك: أنبط في غضراء أيْ: استنبط الماء من طين حر[1].

أمَّا في الاصطلاح فقد تعدَّدت أقوال العلماء فيه:

فقال الجصاص: هو اسمٌ لكلِّ ما استخرج حتى تقع عليه رؤية العيون، أو معرفة القلوب، والاستنباط في الشرع: نظيرُ الاستدلال، والاستعلام[2].

وقال السرخسي: الاستنباط ليس إلا استخراج المعنى من المنصوص بالرأي[3].

وقال الزمخشري: ما يستخرجه الرجل، بفضل ذهنه، من المعاني والتدابير، فيما يعضل ويُهم[4].

وقال النووي: قال العلماء: الاستنباط استخراج ما خفي المراد به من اللفظ[5].

وقال فهد الوهبي في رسالته: هو استخراج ما خفي من النَّصِّ بطريقٍ صحيح[6].

ونحن الآن لسنا بصدد مناقشة التعاريف، إنما مقصودنا هو بيان المراد بمصطلح الاستنباط بما فيه الدلالة على المقصود، ونعني به ههنا: **ما يُناطُ من واجبٍ على مجموعة من أهل العلم في الأمَّة لإدراك خصائص النصوص بشموليتها وحركيَّتها، عن طريق آلة علميَّة وذهنيَّة عقليَّة لتنزيلها على الواقع السياسي لإدارة حالات الأمَّة المختلفة بين الأمن والخوف والقوة والضعف، حيث يُعتبر الاستنباط السياسي هو الشكل التطبيقي لفقه التنزيل الذي تمت الإشارة إليه من قبل.**

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (النساء ٨٣).

---

(١) لسان العرب ٧/ ٤١٠، ابن منظور الأنصاري، دار صادر-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ، والغضراء هو المكان ذو الطين الأحمر .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٨٣، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ١٤٠٥هـ.

(٣) أصول السرخسي ٢/ ١٢٨، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة-بيروت، دون تاريخ.

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ١/ ٥٤١، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ.

(٥) تهذيب الأسماء واللغات ٤/ ١٥٨، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية-بيروت.

(٦) منهج الاستنباط من القرآن الكريم ٤٤، فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي، تقديم: أ.د.محمد بن عبد الرحمن الشايع، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي التابع للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة جدة، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

وقد قسَّم أهل العلم الاستنباط إلى عدَّة أقسام: فمنها ما هو باعتبار الظهور في معنى النص: إلى استنباط من نصٍّ ظاهر المعنى ونصٍّ غير ظاهر، ومنها ما هو باعتبار الإفراد والتركيب في النصِّ: إلى الاستنباط من آيةٍ واحدة أو آيتين فأكثر، ومنها ما هو باعتبار الصِّحة والبطلان: إلى استنباط صحيح وباطل، ومنها ما هو باعتبار موضوع المعنى المستنبط: إلى استنباطٍ عقديٍّ أو فقهيٍّ أو إعجازيٍّ أو سياسيٍّ أو أُصوليٍّ أو لُغويٍّ أو تربوي أو سلوكي، ومنها ما هو باعتبار كليَّة المعنى المستنبط أو جزئيته: إلى استنباط كليٍّ أو جزئيٍّ.

المبحث الثاني:
الاستنباط أداة التطبيق

ورد في القرآن الكريم الحديث عن الاستنباط في سورة النساء فقال الله تعالى في ذلك: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء ٨٢-٨٣).

إنَّ هذه الآيات تحتوي على تسلسلٍ منضبط في التعامل مع أحوال الأمَّة المختلفة بين الأمن والخوف، **إمَّا على أساسٍ شرعيٍّ وإمَّا على أساسٍ عقليٍّ بشريٍّ محض،** وهذا التسلسل في العرض والنتائج في الآيات رسم لنا عقداً دريَّاً فرديَّاً لم يتكرر في هذا الوضوح إلا في هذا الموضع، حيث حَوَتْ الآيات مصطلحات فريدة لم تتكرَّر في القرآن الكريم وهي: (أذاعوا به) و(يستنبطونه)، وهذان المصطلحان يُشكِّلان عُنوانين لمنهجين مختلفين ومتعارضين في إدارة العمليَّة السياسيَّة.

وفي الآيات الكريمة هنا مرجعيَّتان ومنهجان ونتيجتان:

فأمَّا المرجعيَّتان: فالأوَّل: في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ وقد جاء في هذه الآية حرف الاستفهام الاستنكاري الهمزة، الذي يعقبُهُ حرف الفاء العاطفة على مقدَّر، متبوعاً بلا الناهية المتصلة بالفعل المضارع، فيكونُ المعنى: أيُعرضون عن كتاب الله تعالى فلا يتدبَّرونه ولا يتَّخذونه مرجعيَّة، وفيه تفصيلُ كلِّ شيء!

وإذا كان الإنكار قد وقع على من يعرضون عن اتباع كتاب الله تعالى، **فيكون نقيض هذا الإنكار هو الإقرار،** ويكون الإقرار على من اتخذ القرآن الكريم مرجعيَّة بتدبُّره واستنباط ما فيه، فيكون هو المصدر الرئيسي في عمليَّة الاستنباط في الحياة السياسيَّة.

وأمَّا الثاني: فهو في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ وفي هذه الآية إشارة إلى فئةٍ من الناس التي تتَّخذ مرجعيَّتها في غير القرآن الكريم، وفي الآية استعمال (الواو) التي للحال، بعدها (لو) الشرطيَّة، وجوابه شرطها (لوجدوا)، فيكون المعنى أيْ أنَّ القرآن الكريم لو كان من عند غير الله كما هو الحال في

مرجعيَّاتكم، لوجدتم في كتاب الله تعالى شتى أنواع التناقض والاختلاف الكثير، و(كثيراً) التي في الآية هي صفة للاختلاف، وقد اختلف المفسِّرون في ماهيَّة هذا الاختلاف الكثير، لكنْ على أيِّ قولٍ حملنا ما ذهبوا إليه، فالنتيجة واحدة لا تختلف وهي التناقض الحتمي في تنظيم شؤون الحياة، والاضطراب الواضح في الحياة السياسية، ولا أدلَّ من هذا الكلام إلا ما نشاهده اليوم في عالمنا من تناقضٍ واضطراب وقلق واختلاف وتنافر وما إلى ذلك من وجوه الاختلاف والتناقض التي لا تتناهى، وعلَّة هذا الاختلاف الكثير هو في عدم تحكيمهم لكتاب الله تعالى.

وقبل أنْ نشير إلى المنهجين لا بدَّ لنا من ضبط مصطلحي الأمن والخوف في القرآن الكريم:

إنَّ الباحث في القرآن الكريم لن يجدَ فيه مصطلح (السياسة)، **لكنَّ المتأمِّل في القرآن الكريم سيجدُ فيه ما يعبِّرُ عن مدلول هذا المصطلح بما هو أكثرَ شمولية وعُمقاً**، وهو مصطلحي (الأمن والخوف) وهما لفظان يدلان على إدارة واقع الأمَّة السياسي بحالات الأمَّة المختلفة من حيث الاستقرار وعدمه، لهذا حينما وصف الله -عزَّ وجل- لنا حالة التمكين في سورة النور أخبرنا الله تعالى أنَّ أثر هذا التمكين هو إبدال حالة الخوف التي هي أثرٌ عن عدم الاستقرار، بالأمن الذي هو أثرٌ عن حالة التمكين، فقال تعالى: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾ (النور ٥٥).

وأمَّا المنهجان: فالأوَّل: فهو في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ** ﴾، وفي الآية (وإذا جاءهم): (إذا) ظرف مستقبل بمعنى الشرط، وفعله (جاءهم)، وجوابه أذاعوا به، فيكون المعنى أنَّه كلَّما جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف حالاً ومستقبلاً فمنهجهم واحدٌ لا يتبدَّل وهو عدم الاستقرار على مرجعيَّة في حركةٍ مستمرَّة لا تتغيَّر، **تعتمد على إدارة الواقع السياسي بمرجعيَّة عقليَّة بشريَّة محضة والتي تقوم على رأي الأغلبيَّة الكليَّة أو الجزئيَّة من غير اعتبار مرجعيَّةٍ نصيَّة**، فمنهجهم قائمٌ في كليَّته على البشريَّة المحضة وذلك مثل الحالة الديمقراطية الحديثة التي هي أوضح مثال على ذلك.

وأمَّا الثاني: فهو في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ** ﴾ ففي هذه الآية منهج مُناقضٌ لما عليه المنهج الأول، فإذا كان الأوَّل مبنياً على منهجية (أذاعوا به)، فإنَّ الثاني مبنيٌّ على منهجيَّة (رَدُّوهُ)، وفي الآية أسلوب شرط: (فلو) حرف شرط، و(ردُّوه) فعله، وجوابه: (لعلمه)، فيكون الفعل هنا برد الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في حالة حياته، ورد الأمر إلى أوْلي الأمر من أهل الاستنباط بعد وفاته ممن هم أهل المعرفة بمرجعيَّة الأمَّة من القرآن والسنة والقدرة على الإحاطة بالواقع السياسي وأمور العامَّة والفصل فيها، وفي قول الله تعالى: ﴿ **أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ** ﴾ نرى أنَّ الله أخبرنا أنَّ أهل الاستنباط لا بدَّ أنْ يكونوا من أولي الأمر، بل إنَّ شرط العطاء (لَعَلِمَهُ) مترتِّبٌ على كون أهل الاستنباط جزءاً من أولي الأمر، بمعنى أنَّ تكون قيادة الأمَّة الإسلاميَّة

مُسلَّمَةً بمرجعيَّة القرآن والسنة في منهجيَّة الاستنباط.

وأمَّا النتيجتان: فالأوَّل: فهو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بلام التوكيد (لاتبعتم) الواقعة في جواب الشرط (لولا)، و(لولا) هي حرف امتناع، فيكون المعنى: أنَّه لولا فضل الله عليكم وهو هنا اتباعكم للقرآن الكريم، ورحمته بوجود الرسول صلى الله عليه وسلم بينكم، والتي منعتكم من الانحراف لاتبعتم الشيطان وحزبه، وهي نتيجة لمنهجيَّة (أذاعوا به) التي تقدِّم العقل البشري على مرجعيَّة النصِّ الشرعيِّ، وبالتالي فساد المجتمعات، واختلاط المرجعيَّات، واضطراب الحياة السياسيَّة، إلا قليلاً ممن اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الاستنباط ممن سنشير إليهم الآن، ويجدر الإشارة هنا أنَّ الامتنان بفضل الله ورحمته متعلِّقٌ دائماً في القرآن الكريم باتباع المرجعيَّة، بل إنَّ الله -عزَّ وجل- لم يأمرنا بالفرح مطلقاً إلا في سياق الامتنان علينا باتباع المرجعيَّة المتمثلة بالقرآن العظيم وسنَّة النبي الكريم كمنهج حياة مستقيم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس ٥٧-٥٨)، والفرح هنا فرح بالاتباع المقابل للانحراف، ونشير أخيراً هنا إلى أنَّ: مدلولُ الشيطان في الآية السابقة واسعٌ جدا، فكلُّ من يقودك إلى الانحراف فهو من حزب الشيطان، ومنهج الشيطان يستحيل أنْ يقودك إلى منهج الرحمن، وإذا كان من المستحيل على العقل البشري أنْ يفكر في فراغ، فهو إمَّا أنْ يتبع منهج الرحمن في تفكيره، وإمَّا أنْ يتبع منهج الشيطان، فمن لم يتبع الأولى فقد وقع في الثانية، ومن خالف الثانية فلزاماً عليه أنْ يتبع الأولى، فالقسمة العقليَّة حاصرة بين منهج الرحمن أو منهج الشيطان ولا توسط بينهما.

والثاني: فهو في قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فهي نتيجة وجواب شرط لمن اتبع منهج رد الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمر من أهل الاستنباط من بعده، والنتيجة هي (لَعَلِمَهُ) بلام التوكيد الواقعة في جواب الشرط من (لو ردُّوه)، والعلم هنا كامنٌ لأهل الاستنباط من أولي الأمر منهم، وفائدة علمهم هو إزالة اللبس والغموض الذي وقع فيه من اتبعوا منهج الذين (أذاعوا به)، ونتيجة علمهم هنا هو استنباطُ ما يلزم في أمور الأمن والخوف في الحياة السياسية، ورسم الاستراتيجيات والمنهجيات وتقعيد المرجعيات الصالحة للحكم على الواقع السياسي، فإنَّ أهل الاستنباط لو لم تكنْ لهم هذه المرجعيَّة لما كان لهم هذا الفضل، ولا نقصد بهذا الكلام إقرار العصمة لأهل الاستنباط، فالخطأ متصوَّرٌ وقوعه من أهل الاستنباط وغيرهم لكونهم بشراً يصيبون ويخطئون، **لكنَّ العصمة تكون للكتلة الإسلامية التي تتصل بالمرجعيَّة الكاملة بمنهجيَّة الاستنباط من حيث عدم الاستمرار بالخطأ لا من حيث عدم الوقوع به مطلقاً.**

فالحاصل من كلِّ ما مرَّ: أنَّ آليَّة تعامل الناس تجاه العمليَّة السياسيَّة على نوعين:

الأوَّل: وهم أصحاب منهج (أذاعوا به) والذين يؤمنون بأنَّه لا تعلو عندهم سلطة على سلطة العقل البشري

مطلقاً في إدارة العمليَّة السياسيَّة، فهم يتعاملون مع الظَّرف السياسي بفضاءٍ مفتوح، وإنْ كان أصحاب هذا المنهج يقدِّسون العقل إلا أنَّهم لا يستخدمون إلا قشرته الخارجيَّة التي لا تدلهم إلا على ظواهر المصلحة الآنيَّة المتوهمة.

والثاني: وهم أصحاب منهج رد الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى أولي الأمر من أهل الاستنباط، الذين لديهم مرجعيَّة واضحة تتمثَّل في إعمال العقل في أعلى مستوياته بمنهجيَّة الاستنباط، حيث إنَّ عمليَّة الاستنباط هي عمليَّة عقليَّة معقَّدة تحتاج إلى مجهودٍ عقليٍّ ضخم، لذلك فإنَّ منهجيَّة الاستنباط لا تعطل العقل، بل توظِّفه فيما خلق لأجله، وتكمن أهميَّة الاستنباط في أنها لا تتعامل مع الظرف السياسي بفضاء مفتوح بل تكون في الخوض في مصدر معرفي معصوم مخصوص في المرجعيَّة المعصومة من القرآن الكريم والسنة النبويَّة المطهرة.

ولذلك قال الإمام الزركشي رحمه الله تعالى: (اعْلَمْ أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى الْمُجْتَهِدِ أَنْ يَطْلُبَ لِنَفْسِهِ أَقْوَى الْحُجَجِ عِنْدَ اللَّهِ مَا وَجَدَ إلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، لِأَنَّ الْحُجَّةَ كُلَّمَا قَوِيَتْ أَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ الزَّلَلِ. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ فِي «الْأُمِّ»: «وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ مِنْ أَعْلَى»)[1].

لكن يبقى عندنا سؤال هنا: أين هم أهل الاستنباط وما هو دورهم في إدارة العمليَّة السياسيَّة؟

حتى تتم حركة التدقيق والتصحيح لمسار الكتلة الإسلاميَّة لا بدَّ من إنشاء بعض المؤسَّسات المهمَّة لضمان سير العمليَّة السياسيَّة بشكلٍ سليم، وهو خطوة إجرائية مقترحة لا تعد من أصل النظرية وهي:

أولاً: تأسيس هيئة الاستنباط التي لا بدَّ أن تكون في صفِّ القيادة الأوَّل مع من أسماهم القرآن الكريم بأولي الأمر.

ثانياً: تأسيس محكمة المرجعيَّة التي ستكون لها كلمة الفصل في حال اختلاف أهل الاستنباط مع أيٍّ من التشكيلات الأخرى في داخل الكتلة الإسلاميَّة.

وقد عالجنا جزءاً منها عند الحديث عن أهل الاستنباط من أولي الأمر، وهنا نقول زيادة على ما سبق:

إنَّ هيئة الاستنباط المتمثلة بأهل الاستنباط من أولي الأمر لتمثُّل **الرَّدالأوَّل** الذي ذكر في الآية عند مجيء شيء من الأمن والخوف المتعلِّقين بالمدلول السياسي، فقال: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾، فالردُّ الأوَّل يحصل مباشرة بالردِّ على أهل الاستنباط لتتمَّ عمليَّة التدقيق والتصحيح مباشرة، وهذا الردُّ الأوَّل هو نفسه الذي ذكر في الآية الأخرى في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء ٥٩)، وطاعة الله باتباع كتابه، وطاعة رسوله باتباع سنته وسيرته، وعطف أولي الأمر عليهم في الطاعة فقال: ﴿ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ وهم الذين ذكروا في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه ٨/ ٢٦٧، بدر الدين الزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

مِنۡهُمۡ﴾، فمنكم التي في الآيــة: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ هم أولي الأمــر الذين تشكَّلت منهم هيئة الاستنباط، لكنْ إنْ حصل التنازع فحينها نرجع إلى ما أسميناه محكمة المرجعيَّة التي ذكرت في الآية: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾، **ومحكمة المرجعيَّة تمثِّل عملية الرد الثاني**، وتكون مختصَّة في النظر في الخلاف فقط، وذلك بعرض الأمر المتنازع عليه والمختلف فيه على كتاب الله تعالى، وعلى سنَّة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكلما حصل نزاع فقد وجب حينها الردُّ مباشرة وهذا ما يقتضيه حرف الفاء الواقع في جواب الشرط المقترن بفعل أمر (ردُّوه)، وقد ذكر في الآية الكريمة قوله: ﴿ۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ على صيغة التفضيل (أَفْعَلْ)، ونقيض الخير هو الشر، ونقيض الأحسن هو الأسوأ، فما لم يحصل الردُّ على كتاب الله تعالى، وعلى سنَّة رسول صلى الله عليه وسلم، فقد وقعنا في نقيض الاسمين أيْ الشر والسوء.

ثالثاً: تأسيس معهد الاستنباط الذي سيكون المحضن التربويُّ العلميُّ الرَّافد لأهل الاستنباط وما ينتج عنه من تشكيلاتٍ إداريَّة وعلميَّة.

رابعاً: تأسيس فريق رفع الكتلة السياسيَّة والذي يشرف على دراسة الكتلة المسلمة وتوصيف واقعها لمطابقتها مع ما يقابلها من مراحل السيرة النبوية.

خامساً: تشكيل هيئة رفع الواقع السياسي والتي تكون بمثابة مركز الدراسات السياسيَّة والاستراتيجيَّة لدراسة الواقع السياسي وحركة الكتل والتشكيلات التي تحيط بالمشروع الإسلامي.

سادساً: إنشاء وحدة توزيع المهام على المخلصين من الأمَّة الإسلاميَّة من أبناء الكتلة نفسها أو من أبناء الكتل الأخرى بمنهجيَّة علم الاجتماع السياسي ومدرسة الصحابة بما يضمن توزيع الأعباء على أفراد الأمَّة وتوسيع دائرة المشاركة الفاعلة على أبنائها وتحويل حالة الكتل الإسلامية من حالة المواجهة والاختلاف إلى حالة التخصصية والائتلاف.

سابعاً: تشكيل وحدة دراسة فقه الصراع التي تدرس كل عدو بخصائصه المستقلة واستراتيجياته الموصوفة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من خلال فقه الصراع وعلم الاجتماع السياسي.

ثامناً: تشكيل الوحدة التربويَّة التي تضبط محاور التربية والتوجيه للكتلة المسلمة استنباطاً من المراحل الست للسيرة النبويَّة وما تنزل بها من نصوص القرآن الكريم في التوجيه التربوي والبناء العقدي.

المبحث الثالث:
صفات أهل الاستنباط السياسي

قلنا من قبل أنَّ الاستنباط عمليَّة عقليَّة تحتاج إلى مجهودٍ ضخم من التحليل والتركيب والتنزيل على الواقع السياسي، وحتى تكون مآلات هذه العمليَّة صحيحة ودقيقة فلا بدَّ لمن يقوم بها -وهم أهل الاستنباط- من شروطٍ خاصَّة تؤهِّلهم لأنْ يتصدَّروا هذه المكانة، ومن هذا الصفات:

أولاً: أنْ يكون بالغاً عاقلاً.

ثانياً: أن يكون سليم الاعتقاد.

ثالثاً: أن يكون عالماً بالمرجعيَّة وهي القرآن والسنة من حيثيات عديدة منها:

١) المعرفة التامَّة والكاملة لشموليَّة المرجعيَّة في إدارة العمليَّة السياسيَّة.

٢) الإدراك التامُّ والمعرفة الكافية لحركيَّة المصادر المرجعيَّة في إدارة العمليَّة السياسيَّة.

٣) أنْ يكون على معرفةٍ بالتفسير الصحيح ومناهج المفسرين وجهودهم.

٤) العلم بالأصول والمقاصد، مع الإحاطة التامة بطرق الاستنباط وأنواع الدلالات.

٥) العلم الكافي بالقياس الشرعي وأنواعه.

٦) أنْ يكون عالماً بأحكام المعقول ودلالاته، وأن يكون على اطلاع جيد باللغة العربية وأحكامها.

٧) أن يكون عالما بمواضع الإجماع السياسي عند الخلفاء الراشدين.

٨) العلم بالسنة على الوجه الذي يمكنه أن يدرك التصرفات والأفعال النبوية في السياسة وتوجيهها.

٩) أن يكون عالماً بعلم التبديل وخصائص التنزيل، وأن يكون ملمّاً بأسباب النزول وأسباب التنزيل.

رابعاً: أنْ يكون على دراية تامَّة بمحاور العمليَّة السياسيَّة الخمس.

خامساً: أنْ يكون على اطلاع واسع بالمراحل السياسية النبويَّة الست، وعصر الخلافة الراشدة.

سادساً: أن يعطى من الصلاحيات والنفوذ ما يجعله من صانعي القرار وأصحاب الكلمة المسموعة.

سابعاً: أنْ يمتلك صفاتٍ شخصيَّة تؤهِّله على التأثير والإقناع والقدرة على التحليل.

ثامناً: أنْ يكون من أهل السَّبق والفكر لا من أهل التقليد.

تاسعاً: أنْ يكون على اطلاع واسع بالواقع السياسي، وأن تكون عنده قراءة سياسيَّة عالية.

وحتى نضمن تحقُّق هذه الصفات في أهل الاستنباط لا بدَّ لنا من إنشاء ما أسميناه **بمعهد الاستنباط**، الذي يكون مختصا فقط في إعداد المؤهلين لعمليَّة الاستنباط السياسي.



المبحث الرابع:
إدارة عملية الاستنباط

إنَّ منهجيَّة الاستنباط هي الآلة التي سيتمُّ إدارة الواقع بها، وهي أداة الاتصال المباشر مع المرجعيَّة التي سبق الكلام عليها، فإنْ كنَّا قد قرَّرنا من قبل أنَّ أصولنا المرجعيَّة الرئيسيَّة للعمليَّة السياسيَّة متمثلةً بالقرآن الكريم والسنَّة والسيرة النبويَّة والخلافة الراشدة، وما بيناه في قيد المرحلة والقياس وما إلى ذلك، فالاستنباط هي الأداة الرئيسيَّة التي تمكننا من الاستفادة من هذه المصادر المرجعيَّة في إدارة الواقع السياسي بها.

وكنا قد تكلمنا أيضاً عن محاور العمليَّة السياسيَّة الرئيسيَّة وهي: نظام الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم أو القيادة بالقاعدة، ومنظومة الدعوة والمواجهة، وعلم الاقتصاد السياسي، وعلم الاجتماع السياسي، وعلم النفس السياسي، لكن كلامنا على هذه المحاور يبقى كلاماً نظرياً ما لم يتم الاستفادة من منهجيَّة الاستنباط في تنزيل هذه المحاور على الواقع السياسي.

وللاستنباط علاقة أصيلة جداً بمبحث فقه التنزيل الذي أشرنا إليه مسبقاً، فإنْ كنَّا قد قرَّرنا من قبل أنَّ القرآن الكريم دائم التنزيل بمعناه إلى يوم القيامة، وأنَّه هناك من الآيات التي لم تتنزل إلا في واقعنا، **فإنَّ الاستنباط هو الضابط الحقيقي لمنهجيَّة تنزيل هذه الآيات على واقعنا السياسي.**

وقد زلَّ في هذا الباب الكثيرون، أيْ: الاستنباط من هذه المصادر وتنزيلها على الواقع المعاصر، لهذا كان لا بدَّ من وضع ضوابط متفق عليها لضبط آلية تنزيل هذه المصادر المرجعيَّة على الواقع السياسي المعاصر، وهذا هو مدار الجهد الحقيقي في هذه النظريَّة.

إنَّ النظرية حتى تكون صالحة للتطبيق لا بُدَّ لها من آلياتٍ واضحة ومنهجيَّة تنقلها للواقع حتى تقوم الحجَّة على من يقول إنَّ هذا العمل عملٌ تنظيريٌ ولا يخرج عن كونه أفكاراً تصلح للمجامع الفكرية واللقاءات الحواريَّة، بل إنِّ إقرار المرجعيَّة لا يكون إقراراً صادقاً قبل أنْ يتحول الاستنباط إلى منهجٍ حقيقيٍّ يُدير العمليَّة السياسيَّة.

لهذا فإنَّ العمل للاستنباط يحتاج إلى:

١) الإيمان الكامل بشموليَّة النصوص التي يكون من خلالها علاج الواقع السياسي.

٢) تشكيل هيئة الاستنباط التي يجب أنْ يكون لها مكان في أروقة صنع القرار السياسي والسلطة ضمن إطار أولي الأمر.

٣) التعامل مع نتائج الاستنباط على سبيل العمل والتطبيق والتنفيذ.

وكما وضحنا سابقاً فإنَّ النظريَّة تعمل على علاج الواقع السياسي من خلال ربطه بالنصِّ ضمن خصائصه

الحركيَّة كما عبرنا عنه (**بضبط حركة الكتلة بحركة النصِّ الشرعي**).

ويكون ذلك من خلال الخطوات التالية:

أولاً: دراسة النظرية السياسيَّة وشكل العلاقة مع المرجعية للكتلة.

ثانياً: رفع الكتلة الإسلامية سواءً أكانت جماعة أو دولة.

ثالثاً: دراسة الواقع السياسي.

الأول: النظرية السياسية وشكل العلاقة مع المرجعية للكتلة، ويكون ذلك من خلال دراسة هذه المحاور في الكتلة:

١) وجود مؤسسات تشرف على ضبط المرجعية في واقعها.

٢) وجود مصنفات خاصة تضبط علاقة الكتلة مع المرجعية.

٣) مكانة المرجعية في اتخاذ القرار السياسي.

٤) انعكاس المرجعية على المناهج التربوية في الكتلة.

الثاني: نموذج رفع الكتلة الإسلامية سواء أكانت جماعة أو دولة :

ويكون من خلال ثلاثة أمور:

١) رصد الواقع السياسي للكتلة الإسلامية من خلال المحاور السياسيَّة الخمس.

٢) تحديد نقاط ومحاور الخلل في الكتلة.

٣) تحديد موقع الكتلة من خلال المراحل السياسية الستة في السيرة النبوية، بعد إصلاح نقاط الخلل.

فأمَّا الأولى وهي رصد الواقع السياسي للكتلة الإسلامية فيكون من خلال دراسة المحاور الخمسة كالتالي:

أولاً: نظام الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم أو القيادة بالقاعدة فيكون من خلال دراسة ما يلي:

١) الثقة بين القيادة السياسيَّة والقاعدة الشعبية.

٢) أسس اختيار القائد أو الحاكم والمنهجيَّة المتَّبعة في ذلك.

٣) نظام الحكم السياسي.

٤) مستوى الرَّقابة على القيادة السياسية.

٥) الفترة الزَّمنية للقيادة السياسية.

٦) قدرة القيادة على توزيع المهام الأساسية.

٧) نسبة الفاعلين في الكتلة السياسية.

٨) قيام الأفراد بأداء واجباتهم السياسية.

ثانياً: منظومةُ الدَّعوة والمواجهة ويكون من خلال دراسة ما يلي:

١) أدوات المواجهة المستخدمة في ظلِّ المرحلة الحالية.

٢) تحديد الاستراتيجية العامة للكتلة الإسلامية في المواجهة .

٣) أدوات تطبيق هذه الاستراتيجيَّة.

٤) تطور الأدوات واختلاف الاستراتيجيات في الفترات الزمانية السابقة.

ثالثاً: علم الاقتصاد السياسي ويكون من خلال دراسة ما يلي:

١) مصادر الدَّخل واستراتيجيات التنمية المالية.

٢) سياسة الإنفاق والمنهجيَّة المتبعة في ذلك.

٣) سياسة الرقابة والحماية على المال.

رابعاً: علم الاجتماع السياسي ويكون من خلال دراسة ما يلي:

١) التشكيلات والكتل السياسية خارج المشروع.

٢) دراسة التشكيلات والكتل داخل المشروع الإسلامي ومستوى الانسجام والاختلاف فيما بينهم.

٣) دراسة الكتلة نفسها من حيث العدد والنسبة التي تشكِّلها في المجتمع وقدرة الكتلة على التأثير في الكتل المحيطة القريبة والبعيدة.

خامساً: علم النَّفس السياسي ويكون من خلال دراسة الخطاب الموجَّه لكلِّ كتلةٍ سياسيَّة خارج المشروع وداخله، وتغيُّر الخطاب بتغيُّر المرحلة، بعد فرز الكتل الدَّاخلية والخارجية في علم الاجتماع السياسي ونرصد فيه:

١) نوع الخطاب الموجه للكتل المصنفة وأدوات تبليغه.

٢) رصد أدوات التواصل وفاعليتها.

٣) تطور الخطاب السياسي للكتل المختلفة الداخلية والخارجية عبر السنوات الماضية.

٤) قدرة الكتلة على تغيير خطاب الكتل المحيطة، والعمل على منهجيَّات التخذيل، وتحييد من تستطيع تحييده.

وبعد أنْ تتمَّ دراسة النظرية السياسية والمحاور الخمسة كافَّة لواقع الكتلة الإسلامية يتمُّ بعدها تحديد نقاط الضعف والخلل في الكتلة ليتمَّ علاجها في ظلِّ المرحلة السياسيَّة كما سيأتي.

وبعد تحديد نقاط الضَّعف والخلل في الكتلة ووضع منهجيات علاجها وإصلاح الخلل ستكون الكتلة قابلة للقياس على واحدة من المراحل النبويَّة الستة، وهذا يستلزم منَّا ما يلي:

١- عمل دراسة شاملةً للمراحل السياسية الست في السيرة النبوية من خلال المحاور الخمسة، ثمَّ تقييم كلِّ مرحلة بحسب كل محور، وهذا ما أسميناه بالقراءة السياسيَّة للسيرة النبويَّة ولا زال العمل قائماً فيه إلى الآن.

٢- بعد أنْ تمَّت دراسة واقع الكتلة الإسلامية وعمل تقييم للمراحل السياسية الست في السيرة النبوية، يتمُّ ومن خلال قيد المرحلة تحديد موقع الكتلة الإسلامية بحسب كلِّ مرحلة من المراحل السياسية الست.

٣- بعد تحديد موقع الكتلة الإسلامية بحسب المرحلة التي توازيها في السيرة النبوية، يتمُّ بعدها تحديد الاستراتيجيات والمنهجيات الواجب على الكتلة اتباعها بحسب كل محور.

ثالثاً: نموذج دراسة الواقع السياسي:

ذهب جمهور السياسيين إلى دراسة الواقع السياسي عبر الرصد العام لمخرجات العمليَّة السياسيَّة من تصريحات ومؤتمرات، وتقارير ودراسات وتحليلها، ومحاولة البحث عن المصالح المشتركة أو المتعارضة بين الأطراف المتنازعة سياسياً، وبناء الاستراتيجيَّات والمنهجيَّات اعتماداً على دراسة هذه الظواهر، ويبحث السياسيون أيضاً في علم الدراسات الاستراتيجية رصد خطط العدو ومحاولة القراءة السياسيَّة للمنظومة الفكرية والأيدلوجية والعسكرية والاستراتيجية لهذا العدو، وتفكيك هذه البُنية عبر أدوات التحليل المختلفة، وإن كنَّا نتفق معهم في بعض أدوات دراسة الواقع السياسي إلا أنَّنا نختلف معهم في استخدام هذه الأدوات من حيث نسبتها في إصدار الحكم على الواقع السياسي، كما أنَّنا نضيفُ إلى هذه الأدوات أداة أخرى تترجم لنا إيماننا بالمصادر المرجعيَّة الإسلاميَّة تتمثَّل في القراءة النصيَّة للواقع السياسي.

وقد قسمنا أدوات رصد الواقع السياسي إلى ثلاثة محاور لكلٍّ منها نسبة معينة من مجموع النسب الكليَّة، كالتالي:

المحور الأول: القراءة النَّصيَّة للواقع والمستقبل السياسي بأدوات النصوص الشرعيَّة من القرآن والسنة، ولها النسبة الأكبر من محاور رصد الواقع السياسي، وشعارنا في هذه المحور قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم)[1] وتكون على النَّحو التالي من خلال:

أولاً: علاج الواقع بالقوانين والسنن: تعتبر القوانين والسُّنن هي الضابط العام للشمولية، ويكون علاج

(١) سنن الترمذي حديث رقم (٢٩٠٦) ٥/ ٢٢، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ١٩٩٨م.

الواقع بها من خلال استقراء هذه القوانين والسنن التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل من القرآن الكريم والسنة النبوية ومحاولة الاستعانة بها في تنزيلها على الواقع السياسي لدراسة التصرفات والأفعال ونتائجها ومخرجاتها وذلك مثل: القوانين والسنن التي جاءت في سورة الإسراء وهي ستة وعشرون قانوناً وسنة واحدة، ومثل سنَّة القضاء على المنافقين كما جاءت في سورة التوبة والأحزاب، ومثل قانون التغيير الذي جاء في سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ (الرعد ١١)، وقد تمَّ التفصيل في هذا المبحث من قبل.

ثانياً: علاج الواقع بالقصص ورصد نتائجها الحتميَّة: حيث تمثِّل القصص الضابط العام لمعالجة الماضي التي يصدق عليها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (فيه نبأ ما قبلكم)، وتكون هذه القصص هي الترجمة العمليَّة للقوانين والسُّنن لا أنها ترسمُ لنا منهجيَّة جديدة للدَّعوة والسياسة، ومثال ذلك: قصَّة يوسف -عليه السلام- والتمكين الجزئي لمشروع التوحيد، وقصة موسى -عليه السلام- مع فرعون واستراتيجية الاستفزاز المستخدمة من قبل فرعون ونتيجتها الحتمية في انتصار أهل التوحيد والمعبَّر عنها في الآية: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ (الإسراء ١٠٣).

ثالثاً: علاج الواقع بالأمثال من القرآن والسنة: تعتبر الأمثال هي حلقة الوصل الأولى بين الكون المنظور والكتاب المسطور، حيث جاءت الأمثال في القرآن الكريم لتترجم لنا القوانين والسنن المبثوثة في كتاب الله تعالى، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنَّ إدراك هذه الأمثال في القرآن الكريم لا يكون إلا بالتعقل الكامل وهي الإحاطة الكاملة بالعلاقة الدقيقة بين المشبَّه والمشبَّه به حيث يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٣)، وهذا التعقل الكامل لا يكون إلا بالعلم والتفكُّر فيقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر ٢١)، وفي مثل هذا يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- تعالى: (إنَّ أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وأنها شبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب للمعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر)[1]، وفي بحث بعنوان: (الأمثال في القرآن الكريم خصائصها التربوية وسماتها البيانيَّة) يقول المؤلف: (المثل: أسلوبٌ بياني بليغ، يعبُّر عن خلجات النفس، وكوامن الحسُّ، ويبرز المعقول في صورة محسة، ويكشف عن الحقائق التي يدقُّ فهمها، ويعرض الغائب في معرض الحاضر، وهو من أهمِّ الأساليب البيانيَّة المقنعة للعقل، والمؤثرة في الوجدان، وهو من أجل ذلك يحفر له في الذهن مكاناً، ويبقى في الذاكرة فلا ينسى، لذلك أكثر الله من ضرب الأمثال في القرآن الكريم بإبراز الحقائق السامية في معانيها، وأهدافها وصورتها الرائعة، بصياغتها في قالب حسِّي يقرِّبها إلى الأفهام لتتعظ وتعتبر، فالأمور الحسِّية واضحة، أمَّا الأمور العقليَّة فهي خفيَّة تحتاج إلى توضيح وبيان، فلأجل ذلك ضربت الأمثال، لينجلي للنفس المعنى، وتأنس به، وتتبينه فضل تبيين)[2]،وقد ضرب الله لنا في القرآن الكريم أمثالاً كثيرة من مثل تشبيه الكلمة الطيبة

---

(١) الأمثال في القرآن الكريم: المقدمة ص١، ابن قيم الجوزية، الصحابة-مصر-طنطا، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم : خصائصها التربوية وسماتها البيانية ، سامي عطا حسن، مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلد ٣٨، العدد ١، ٢٠١١، جامعة آال البيت.

بالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم ٢٤-٢٦)، ومن مثل تشبيه القاسية قلوبهم بالحجارة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة ٧٤)،وقد ضرب الله لنا في القرآن الكريم مثلاً في العنكبوت، حيث يمثّل العنكبوت بمنهج حياته واستراتيجية بناءه وفلسفة وجود حالة مجتمع الكفر، حيث نستطيع أنْ نستنبط منهجيَّة أعداء الأمَّة في التخطيط والتدبير ورسم الاستراتيجيات في عدائهم مع أمَّة التوحيد من خلال القراءة الدقيقة لمنهجيَّة العنكبوت، ونستطيع كذلك أن نرسم هيكل مجتمع الإيمان في بنائه وتحصيناته وتعزيزاته للحفاظ على كينونته الذاتية مؤمناً ومتصلاً بعقيدته في نموذج النَّملة التي تجسِّد مجتمع الإيمان في المرحلة المكية، ونجد كذلك في مجتمع النحلة ما تستطيع الأمَّة المسلمة أنْ تبني منه منظومته السياسيَّة والهيكل الاجتماعي العام التي تحقق به السيادة وحسن الريادة، ولذلك نجد أنَّ منظومة النحلة تمثل مجتمع الإيمان في المرحلة المدنية.

وقد سُقنا هذه الأمثلة هنا في هذا المبحث للتدليل على أنَّه يمكن لنا ومن خلال منهجيَّة الأمثال في القرآن الكريم من العمل على الوصل بين الكون المنظور والكتاب المسطور في رسم سياسة هذه الأمَّة، وقد أخبرنا الله تعالى أنَّ الناس أمام هذه الأمثال مؤمن وكافر، وأنَّ الله لا يستحيي من ضرب هذه الأمثال فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة ٢٦)،وقد كان أوَّل درس للبشريَّة في التعليم هو ما كان من سياسة الغراب في تعليم أحد ابني آدم فقال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ (المائدة ٣١)، وأخيراً فإنَّ في الأمثال في القرآن الكريم ما فيه بيان كلِّ شيء، وأنَّ في الكون المنظور ما يُستعان به في رسم سياسيَّة الأمَّة لمن عقل وتفكر وتدبَّر، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف ٥٤)، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر ٢٧)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام ٣٨)، وسيكون لهذا المبحث مصنَّفٌ خاص إن شاء الله تعالى.

رابعاً: علاج الواقع بالنُّصوص الإخباريَّة من القرآن والسنة: وهي النصوص التي جاءت لتصف خبراً في المستقبل أو حقيقة علميَّة أو تقريراً لشيءٍ من علم الغيب أو وصفاً لمرحلة ما بعد الموت، وما يعنينا هنا هي النُّصوص التي تصف واقعاً محدَّداً تعيشه الأمَّة أو ترسم مستقبلاً معيَّناً، وذلك من مثل الإفساد الثاني لبني إسرائيل

المعبَّر عنه في الآية الكريمة: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ (الإسراء ٤-٦)، وقد كان لنا في هذه الآيات جهدٌ تفصيليٌّ لرصد واقع الصراع ومستقبله مع بني إسرائيل على أرض الإسراء في كتاب دليل المرابطين في تحرير فلسطين فليراجع في محله، ومن مثل الولادة الثانية للمشروع الإسلامي التي تعقب الملك الجبريَّ بخلافة راشدة على منهاج النبوَّة المعبَّر عنها في الحديث الشريف: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تكون النبوَّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثمَّ يرفعها الله إذا شاء أنْ يرفعها، ثمَّ تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثمَّ يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون، ثمَّ يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثمَّ تكون مُلكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثمَّ يرفعها الله إذا شاء أنْ يرفعها، ثمَّ تكون خلافة على منهاج النبوَّة، ثمَّ سكت)[١]، ومن الأمثلة على النصوص الإخباريَّة الأحاديث التي جاءت لتصفَ لنا الشام والعراق وما شابهها من المواقع الجغرافيَّة والتي نذكر منها هذا الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنَعَتِ العراقُ قَفيزَها ودِرهَمَها، ومَنَعتِ الشَّامُ مُديَها ودينارَها، ومَنَعت مِصرُ إرْدَبَّها ودينارَها، ثم عدتُم من حيث بدأتُم» -قالها زهيرٌ ثلاث مرات-، شهد على ذلك لحمُ أبي هريرةَ ودَمُه»[٢]، وقد تمَّ التفصيل في مبحث النصوص الإخباريَّة من قبل في مبحث فقه التنزيل.

خامساً: دراسة فقه الصِّراع وترتيب أعداء الأمة وتفاصيل مواجهتهم: فقه الصِّراع: هو عبارة عن منظومة نرصد فيها استراتيجيَّات وسلوكيَّات أعداء الأمَّة الإسلاميَّة والمنهجيَّات المتبعَة في إدارة العلاقة معهم بوصف القرآن والسنَّة، لأننا نعتقد أن في آيات القرآن الكريم تفاصيل رحلة الصراع مع الباطل، وكيفية مواجهته، وبيان حقيقته وسلوكه واستراتيجياته ومنهجياته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام ٥٥).

وتتمُّ دراسة الأعداء في فقه الصراع من خلال ما يلي:

١) رصد أوصافهم ومسمَّياتهم.

٢) الخروج بأهمِّ الخصائص الفكريَّة والسلوكيَّة والمنهجيَّة التي يتمتَّع بها كل عدوّ.

٣) دراسة مبرِّرات ودوافع العداء لكلِّ عدوٍ على حدة.

---

(١) مسند الإمام أحمد حديث رقم (١٨٤٠٦) ٣٠/ ٣٥٥، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد، إشراف: د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(٢) سنن أبي داود حديث رقم (٣٠٣٥) ٤/ ٦٤٣، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٤) استخلاص أدوات ومنهجيَّات مواجهة كل عدو.

وفقه الصراع يُعنى بدراسة أعداء المشروع الإسلامي الرئيسيَّة، أيْ أنَّ فقه الصراع يعطينا الكليَّات، بخلاف علم الاجتماع السياسي الذي يُعنى بدراسة الكتل الدَّاخلية والخارجية لكنْ بأكثر دقَّة وتفصيلاً، وعلم الاجتماع السياسي معتمِدٌ على فقه الصراع، بحيث أنَّ فقه الصراع يفرز لنا أهمَّ الكتل التي ترأس منظومة الصراع مع الكتلة الإسلاميَّة، وعلم الاجتماع السياسي يفرز لنا بالإضافة إلى الكتل الرئيسيَّة الكتل الأخرى التي تتفرَّع عنها.

ورحلة الصراع مع كتلة التوحيد ليست وليدة لحظة معيَّنة، بل هي قديمة بقدم الإنسان منذ أنْ خلقه الله – عزَّ وجل –، حيث كانت أولى رحلات الصراع مع الإنسان حينما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (الكهف ٥٠)، حيث أعلن إبليس حينها بداية المعركة التي لن تنتهي آمادها إلى يوم القيامة فيقول: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف ١٦-١٧)، ويقول في موضع آخر: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر ٣٩-٤٠)، ومن ذلك الحين بدأت رحلة صراع الإنسان مع رأس منظومة الصراع وهو الشيطان، وذلك حينما أمر الله آدم بالهبوط إلى الأرض وإعلان العداء المستمر مع الشيطان في حركة مستمرَّة لن تنتهي، فقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الأعراف ٢٤).

وقد استقرأنا كتاب الله عز وجل فوجدنا فيه (مجموعة من الآيات) التي ذكرت الشيطان وإبليس والطاغوت، واستخرجنا من هذه الآيات مجموعة استراتيجيات الشيطان في صراعه مع الإنسان، يقسِّمها على خمسة كتلٍ رئيسيَّة يدير بها الشيطان استراتيجيته في الصراع وهم كالتالي:

أولاً: اليهود.

ثانياً: النصارى.

ثالثاً: الوثنيون.

رابعاً: المنافقون.

خامساً: المنحرفون فكريَّاً وعقائدياً.

وهذه هي الكتل الرئيسيَّة الكليَّة لأعداء المشروع الإسلامي التي تتمُّ دراستها في مبحث فقه الصراع.

وقد سبق أنْ قلنا من قبل أنَّ العقل البشري لا يمكن أن يفكر في فراغ، لهذا فإن معسكر الصراع ينقسم إلى نوعين:

أولاً: معسكر المرجعيَّة.

ثانياً: معسكر إبليس.

وقد عبرَّ القرآن الكريم عن هذين المعسكرين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء ٧٦)، وتشير الآية إلى أنَّ مصدر الكيد والتخطيط هو الشيطان، لكنَّ الشيطان يكون ضعيفاً في حال كمال الاتصال بالمرجعيَّة مع التطبيق فقط، أمَّا في حال الانفصال عن المرجعيَّة فالحال على خلاف ذلك.

وقد أخبرنا الله تعالى أنَّ الشيطان هو العدوُّ الأوَّل والحقيقي للإنسان، والذي يجب علينا أنْ نتخذه عدوّاً لنا فقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (فاطر ٧)، وحزبه هم من ذكرنا من قبل: اليهود، والنصارى، والوثنيين، والمنافقين، والمنحرفين فكرياً وعقائدياً.

وقد أفردنا لهذا المبحث جهداً خاصّاً، ولا زال العمل عليه قائماً إلى الآن، ويكفي أنْ نشير هنا في عجالة إلى اليهود وصور من استراتيجياتهم في الصراع مع الكتلة المسلمة:

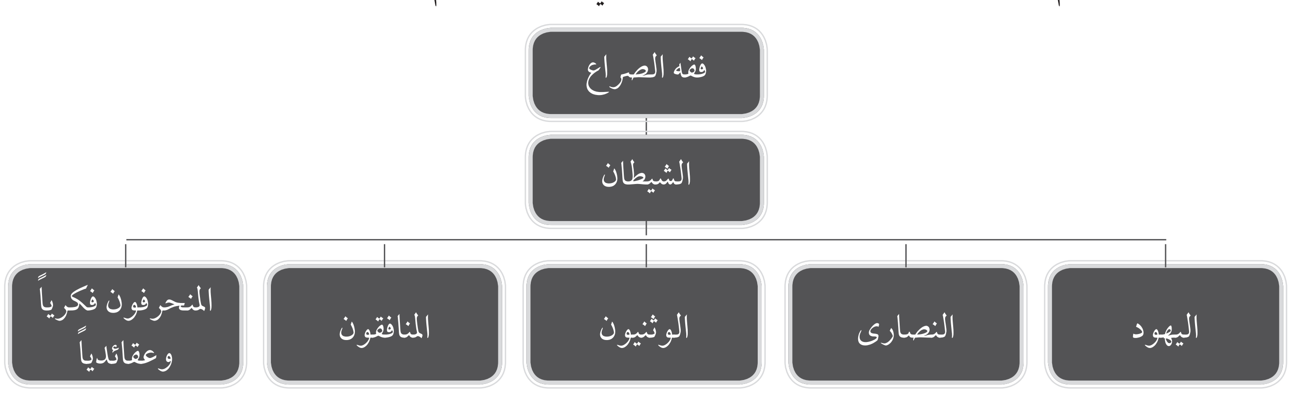
لقد ذكر الله -عزَّ وجل- لنا استراتيجية اليهود في التفكير وإدارة الصراع معهم في أكثر من آية، ونشير إلى ثلاثة منها فقط:

الأولى: جاء في الآية الكريمة في سورة الحشر: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ ﴾ (الحشر ١٤)، حيث جاء في الآية حرف النفي (لا) متصلاً بالفعل المضارع (يقاتلون) بعدها (جميعاً) وهي حال بمعنى مجتمعين، باستعمال أداة الحصر (إلا)، للدلالة على أنَّ اليهود لا يمكنهم أن يقاتلوكم مجتمعين إلا في حال كونهم في قرىً ذات تحصين عسكريٍّ كبير جداً، ومن وراء الجدران والأبنية متترسين خائفين، وقد جاء القرآن الكريم بالفعل المضارع (يقاتلونكم) للدَّلالة على ديمومة حالهم واستمرارهم على هذه الاستراتيجية في القتال، وما يقوم به اليهود اليوم من بناء الجدران واعتبارها أهمّ أدوات حفظ العُمق الأمني لهم كما قالها نتنياهو في كتاب مكان تحت الشمس، نابعٌ عن هذه الاستراتيجية التي ذكرت في القرآن الكريم.

الثانية: قال الله تعالى: ﴿ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾ (الحشر ١٤)، وهي جملة استئنافية للدَّلالة على حالهم، وقد ذكر الله لنا في هذه الآية أنَّ اليهود في حال كون الصراع فيما بينهم صراعاً داخلياً فسترى بأسهم وقوّتهم فيما بينهم شديدة، وهذا نابعٌ عن كون قلوبهم متفرّقة، لكنَّ الناظر إليهم من بعيد سيظنهم ويحسبهم مجتمعين لا خلاف بينهم، ومن تتبَّع أخبار اليهود اليوم وما يجري بينهم من خلافاتٍ داخليَّة سيرى أنَّهم أحزابٌ وملل متنافرة متناحرة فيما بينها، كلٌّ منها يسعى لتحقيق الأهداف التي تخدم مصلحتها فقط، فالناظر إلى كيانهم بالجملة يراهم متراصِّين متلاحمين، لكنَّ حالهم على خلاف ذلك كما لا يخفى.

الثالثة: قال تعالى: ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ ﴾ (البقرة ٦١)، وفي هذه الآية يبيِّن القرآن الكريم لنا أنَّ الله قد ألصق الذلَّة والمسكنة باليهود وضربهم بها، فهي منحوتة في عقولهم نحتاً، وقد رأينا في عصرنا كيف أنَّ اليهود

استخدموا الهولوكوست القائم على المظلوميَّة بمنهجيَّة الذلَّة والمسكنة في استجداء العالم في بناء دولتهم وحافظوا عليها كعقيدة استراتيجية راسخة في الحفاظ على مكتسباتهم، وهذه أحد الاستراتيجيات التي يتبعها اليهود اليوم لكسب الحلفاء لهم بإظهار المظلوميَّة من القوى الإسلاميَّة التي تُحيط بدولتهم المزعومة.



سادساً: رصد الكتل المحيطة بالمشروع الإسلاميِّ بمنهجيَّة علم الاجتماع السياسي: ويتمُّ ذلك من خلال ما يلي:

١) رصد جميع الكتل المحيطة بالمشروع الإسلامي التي ذكرت في القرآن الكريم والسنة النبوية من حيث صفاتها وخصائصها ومن ثمَّ تصنيفها.

٢) رصد جميع الكتل المحيطة بالمشروع الإسلامي في الواقع السياسي، ومن ثمَّ توزيعها على مثيلتها من الكتل التي ذكرت في القرآن الكريم.

٣) تحديد الاستراتيجيات للتعامل مع كلِّ كتلةٍ على حدة من خلال علم النفس السياسي المستنبط من القرآن والسنة.

سابعاً: استخراج التوجيهات والأحكام المترتبة في كلِّ مرحلة: وقد ضبطنا هذه الأحكام والتوجيهات بعلم التبديل الذي ارتبط بتبدُّل الأحكام بتبدُّل الظروف والأحوال، وعلم التبديل مرتبطٌ مباشرةً بفقه التنزيل حسب كلِّ مرحلة، وحتى يصح لنا أنْ ننزِّل هذه الأحكام والتوجيهات تحت بندِ التبديل والتنزيل لا بدَّ لنا:

أنْ نضبط محاور العمليَّة السياسيَّة الخمسة في القرآن الكريم بوحدةٍ موضوعيَّة واحدة بحيث تجمع كل الأحكام في كلِّ محورٍ على حدة بحسب كلِّ مرحلة.

ثمَّ:

نقوم بترتيبها حسب النزول بتنزيل هذه الأحكام على المراحل السياسيَّة الست متسلسلةً بما يتناسب وكلُّ مرحلةٍ سياسيَّة على حسب نزولها.

ثمَّ:

يكون تنزيل كلِّ حُكم سياسيٍّ على الواقع مقيَّداً بالمرحلة الشبيهة للمرحلة التي نزل فيها الحكم، بالاستعانة بما ذكرناه من قبل في قيد المرحلة، وهذا ما أسميناه بالتفسير السياسي للقرآن الكريم، ولا زال العمل عليه قائماً إلى الآن.

ويكون ضبط هذه الأحكام والتوجيهات أيضاً عن طريق قراءة الواقع السياسي بالاستعانة بعلم الفقه الذي يُعنى بدراسة الأحكام والتوجيهات العمليَّة، ودراسة هذه الأحكام مع دراسة فعل الكتلة يخرج لنا النتيجة النهائيَّة لهذه الأحكام والتوجيهات مضبوطةً بعلم الفقه مع قراءة الواقع السياسي.

المحور الثاني: إدراك وفهم آليات خطط الأعداء في المواجهة:

وهذا المحور جاء تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة ؟)[1].

جمعنا في منظومة الدَّعوة والمواجهة في المراحل النبوية الست أدوات المواجهة التي استعملها النبي -صلى الله عليه وسلم- في قيادة المشروع الإسلامي، فوجدنا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بدأ منذ بداية دعوته إلى حين اكتمال المشروع الإسلامي بالكليَّة برصد خطط الأعداء، وإرسال الطلائع الاستخباراتيَّة، ولم تتوقَّف ظلال هذه الحركة طيلة ثلاث وعشرين سنة.

وقد كان سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، يستطلع أخبار العدو، ولا يُتيح لهم أنْ يستطلعوا خبراً من أخباره، وكان هذا أهم الأسباب التي حافظ فيها سيدنا خالد على تفوُّقه العسكري.

وفي واقعنا المعاصر باتتْ أدوات الاستطلاع أسهل من ذي قبل، وفي حالة إذا وجد المشروع الإسلامي فنستطيع من خلاله: تحليل العدو وتقييم سلوكه، ورصد استراتيجيَّاته مع المشروع الإسلامي.

وحتى نستطيع استطلاع خبر القوم لا بدَّ لنا مراعاة المحاور التالية:

١) قراءة منهجيَّة الأعداء في التفكير.

٢) تحليل القواعد العامَّة التي ينطلق منها أعداء الأمَّة.

٣) قراءة تقديريَّة للإمكانيَّات والقدرات المتاحة.

٤) دراسة الأهداف الاستراتيجيَّة والمرحليَّة لهم حسب الأهميَّة والأولويَّة.

٥) رصد نتائج المؤتمرات، ودوائر اتخاذ القرار لديهم.

وقد أفرد الشيخ سعيد حوى -رحمه الله- في كتابه: «جند الله ثقافةً وأخلاقاً» لهذا المحور علماً خاصاً أسماه: (**علم التحديات والمؤامرات**)، يبحث في هذا العلم معرفة العدو، ومعرفة تحدياته، ومعرفة مؤامراته ومخطَّطاته، حيث يقول الشيخ سعيد حوى -رحمه الله-: (ولكنَّ المسألة أكبر من ذلك، فلا بدَّ من ملاحقة المخططات ومعرفتها،

وفضحها والبحث عنها في ثنايا ما يكتب وما يخفى، وفي الهمسات والاقتراحات والمؤتمرات ...)[1]، وقد أفرد الشيخ أيضاً في كتابه: «جند الله تخطيطاً» في الفصل الثالث عشر مبحثاً بعنوان: **(في التخطيط لدرء مخطَّطات الخصوم)** حيث يقول: (إنَّه لا بدَّ من رصد الفكر المعادي للإسلام أو المنحرف عنه، وكذلك السلوك المنحرف عن الإسلام المعادي له، ولا بدَّ من التخطيط المكافئ والعمل المزيل لآثار هذا الفكر والسلوك)[2].

وحتى نفرِّق بين دراسة هذا المحور وبين فقه الصراع نقول: أنَّ دراسة فقه الصراع مع العدوِّ يكون من خلال دراسة المرجعيَّة من حيث الواقع، ودراسة محور فهم خطط وآليات العدو من حيث التطبيق يكون من خلال دراسة الواقع السياسي كما هو، ففقه الصراع وهذا المحور قد يشتركان في دراسة بعض الأهداف الاستراتيجيَّة للأعداء، وقد اهتمَّت مراكز الدراسات الاستراتيجيَّة في العالم بالعنايَّة في هذا المحور كثيراً، لكنْ من حيثيَّات معيَّنة فقط.

المحور الثالث: رصد الواقع العام وتداعيات اللحظة:

وفي هذه المحور يتمُّ رصد الواقع العام في لحظته، من خلال البحث في الأخبار والمواقع والمتابعة اليوميَّة الحثيثة للأحداث، ورصد التصريحات والمؤتمرات، وتحليلها وتفكيك بُنيتها، وهذا المحور هو الذي تقوم عليه أغلب مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية في العالم العربي والإسلامي، وقد يكون هذا المحور هو الأداة الرئيسيَّة في اتخاذ القرار السياسي عند أغلب قيادات العمل السياسي الإسلامي.

وبعد تحقيق النَّموذجين من رفع الكتلة ودراسة الواقع نستطيع أنْ نحدِّد التوجيه المباشر لصياغة الاستراتيجيات والمنهجيات لهذه الكتلة ورسم السياسات العامَّة في المواجهة، والمنهجيَّة المتَّبَعَة لإدارة حركة الكتلة بحركة النَّص.

المبحث الخامس:
توزيع المهام والأدوار على الأمة

إعداد الاستراتيجيات والمنهجيات على المستوى التخطيطي الكلي للكتلة المسلمة لن يتحول إلى منهجٍ تطبيقيٍّ لمختلف طبقات وأفراد الكتلة إلا بأدوات منهجيَّة في توزيع الأدوار والمهام.

وحتى نضبط الكلام في استراتيجيَّة توزيع المهام على الأمَّة لا بدَّ لنا أن نتكلَّم في شقَّين:

الأوَّل: استراتيجية توزيع المهام والأدوار على الأمَّة في القرآن الكريم بمنهجيَّة علم الاجتماع السياسي.

الثاني: استراتيجية توزيع المهام والأدوار على الأمَّة في السنة النبويَّة بمنهجيَّة توزيع الأدوار على الصحابة.

---

(١) جند الله ثقافة وأخلاقا ١٧٢، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة السابعة: ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

(٢) جند الله تخطيطا ١٤٥، سعيد حوى، مكتبة وهبة-القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

الأولى: استراتيجية توزيع المهام على الأمَّة في القرآن الكريم بمنهجيَّة علم الاجتماع السياسي:

جاء القرآن الكريم بكثيرٍ من ألفاظ الجموع لكلٍّ منها مدلولٌ مستقلٌ ومغايرٌ عن غيره من ألفاظ، وذلك بالتسليم بعدم وقوع الترادف في القرآن الكريم، حيث أنَّ كلَّ لفظ يدل على جمع في القرآن الكريم جاء ليعالج مهمَّةً معيَّنةً خاصَّةً، وكلُّ كتلة منها لها مهمَّتها المستقلَّة، وتكون دراسة مهام هذه الكتل وآليَّة توزيع هذه المهام والأدوار على الأمَّة من خلال ما يلي:

أولاً: رصد ألفاظ الجموع للكتلة الإسلاميَّة التي جاءت في القرآن الكريم.

ثانياً: دراسةُ كلِّ كتلة وردت في القرآن الكريم على حدة من حيث الصفات والمهام.

ثالثاً: الخروج بأهمِّ الخصائص والمهام التي تتميَّز بها كلُّ كتلة، وفرز كلِّ كتلةٍ على حدَة.

رابعاً: دراسة الكتل الإسلاميَّة في الواقع السياسي المعاصر، ومن ثمَّ عمل دراسة وتقييم شامل لحال كلِّ كتلة، ومن ثمَّ الخروج بأهمِّ الخصائص التي تتميَّز بها كلُّ كتلة وفرزها.

خامساً: بعد فرز كل كتلة جاءت في القرآن الكريم والواقع السياسي المعاصر والخروج بأهمِّ الخصائص والميزات، نقوم بتطبيق وتنزيل كلِّ كتلة سياسيَّة أو اجتماعيَّة أو اقتصاديَّة أو إصلاحيَّة أو دعويَّة على مثيلتها في القرآن الكريم.

سادساً: بعد تطبيق وتنزيل كلِّ كتلة على مثيلتها في القرآن الكريم، نقوم بتحديد المهامِّ التي يجب أنْ تقوم بها كلُّ كتلة بالقياس على مثيلتها في القرآن الكريم.

بهذا تتَّحد استراتيجيَّة كلِّ كتلة إسلامية في إدارة مهامها في الأمَّة، بما يتشابه مع مثيلتها في القرآن الكريم.

وتقسيم الأدوار على الكتل المسلمة إنما يكون على حسب تخصصاتهم وقدراتهم بمسميات القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة ١٢٢)، فعلى صعيد التشكيلات السياسية للأمة:

١) أنصار الله، وهذه الكتلة الأخص والأقل عددا، والتي أشار إليها سيدنا عيسى عليه السلام حينما قال للحواريين:

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ٥٢).

٢) حزب الله، وهي الكتلة التي تلي أنصار الله والأعم منها، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (المائدة ٥٦)، وقال: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ

﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (المجادلة ٢٢).

٣) جند الله، وهي الكتلة الأعم من كتلة أنصار الله وحزب الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ (الصافات ١٧١-١٧٣).

وعلى صعيد شراح الدستور وعلماء الأمة فالكتل هي:

١) أهل الاستنباط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (النساء ٨٣).

٢) الراسخون في العلم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (آل عمران ٧).

٣) الذي أوتوا العلم، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٩).

٤) أهل الذكر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (النحل ٤٣).

٥) العالمون، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٣).

٦) الخبراء، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ (الفرقان ٥٩).

أما عامة المسلمين فمنهم لا على سبيل الحصر:

(المسلمون- المؤمنون- المحسنون- المتقون - الشاكرون - المخلصون - الصابرون - القانتون - المنفقون).

وبهذه المنهجيَّة في توزيع المهامّ نستطيع تحويل الكتل الإسلاميَّة المتناثرة في زوايا الاهتمامات المختلفة من كتلٍ مستقلَّةٍ بذاتها إلى كتلٍ فاعلة متَّصلة بكيان المشروع الإسلاميِّ الكلي، لنرسمَ بهم لوحة النَّصر والتمكين، ممتثلين في ذلك قول الله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ (التوبة ١٢٢).

وهذا المبحث مُعتمدٌ على القول بأنَّه لا ترادف في القرآن الكريم، وأنَّ لكلِّ كلمة في القرآن الكريم مدلولٌ مميَّزٌ عن مثيلتها، فمدلول الذين آمنوا غير مدلول الذين أسلموا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، ومدلول جند الله كما في

الآيـة: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ مغايرٌ لمدلول حزب الله كما في الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ومدلول المتقين غير مدلول المحسنين كما في الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، وقد أفردنا لهذه المنهجية في توزيع المهام مباحث خاصة ولا زال العمل عليه قائماً إلى الآن.

الثانية: استراتيجية توزيع المهام على الأمَّة في السنَّة النبويَّة بمنهجيَّة مدرسة الصحابة التي شعارها حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمَّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)[1]:

إنَّ منهجيَّة توزيع المهام والأدوار في الأمَّة على الصحابة شكَّلت لنا حالةً من الشموليَّة في إدارة العمليَّة السياسيَّة، حيث كان لكلِّ صحابي دوره ومهمَّته السياسيَّة المستقلَّة التي شكَّلت بمجموعها مع المهام السياسيَّة الأخرى لكلِّ صحابي قالباً كاملاً من الشمولية في توزيع المهام المحوريَّة والفرعيَّة على المحاور السياسيَّة الخمسة، وهي تقوم على التالي:

أولاً: رصد جميع الصحابة والذين كان لهم دورٌ في إدارة المشروع الإسلامي ودراسة مهامهم وأدوارهم.

ثانياً: عمل دراسة شاملة لشخصيَّة كلِّ صحابيٍّ، ثمَّ الخروج بأهمِّ الخصائص والصفات التي تميَّز بها.

ثالثاً: تقسيم المهام السياسيَّة للصحابة في إدارة حركة المشروع الإسلامي إلى مهام محوريَّة، ومهام فرعيَّة.

رابعاً: رسم لوحة مفاتيح لتوزيع الأدوار والمهام على أفراد الأمَّة من خلال المشهد الكامل المستنبط من رصد أسماء الصحابة وأدوارهم.

خامساً: توزيع الأدوار على الأمَّة عبر إدراك الخصائص الشخصيَّة لكلِّ فرد، ومحاولة البحث عن ما يشابهها أو ما يماثلها من شخصيات الصحابة، ومن ثمَّ العمل بمهمَّة الصحابي الموصوف ضمن مدرسته السياسيَّة.

ومن الأمثلة على منهجيَّة توزيع المهام والأدوار على الأمَّة في مدرسة الصحابة:

- حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حيث كان يمثِّل الجانب الأمنيَّ للمشروع الإسلامي، فقد أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء جميع المنافقين في المدينة.

---

(١) صحيح مسلم حديث (٢٥٣١) ٤/ ١٩٦١، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، دون تاريخ.

- خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث كان يمثل الجانب العسكري في الأمَّة، ولم يغلب في معركة قطُّ في حياته، وهو أفضل من مثَّل القائد العسكريَّ الناجح.
- حسان بن ثابت رضي الله عنه حيث كان يمثل الجانب الإعلاميَّ للمشروع الإسلامي، من خلال أمر النبي صلى الله عليه وسلم له بالدفاع عن الدَّعوة من خلال شعره وهجائه لأعداء المشروع الإسلامي.
- عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه والذي كان يمثل مدرسة الإنفاق والبذل والعطاء.
- سعد بن معاذ رضي الله عنه ومدرسة النُّصرة، ومن ذلك ما فعله مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوتي بدر والأحزاب.
- أسعد بن زاررة رضي الله عنه ومدرسة العمل بصمت (الجندي المجهول)، والسبب الرئيسيُّ لتمكين المسلمين في المدينة.
- مصعب بن عمير رضي الله عنه ومدرسة الداعية المعلم.
- أبو ذر رضي الله عنه ومدرسة الزهد.
- ابن عباس رضي الله عنه ومدرسة التفسير والتأويل.
- أبو هريرة رضي الله عنه ومدرسة الحديث والرواية.
- ابن مسعود رضي الله عنه ومدرسة علوم القرآن.
- الخلفاء الراشدون ومدرسة القيادة السياسيَّة.
- العبادلة الخمس ومدرسة الاستنباط وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص.

وهذه الأمثلة تمثِّل لنا شكلاً من أشكال إدارة المهام المحوريَّة في الأمَّة، **لكن من لم يستطع أن يقوم بإدارة مهمة محورية في الأمَّة، فعليه أن يقوم بإدارة مهمَّة فرعية واحدة على الأقل لتشكيل نسيج كاملٍ لحركة الكتلة المسلمة في الأمَّة**، ومن ذلك ما قام به عبد الله بن أنيس رضي الله عنه كما يحدثنا في هذه الرواية: (دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنَّه قد بلغني أنَّ خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني» وهو بعرنة فأته فاقتله، قال: قلت: يا رسول الله انعته حتى أعرفه، قال: «إذا رأيته وجدت له قشعريرة»، قال: فخرجت متوشحاً بسيفي، حتى وقعت عليه بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلاً، حين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومىء برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع

بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيت معه شيئاً، حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبّات عليه، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآني فقال: «أفلح الوجه»، قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت»، قال: ثمَّ قام معي رسول الله فدخل في بيته فأعطاني عصا، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس»، قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرني أن أمسكها، قالوا: أَوَلا ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم القيامة، إنَّ أقلَّ الناس المختصرون يومئذٍ يوم القيامة» فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه، حتى إذا مات أُمر بها فضُمَّت معه في كفنه، ثم دُفنا جميعا)[1]، وعبد الله بن أنيس رضي الله عنه لم تذكر له مهمَّة محوريَّة كبيرة في الأمَّة إلا هذه المهمَّة الفرعيَّة الوحيدة التي تميَّز بها، والتي رفعت من قدره عند النبي صلى الله عليه وسلم حيث أعطاه العصا لتكون علامة وآية تشهد له يوم القيامة، **فالإنجاز الواحد قد يرفع من قدر المسلم إنْ أحسن صُنعا، وإذا لم تكن من أصحاب المهام المحورية في الأمَّة فلا أقلَّ من أن تكون لك مهمَّة هي علامة وآية مثل العصا ترفعها أمام النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.**

ومن الأمثلة على إدارة مهمَّة فرعية في الأمَّة ما قام بن أنس النضر رضي الله عنه والذي نزلت فيه آية كاملة تُتلى إلى يوم القيامة حيث جاء في الحديث التالي: (عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبتُ عن أوَّل قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليريَّن الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون، قال: اللهمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين- ثمَّ تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنَّة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أُحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قُتِل وقد مَثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه قال أنس: كنَّا نرى أو نظنُّ أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: «من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه» إلى آخر الآية)[2].

لذلك فإن فمنهجيَّة توزيع المهام والأدوار على الأمَّة تنقسم إلى قسمين:

الأولى: إدارة المهام المحوريَّة.

الثانية: إدارة المهام الفرعيَّة.

---

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ٥٢٩-٥٣٠، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٢٨٠٥) ٤/ ١٩، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

المبحث السادس:
دور العقل مع شمولية النّص

يطلق العقل عادة ويُراد به عدة معاني، فتارة يطلق ويراد منه المصلحة الراجحة فيقال مثلاً: عَقْدُ تحالف سياسي مع هذه الدولة هو عين العقل: أيْ المصلحة، وتارة يطلق العقل ويراد به الغريزة المدركة التي ميَّزَ الله بها الإنسان من الحيوان، وتارة يطلق ويراد به إدراك العلوم الضرورية التي يشترك فيها جميع العقلاء من مثل إدراك أنَّ السبب لا بدَّ له مُسبب، وتارة يطلق ويُراد به إدراك العلوم النَّظرية التي تحتاج إلى تأمُّل ونظر، لكن بالجملة نقول أنَّ العقل هو الآلة المدركة التي يستطيع بها الإنسان إدراك العلوم والمعارف إمَّا بطريق الضرورة، وإمَّا بطريق التفكر والتأمل.

وعلى أي حملنا معنى العقل فنقول: أنَّ دور العقل مع شموليَّة النص هو دورُ تكاملٍ لا دور تنافر، بمعنى أنَّ العقل هو الآلة التي يستطيع بها الإنسان أنْ يدرك كون نصوص القرآن والسنة شاملةً لكلِّ أجزاء العمليَّة السياسيَّة بالتركيب والتحليل والشرح والتنزيل، بل إنَّ فهم دلالات شموليَّة النصوص معتمدةً أساساً على إعمال العقول لا إهمالها، ولهذا فقد عاب الله على الذين لا يُعملون عقولهم في القرآن كثيراً فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٧٠-١٧١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة ٥٨)، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال ٢٢).

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٥-٤٦).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان ٤٤).

وقال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر ١٤).

إذن: فالذين لا يتبعون المرجعيَّة فلا عقل شرعي عندهم، ويكفي أنْ نقول أنَّ عمليَّة الاستنباط تحتاج إلى مجهود عقلي ضخم يكمن في استخراج واستنباط ما خفي من مقاصد النصِّ الشرعي، وذلك يحتاج إلى تفكر وتأمل عميقين لا يكمنان إلا عند أهل الاستنباط، وقد سبق أنْ قلنا أنَّ فقه تنزيل النصوص على الواقع السياسي يحتاج إلى تأمُّلٍ عميق في النصوص الشرعيَّة أولاً، ومن ثمَّ التأمل في الواقع السياسي ثانياً، وذلك يحتاج إلى مجهودٍ عقلي كما لا يخفى.



الفصل الرابع عشر

فقه التمكين

هذا الفصل متعلِّقٌ بنتيجة اعتماد المرجعيَّة التي قرَّرناها سابقاً في العمليَّة السياسيَّة، وفي هذا الباب تكون الإجابة عن السؤال التالي: إلى ماذا نريد أنْ نصل؟ وما هي الغاية المستفادة عند تطبيق ما جاء في هذه النظرية؟

المبحث الأول:
الرشد

تعريف الرشد :

الرشد لغة: من رشَدَ يَرشُد رُشْداً، فهو راشِد، والمفعول مرشود، ورشَد الشَّخصُ: اهتدى «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، (فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)»، ورشَد الصَّبيُّ: بلَغ سِنَّ الرُّشد، وهو سِنُّ التكليف في الشريعة، أو هو من رشِدَ يَرشَد، رَشَداً ورَشاداً، فهو رشيد، والمفعول مرشودٌ، رشِد فلانٌ: رشَدَ؛ اهتدى : (فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً)، (وما أَهْدِيكُمْ إلا سَبِيلَ الرَّشادِ)، ورشِد الشَّخصُ أمرَه: وُفِّق فيه: (رَبَّنا ءَاتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً)[1].

والمقصود بالرشد في منطق القرآن الكريم، هو ما يقابل الغي، فهو بمعنى **الهدى في مقابل الضلال والانحراف**، وهي مقابلة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ (الأعراف ١٤٦)، وكقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة ٢٥٦)، والغيُّ: هو الضلال والخيبة.

كما جاء استخدام الرشد في مقابل السَّفه، فيكون بمعنى **حسن التصرف والتدبير في مقابل خفَّة الرأي وضعف التدبير**، وذلك هو مفاد المقابلة ضمن الحديث عن رعاية شؤون الأيتام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ (النساء ٥-٦)، فقبل امتلاك الرشد يكون الإنسان ضعيف الرأي غير ناضج التصرُّف، وهو ما يعبَّر عنه بالسَّفه، فإذا تجاوز هذه الحالة أطلق عليه أنَّه راشد.

وجاء الرشد مقابلاً للشرِّ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ (الجن ١٠).

ومقابلاً للضرِّ في قوله عزَّ وجل: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ (الجن ٢١).

واعتبر القرآن الكريم الإيمان والتسليم بالمرجعيَّة والاستجابة الكاملة طريقاً للرشد في آيات قرآنية منها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ٨٩٤، د.أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، بتصرف يسير.

(البقرة ١٨٥)، فالاستجابة الكاملة لله والإيمان بما جاء به فيه مظنَّة تحقُّق صفة الرشد كما جاء في النصِّ القرآني.

وكما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ (الحجرات ٧)، ففيه إشارة بالامتنان بوجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المؤمنين، ووجه هذا الامتنان هنا كما جاء في التحرير والتنوير: أنَّ «كون رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم أمرٌ معلومٌ لا يُخبر عنه، **فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام**، ولو كانت غير موافقة لرغباتهم»[١]، وفي الآية إشارة إلى من اتبع منهجه وآمن بما جاء به فهو من الراشدين، ونقيض الرشد كما هو موضَّح في الآية هو إمَّا الكفر أو الفسوق أو العصيان، والرشد هنا كما يقول الإمام القرطبي في تفسيره هو: «**الاستقامة على طريق الحقِّ مع تصلب فيه**»[٢].

ومن خصائص مصطلح الرشد في القرآن الكريم ارتباطه بالقصص القرآني، حيث ورد في معظم موارده في سياق ذكر أخبار مؤمني الأمم السابقة كقصَّة أصحاب الكهف، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف ١٠)، وقال: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الكهف ١٧)،

وقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ (الكهف ٢٤)، وكقصَّة مؤمن آل فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر ٣٨)، ثمَّ ورد في سياق ذكر الجن الذين آمنوا بالقرآن، ودعوتهم قومهم واصفين القرآن الكريم بقولهم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ (الجن ١-٢).

وكما ورد أيضاً في سياق الحديث عن قصص كلٍّ من لوط-عليه السلام- حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (هود ٧٧-٧٨)، وفي قصَّة شعيب-عليه السلام- حيث قال الله: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف بالتحرير والتنوير ٢٦/ ٢٣٤، محمد الطاهر عاشور، الدار التونسية للنشر-تونس، ١٩٨٤م.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣١٤، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية-القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ (هود: ٨٤-٨٧)، وفي قصَّة موسى -عليه الصلاة والسلام- حيث قال الله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ (هود: ٩٦-٩٧).

كما ذكرت كلمة الرشد في الحديث النبوي:

عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْها بِالنَّواجِذِ»[1].

وبنفس الاستعمال ورد في نفس اللفظ بإحدى الخطب: عَنْ عَدِيِّ بن حاتِم، أَنَّ رَجُلاً خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقالَ: مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِما، فَقَدْ غَوى، فَقالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ»[2].

ولقد ورد الرشد بوصفه أمراً محسوساً يمكن لمسه في تصرفات الراشد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ (النساء ٥).

وما يقتضيه الرشد هو حسن التصرُّف، واتخاذ الموقف المناسب في الظرف المناسب بمرجعيَّة القرآن والسنة قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ (النساء ٥-٦).

إنَّ المتأمِّل في هذه الآية يجد أنَّ الله -عزَّ وجل- قد جعل شرط دفع الأموال لأصحابه من الأيتام هو أنْ نأنس منهم الرشد مع أنَّ هذا المال لهم وحقهم الذي حفظه الشرع لهم إلا أنَّ هناك شروطاً وضعها الله حتى تكون أهلاً لحقِّك المحفوظ.

ومثل ذلك يقال بأنَّ الله لن يدفع لنا حقَّنا الموعود بالنَّصر والتمكين والاستخلاف حتى يأنس منَّا الرشد ولذلك رسم الله لنا الطريق الذي نكون فيه قد حقَّقنا شروط الرشد سلوكاً، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

---

(١) سنن أبي داود حديث رقم: (٤٦٠٧) ٧/ ١٦، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٨٧٠) ٢/ ٥٩٤، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، دون تاريخ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (النور ٥٥-٥٦)، وطريق الرشد كما هو موضَّحٌ في الآية كشرطٍ للتمكين والاستخلاف **هو طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.**

وجاء في الآية: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ (الحجرات ٧)، ما يفيد التالي:

١) أنْ يكون النبي صلى الله عليه وسلم حيًّا بمنهجه في هذا الأمَّة الباحثة عن الرشد معياراً دقيقاً في الفهم والتطبيق.

٢) أن يكون الإيمان مستقرا في قلوبنا حباً واتباعاً .

٣) أن يكون الكفر ومشتقاته وتوابعه وأصحابه والطريق الموصل إليه مكروها ومبغوضاً قلبا وعملاً .

وقد أشار سيد –رحمه الله– إلى هذه الثلاثة في كتابه: «معالم في الطريق» تحت مبحث: «جيل قرآني فريد»، وقد أسمى الأولى: طبيعة النبع، والثانية: شعور التلقي للتنفيذ، والثالثة: خلع عباءة الكفر على أعتاب الإسلام، فليراجع[1].

هؤلاء هم الرَّاشدون حقَّاً الذين يستحقُّون أنْ يدفع الله لهم حقَّهم في سيادة أمرهم وإرضائهم ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (الحجرات ٨).

والمتأمِّل في واقع الأمَّة قد يستبعد هذا العطاء ويستبعد الطريق إلا أنَّ الله أخبرنا بقربه حينما نسأل عن عطاء الله مستجيبين له، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ (البقرة ١٨٥).

فهو إذن قريبٌ لمن أراد أن يقترب، وبعيدٌ جداً لمن أغلق سمعه وعميَ بصره عن نداء الاستجابة وكأنَّهم يُنادوْن من مكان بعيد، وكلَّما تقدَّموا في طريقهم زادوا بُعداً كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ (فصلت ٤٤).

والخلاصة: أنَّ الرشد هو عبارة عن النتيجة النهائيَّة لاعتماد المرجعيَّة كأساس لإدارة العمليَّة السياسيَّة، فعلاقة الرشد مع المرجعيَّة كعلاقة السبب مع مسبَّبه، والرشد السياسي هو الصِّفة الأساسيَّة التي يجب أنْ يتحلَّى بها أهلُ الاستنباط الذين أشرنا إليهم، كما أنَّ الوصول إلى حالة الرشد هي الطريق الموصل إلى التمكين والاستخلاف، ومن ثم تكون الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

(١) انظر: معالم في الطريق ١١-١٩، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، المتوفى: ١٣٨٥هـ، دار الشروق، الطبعة السادسة: ١٩٧٩م.

المبحث الثاني:
فقه التمكين

يأتي الكلام عن فقه التمكين في سياق الحديث عن كمال الاتصال بالمرجعيَّة أو عدمها، حيث يعتبر التمكين هو الحالة المثلى التي يسعى لها روّاد المشروع الإسلامي والمتصلون بالمرجعيَّة اتصالاً كاملاً، فحيثما كَمُل الاتصال والعمل بالمرجعيَّة فقد تهيَّأت أسباب التمكين، وحيثما انعدم الاتصال بالمرجعيَّة فقد بعُدت الفرصة عن الوصول إلى حالة التمكين، وقد وضع الله سبحانه وتعالى شروطاً ومراحل للوصول إلى فقه التمكين قد فُصِّلتْ في سورة النور من الآيات (٤٦) إلى (٥٧) على النَّحو التالي:

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (النور ٤٦-٥٧).

ونلحظ من خلال هذه الآيات المباركات ما يلي:

أولاً: ابتدأ الحديث عن فقه التمكين بالتصدير بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ في إشارة مباشرة إلى الطريقة والوسيلة للوصول إلى حالة التمكين وهي اتباع ما نزل من الآيات المبيَّنات المفسرة بقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل ٨٩)، فطريق التمكين هي اتباع الآيات المفصَّلات، ونتيجة هذا الاتباع هو الهداية إلى الصراط المستقيم، باتباع الروح المنزَّل من عند ربِّ العالمين، بمنهجيَّة خير المرسلين كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى ٥٢-٥٣).

ثانياً: ذكرت الآيات الكريمة بعد بيان الطريقة والوسيلة للوصول إلى فقه التمكين حالات من مراحل التصفية والتنقية من حيث درجات كمال الاتصال بالمرجعيَّة أو عدمها، حيث حَوَت الآيات الكريمات ثلاث مراحل من مراحل التصفية على النحو التالي:

الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه هي التصفية الأولى حيث جاء في الآية الحديث عن قوم من المنافقين ادعوا الإيمان وطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم بألسنتهم دون أفئدتهم، الذي سرعان ما انكشف حالهم بتولي فريق منهم، وقد نفى الله عن هذا الصنف صفة الإيمان، فليسوا على شيء حتى يتحقق النصر والتمكين على أيديهم .

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وهذه هي التصفية الثانية لقوم من المنافقين، الذي بقوا على ادعائهم بالإيمان بالله والرسول صلى الله عليه وسلم من غير أن يظهروا شكلاً من أشكال التولي مسبقاً، لكنْ سرعان ما تكشَّف حالهم وظهر حينما طُلب منهم أن يحتكموا إلى الله ورسوله ، فما كان من هؤلاء إلا أنْ أعرضوا وتولوا، وبهذا تمَّت عملية التصفية الثانية، فما هؤلاء القوم أيضاً بالقوم الذين سيكون التمكين على يدهم أيضا.

وبعد أنْ بيَّن الله لنا حال صنفين من المنافقين الذي لا يمكن أن يحصل التمكين على يدهم يبيِّن الله تعالى لنا أنَّ وازع المصلحة الشخصيَّة لهؤلاء القوم هو الدافع الحقيقي لإذعانهم واستجابتهم وطاعتهم حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ ، فالمصلحة هي المحرِّك الحقيقي لإذعانهم وليس كمال الاتصال بالمرجعيَّة، إذ لا مرجعية حقيقة عندهم، وقد علَّل الله تعالى لنا سببَ توليهم وإعراضهم في الآية التالية: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فهو إمَّا مرضٌ في قلوبهم وغشاوة حالت بينهم وبين الاتصال بالمرجعيَّة، وإمَّا شكٌ في المرجعيَّة نتيجته التصفية الحتميَّة، وإمَّا اعتقاد راسخٌ بأنَّ في الاتصال بالمرجعيَّة ظلم وحيف لهم.

الثالثة: بعد أنْ بيَّن الله تعالى لنا حال صنفين من المنافقين ممن لا يصلحوا أن يقودوا الأمَّة إلى برِّ التمكين، يخبرنا الله تعالى عن القوم المرشَّحين والمؤهَّلين لأنْ يكون التمكين على يدهم ممَّن لديهم اتصالٌ كاملٌ بالمرجعيَّة في عمليَّة تصفيَة نهائيَّة حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

ثالثاً: بعد أن بيَّن الله تعالى لنا حالات التصفية الثلاث، يخبرنا الله تعالى عن هؤلاء القوم من المنافقين الذين ادَّعوا الإيمان الصُّوَري بأنَّهم يجهدون أنفسهم في المبالغة في القسم جهداً بمنتهى طاقتهم لئن أمرهم الرسول صلى

الله عليه وسلم بأمرٍ ومنه الخروج للجهاد الذي هو أشقُّ شيءٍ لأطاعوه، فرد الله تعالى عليهم بأنْ لا يقسموا فطاعتهم معروفة في عدم انعقادها، فإذا كانت الطاعة عندهم منتفية في أيسر الأمور فهي في أشقِّها آكد، فيقول تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

رابعاً: يأتي الكلام في الآيات قبل الحديث عن الوعد بالتمكين والاستخلاف التأكيد على معياريَّة السُّنَّة النبويَّة كشرطٍ من شروط التمكين فيقول تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾، ثمَّ يأتي بعدها الكلام عن التمكين والاستخلاف ونتيجة ذلك وهي الانتقال من حالة الخوف إلى حالة الأمن فيقول تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾، وفي قول الله تعالى: ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ نلحظ في القرآن الكريم نموذجاً واضحاً من نماذج التمكين يظهر واضحاً جليّاً في قصة طالوت مع بني إسرائيل، حيث تبدأ القصَّة بذكر الفئة الأولى من المنافقين والذين تولوا حينما كتب القتال عليهم، ثمَّ تأتي المرحلة الثانية من التصفية حينما ابتلاهم الله تعالى بالشرب من النهر، إلى التصفية النهائية للقوم المرشحين القلة لقتال جالوت وجنوده، إلى التمكين والنَّصر وإيتاء الله داود الملك والحكمة، ثمَّ تختتم الآيات بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ في إشارة إلى أنَّ اتباع هذه الآيات هو السَّبيل الوحيد للوصول إلى حالة التمكين.

وتشير الآية في نهايتها في قول الله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ إلى أنَّ حالة زوال التمكين عن الأمَّة مرهونة بالكفر والانسلاخ عن المرجعيَّة، وهي البداية في الإذن بالهلاك فيقول تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء ١٦).

ثمَّ يؤكِّد الله لنا مرَّةً أخرى معياريَّة السنة النبويَّة في التطبيق حتى بعد الوصول إلى حالة التمكين فيقول تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، إذن فالسنة النبوية واتباع ما جاء فيها وجعلها المعيار الحقيقي للتطبيق سواء في حالة التمكين أو عدمه هو الطريق الوحيد إمَّا للوصول إلى حالة التمكين، أو الحفاظ عليه، ومن هنا بُنيت هذه النظريَّة على اعتبار السنة النبويَّة هي المعيار الحقيقي للتطبيق في الحياة السياسية للوصول إلى التمكين والاستخلاف، وعلى هذا النسق من المنهجيَّة في التطبيق يكون الوعد في الانتقال من حالة الخوف إلى الأمن، أيْ: الاستقرار السياسي للمشروع الإسلامي الذي تعقبه خلافة راشدة لكن بشرط أنْ تكون على منهاج النبوة: (لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ)، فالحاصل للوصول إلى فقه التمكين هو:

• التسليم المطلق للمرجعيَّة.

• التطبيق والتنزيل.

• اعتبار السنة والسيرة النبويَّة هي المعيار في التطبيق.

الخاتمة

إن المتأمل في ما قدمناه في هذه النظرية سيجد أننا قد اعتمدنا على مجموعة من الركائز المهمة التي لا بد منها لاكتمال نضوج الفكرة وسلامة منهجية الطرح، وبالتالي فإن ما جاء في هذه النظرية يدفعنا لزاماً للدعوة إلى استقلالية فقه السياسة الشرعية كعلم مستقل له أدواته ومنهجياته الخاصة به، لذلك فإن هذه النظرية قد امتازت بمجموعة من القواعد الأساسية التي تحفظ للمشروع الإسلامي استقلاليته عن غيره من المشاريع السياسية الأخرى، ومن جملة هذه القواعد التي لا بد منها ما يلي:

أولاً: الاعتقاد بشمولية المرجعية شمولية تفصيلية لا إجمالية.

ثانياً: حركية النصوص الشرعية في إدارة الواقع، وبالتالي ضبط حركة الكتلة المسلمة بحركة النص الشرعي.

ثالثاً: فهم حركية النصوص الشرعية عبر مجموعة من العلوم المتمثلة بعلم التفسير الموضوعي، والمحكم والمتشابه، وعلم المفردة القرآنية ونفي الترادف في كتاب الله.

رابعاً: ضبط محاور العملية السياسية ومضامينها بحيث تشمل جميع أجزاء ومفردات العمل السياسي والتي اجتهدنا بضبطها تحت خمسة محاور رئيسية.

خامساً: الاعتقاد بشمولية السنة والسيرة النبوية شمولية تطبيقية، واعتبارها هي المعيار في التطبيق.

سادساً: استخراج محاور العملية السياسية من كل مرحلة، والتي نتج عنها تقسيم السيرة النبوية إلى ست مراحل.

سابعاً: اعتبار الأفعال النبوية حجة ومرجعية ينبغي الاقتداء بها وتقسيمها إلى استراتيجيات ومنهجيات وأدوات، واستثناء الأدوات من كونها حجة في الاقتداء والاتباع.

سادساً: اعتبار قيد المرحلة هو الضابط والمعيار في تنزيل الأحكام السياسية من القرآن والسنة على الواقع المعاش.

سابعاً: الاعتقاد بضرورة جعل الخلافة الراشدة حجة ومرجعية، كونها هي المتممة للشمولية التطبيقية في السيرة

النبوية عن طريق ضبطها بثلاثة قيود صالحة للتنزيل والاستشهاد.

ثامناً: ضبط تنزيل الأحكام على الواقع عبر منهجية الاستنباط السياسي.

إن هذه القواعد تشكل المادة الأساسية التي قامت عليها هذه النظرية، وبالتالي فإننا نعتقد بأن عدم مراعاتها هو السبب الأساسي والرئيسي لحالة العشوائية في الاستدلال والاستشهاد التي نعيش، ولهذا السبب فإنَّ الأمَّة الإسلامية اليوم تعيش في حالة من التِّيه والضَّياع وفقدان البوصلة التي توجِّه سيرَها وتضبطُ حركتها، ولكنْ من فضل الله تعالى أنَّه لم يتركْ هذه الأمَّة المحمَّديَّة المباركة بلا دليل ولا إرشاد، ولم يتركها فريسةً لمناهجِ الباطل تقتاتُ على الأفكار والنظريَّات البشريَّة القاصرة، بل وجَّهَ اللهُ تعالى هذه الأمَّة للنظر فيما يُصلح حالها، ويضبطُ حركتها، ولا يكون ذلك إلا بالارتباط بكتاب الله تعالى واتخاذه مرجعيَّة حقيقيَّة لضبط حركة أي كتلة مسلمة تسعى لإعلاء كلمة الله وتحقيق الخلافة على منهاج النبوة.

والارتباط بالقرآن الكريم يقتضي الإيمان بالسنة والسيرة النبوية على أنها الحالة التطبيقية لشموليَّة القرآن الكريم، وأنَّ مرحلة الخلافة الرَّاشدة هي امتدادٌ طبيعيٌّ واقعيٌّ للسيرة النبويَّة لاستكمال حركة المشروع الإسلاميِّ.

وما كان هذا الكتاب إلا بدايةً لدراسة خصائص هذه الحركية، والعمل على ضبط حركة الكتلة المسلمة بحركة النصِّ الشرعيِّ، وقد حاولنا تقديم هذا الكتاب كمقدمةً لنظريةٍ سياسيَّةٍ منهجيَّةٍ تأصيليَّةٍ حركيَّةٍ مُستنبطَةٍ من القرآن الكريم والسُّنة والسيرة النبويَّة والخلافة الراشدة لضبط حركة هذه الأمَّة بحركةِ النصِّ الشرعي ووفق السُّنن والقوانين المبثوثة في هذا الكون، وما قدمناه هنا؛ ما هو إلا عرضٌ للعناوين الرئيسة للنظريَّة، وتحت كلِّ عنوان من هذه العناوين تفاصيل كثيرة تحتاج إلى رسائل مستقلَّة، وقد رأينا أنَّ الأولويَّة للعمل على النهوض بالمشروع السياسي الإسلامي يجب أن تكونَ مُنصبَّةً على إنتاجِ المشاريع التالية:

أولاً: مشروع التفسير السياسي للقرآن الكريم.

ثانياً: مشروع القراءة السياسية للسيرة النبوية.

ثالثاً: مشروع القراءة السياسية لمرحلة الخلافة الراشدة.

فأمَّا مشروع التفسير السياسي للقرآن الكريم فإنَّه يهدف إلى جمع الأمَّة على القرآن الكريم عبر تأسيس دليلٍ استرشادي قابل للتطبيق العملي، لاستنباط الحلول الشرعية للتعامل مع كل ظرفٍ أو حالة تمرُّ بها الأمَّة، ورفد الكتلة المسلمة بمنهجيَّةٍ تأصيليَّةٍ واضحةٍ وصالحة للتطبيق في واقع الأمَّة السياسي المعاصر، لأجل بلورة مشروع سياسيٍّ مستقلٍ، والوصول بالأمَّة إلى مرحلة التمكين والاستخلاف.

وأمَّا مشروع القراءة السياسيَّة للسيرة النبويَّة فإنَّه يهدف إلى صياغة نظريةٍ تأصيليَّةٍ ومنهجيَّةٍ واضحة لمرجعيَّة السنة والسيرة النبويَّة في الحياة السياسيَّة، والعمل على ضبط السيرة النبويَّة بمراحلها الست ضمن محاور العمليَّة السياسيَّة الخمس، للخروج بطريق استرشاديٍّ كاملٍ يضبط واقع الأمَّة السياسية المعاصر عبر قيد المرحلة.

وأمَّا المشروع الأخير وهو القراءة السياسية لمرحلة الخلافة الراشدة، فإنَّه يهدف إلى معالجة القضايا السياسية التي لم يكن من الممكن أن توجد في السيرة النبوية لخصوصية مرحلة النبوة ومكانة النبي –صلى الله عليه وسلم–، والنظر إلى الخلافة الراشدة على أنها القالب الشامل لحركة المشروع السياسي الإسلامي عبر النظر في إجماعات الخلفاء الراشدين، والمهام المحورية التي انفرد بها كل خليفة واختصَّ بها عن الآخر، لرفد الأمَّة الإسلاميَّة بدليل استرشادي لحركة المشروع الإسلامي.

هذه المشاريع الثلاثة هي التي يتمُّ العمل عليها الآن ضمن فريقٍ بحثيٍّ متخصِّصٍ، وقد بدأنا بالفعل في وضع الأسس لإنتاجها لتشكِّل معاً برنامجاً متكاملاً، لعلَّها أنْ تكون البداية والنواة التي سينطلق منها المشروع الإسلامي لمن آمن وصدَّق، وعمل بجدٍ وأملٍ، وطاعةٍ لله دون ملل.

ثمَّ تكونُ خلافة على منهاج النبوة ..

هذا الحلم الذي يراودُ كلَّ مخلصٍ لهذا الدين، وقد أدرك أعداء هذه الأمَّة خطورة تحقيق هذا الحلم، وكادوا بالليل والنهار لتبديده وتشويهه ووأدِه قبل ظهوره، لكنَّ الله لهم بالمرصاد، ووعدهُ منجَزٌ لا محالة؛ فلا بدَّ إذن من الولوج إليه بسننِ الله وقوانينه التي رسمها في كونه، وسطَّرها في كتابه.

وأوَّل مراحل تحقيقِ هذا الحلم هو إنتاج المنهاج النبويُّ بكمالاته وبرنامجه التطبيقي العملي.

وإدراك منهاج النبوَّة بكمالاته هو شرطُ نزول الخلافة وليست الخلافة من ستأتي بمنهاج النبوة.

إنَّ ما نقدمه في هذه النظريَّة هو محاولة جادَّة لتقديم المنهج النبوي في إدارة الحياة السياسيَّة بقالبها الكامل الناضج الذي نعتقد أنَّه استنطاق للمنهج النبوي في الواقع المعاصر متمثلين بذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (الحجرات ٧).

ولا بد من التنبيه إلى أن امتثال المنهج النبوي لا يعني فقط التطبيق لبعض أفعاله صلى الله عليه وسلم دون النظر إلى أصل المنهج الذي قامت عليه هذه الأفعال، فالعمل مقترن بمنهجية ربانية توجهه وفق حالات الأمة المختلفة من الأمن والخوف والقوة والضعف، فهناك شريعة وهناك منهج مصاحب له حيث يقول الله تعالى: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴾ (المائدة ٤٨).

ولتحقيق المنهج لا بد من دراسة وتتبع أفعال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله لإدراك منهجه، والإحاطة بذلك من كافة جوانبه لكي يكون أهلاً لنصرة دين الله، قال صلى الله عليه وسلم: (إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه)[1].

ثمَّ تكونُ خلافةٌ على منهاجِ النُّبوَّة ..

نسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا الجهد وأن يجعله في ميزان حسناتنا

وأن يتجاوز عنا ما كان من خطأ أو سهو أو نسيان

إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٣٥٩، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ثم الدمشقي، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، سنة النشر: ١٤٢٤ه، ٢٠٠٣م، والسيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ١/ ٢٣٤، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.



المصادر والمراجع:



- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.
- الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي، المتوفى: ٤٥٠هـ، دار الحديث-القاهرة، بدون تاريخ.
- أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، المتوفى: ٣٧٠هـ، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي، المتوفى: ٦٣١هـ، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي-بيروت-دمشق-لبنان، دون تاريخ.
- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.
- أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية، محمد أحمد الراشد، دار النشر للجامعات، ٢٠١٢م.
- أصول السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، المتوفى: ٤٨٣هـ، دار المعرفة-بيروت، دون تاريخ.
- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، د.التيجاني عبد القادر حامد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، المتوفى: ١٣٩٣هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-يبروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المتوفى: ٧٥١هـ، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- الإكليل في استنباط التنزيل، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي السيوطي أبو الفضل، تحقيق: عبدالله محمد الصديق الغماري، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
- الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبدالله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- الأمثال في القرآن الكريم: خصائصها التربوية وسماتها البيانية، سامي عطا حسن، مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلد ٣٨، العدد ١، ٢٠١١، جامعة آال البيت.
- الأمثال في القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الأئمة ابن قيم الجوزية، المتوفى: ٧٥١هـ، مكتبة الصحابة-مصر-طنطا، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- الأمثال في القرآن الكريم، محمد شاهر يامين، مقال على موقع صيد الفوائد: http: //www.saaid.net /bahoth /218.htm

- أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم، أحمد بن محمد الطاحون، مكتبة التراث الإسلامي-القاهرة، ١٩٩٣م.

- البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن نجيم المصري، المتوفى: ٩٧٠هـ، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري (ت: بعد ١١٣٨هـ)، وبالحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، دار الكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المتوفى: ٧٤٥هـ، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر-بيروت، ١٤٢٠هـ.

- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ثم الدمشقي، المتوفى: ٧٧٤هـ، تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، سنة النشر: ١٤٢٤ه، ٢٠٠٣م.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي، المتوفى: ٧٩٤هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى: ١٣٧٩هـ، ١٩٥٧م.

- تحرير الإنسان وتجريد الطغيان، د.حاكم المطيري، المؤسسة العربيبة للدراسات والنشر-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الطبعة الثانية ١٤٣٤ هـ، ٢٠١٣.

- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد المعروف بالتحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، المتوفى: ١٣٩٣هـ، الدار التونسية للنشر-تونس، ١٩٨٤م.

- التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم، عبد المحسن الجزائري، بحث على موقع ملتقى أهل اللغة: http: //www.ahlalloghah. com /showthread.php?t=١٥٥٣

- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن محمد بن باديس الصنهاجي، المتوفى: ١٣٥٩هـ، جمع وترتيب: د.توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، علق عليه وخرج أياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

- تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المتوفى: ٧٧٤هـ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

- التفسير السياسي للقرآن الكريم: تعريف وتأريخ وتأصيل، د.رأفت «محمد رائف» المصري، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية من جامعة الكويت، كانون الأول ٢٠١٤م، ولم ينشر بعد.

- تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا، المتوفى: ١٣٥٤هـ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م.

- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، د.عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، دار النشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المتوفى: ٦٧٦هـ، دار الكتب العلمية-بيروت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المعروف بتفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المتوفى: ١٣٧٦هـ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، المتوفى: ٣١٠هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- الجامع الكبير المعروف بسنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، المتوفى: ٢٧٩هـ، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ١٩٩٨م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، المتوفى: ٦٧١هـ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية-القاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
- جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر، تحقيق: رمزيمنير بعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- جند الله تخطيطا، سعيد حوى، مكتبة وهبة-القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- جند الله ثقافة وأخلاقاً، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة السابعة: ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
- حركة التجديد والاستناض، عبد الله أحمد، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م.
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، المتوفى: ١٣٨٥هـ، دار الشروق، بدون تاريخ.
- الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، د.محمد عبدالله دراز، المتوفى:١٣٧٧هـ، دار القلم-الكويت، بدون تاريخ.
- الذرائع في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، د.وهبة الزحيلي، دار المكتبي، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
- سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، المتوفى: ٢٧٣هـ، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد و محمد كامل قرة بللي وعبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، المتوفى: ٢٧٥هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع، أبو مريم محمد الجريتلي، المادة مرشحة للفوز بمسابقة كاتب الألوكة الثانية، على موقع الألوكة للإصدارات والمسابقات: http: / /www.alukah.net /publications_competitions /٠ /٣٧٠٠٤/
- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبو بكر البيهقي، المتوفى: ٤٥٨هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، د.يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة: ٢٠١١هـ.

- السياسة الشرعية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية وتطبيقاتها المعاصرة، د.فؤاد عبد المنعم أحمد، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، ١٤٢٢هـ.
- السياسة الشرعية، إبراهيم بن يحيى خليفة المشهور بـ: دده أفندي، المتوفى: ٩٧٣هـ، تحقيق: د.فؤاد عبد المنعم، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة، ١٤١١هـ.
- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ بن معبد التميمي أبو حاتم الدارمي البستي، المتوفى: ٣٥٤هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المتوفى: ٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، دون تاريخ.
- الطرق الحكمية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المتوفى: ٧٥١هـ، مكتبة دار البيان، بدون تاريخ.
- علم الاجتماع السياسي، أ.د.محمد توهيل عبد أسعيد، مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى: ١٩٩٩م.
- العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د.سفر بن عبد الرحمن الحوالي، دار الهجرة، دون تاريخ.
- غياث الأمم في التياث الظلم، عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي إمام الحرمين، المتوفى: ٤٧٨هـ، تحقيق: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة-بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمدفؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليها تعليقات: عبد العزيز ابن باز.
- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني، المتوفى: ١٢٥٠هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب-دمشق-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.
- فصول في الإمرة والأمير، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، المتوفى: ١٣٨٥هـ، دار الشروق-القاهرة-بيروت، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢هـ.
- القراءة التأويلية للقرآن الكريم بين التبديد والتجديد، نور الدين مختار عمار الخادمي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة الأولى،

١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، المتوفى: ٥٣٨هـ، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، المتوفى: ٧١١هـ، دار صادر- بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.
- مبادئ في علم السياسة، حسن نافعة، مكتبة الشروق الدولية: ٢٠٠٢م.
- محاسن التأويل المعروف بتفسير القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، المتوفى: ١٣٣٢هـ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ.
- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، المتوفى: ٦٦٦هـ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية-بيروت-صيدا، الطبعة الخامسة: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، المتوفى: ٤٠٥هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المتوفى: ٢٤١هـ، تحقيق: شعيب الأرنوؤط وعادل مرشد، إشراف: د.عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي أبو العباس، المتوفى نحو: ٧٧٠هـ، المكتبة العلمية- بيروت، بدون تاريخ.
- المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم، أبو الأعلى المودودي، دار القلم-الكويت، تعريب: محمد كاظم سباق، الطبعة الخامسة: ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.
- معالم في الطريق، سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، المتوفى: ١٣٨٥هـ، دار الشروق، الطبعة السادسة: ١٩٧٩م.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني، المتوفى: ٣٦٠هـ، تحقيق: حموي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية-القاهرة، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار عبد الحميد عمر، المتوفى: ١٤٢٤هـ، عالم الكتب، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة، بدون تاريخ.
- مفاتيح التعامل مع القرآن، د.صلاح الخالدي، دار القلم-دمشق، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- مفاتيح الغيب المعروف بتفسير الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، المتوفى: ٦٠٦هـ، دار إحياء

التراث العربي–بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ.

- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى: ٥٠٢هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز، تم التحقيق في مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، بدون تاريخ.
- مقاصد المقاصد، د.أحمد الريسوني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، مركز المقاصد للدراسات والبحوث، بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٣م.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين، المتوفى: ٣٩٥هـ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المتوفى: ٨٠٨هـ، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.
- مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المتوفى: ٧٢٨هـ، دار مكتبة الحياة–بيروت، ١٤٩٠هـ، ١٩٨٠م.
- مقدمة في التحليل السياسي القياسي، د.طلال محمود محمد ضاحي ود.سرحان دبيل العتيبي وأ.د.أحمد عودة عبد المجيد عودة، جامعة الملك سعود، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، المتوفى: ١٣٦٧هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.
- منهج الاستنباط من القرآن الكريم، فهد بن مبارك بن عبدالله الوهبي، تقديم: أ.د.محمد بن عبد الرحمن الشايع، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي التابع للجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة جدة، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، د.محمد رشاد خليل، دار المنارة–القاهرة، الطبعةالأولى: ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، عبد الرحمن بن الجوزي جمال الدين أبو الفرج، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا ومحيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، ودار العلوم الإنسانية–دمشق، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
- البحر المحيط في أصول الفقه ، بدر الدين الزركشي، دار الكتبي، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
- الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي مصر، الطبعة الأولى: ١٣٥٨هـ، ١٩٤٠م.

- الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
- التجديد الأصولي: نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، إعداد جماعي بإشراف: د.أحمد الريسوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد القرطبي الحفيد، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- السنة، أبو بكر الخلال الحنبلي، تحقيق: د.عطية الزهراني، دار الراية الرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ، ١٩٩٨م.
- مجموع الفتاوى، تقي الدين ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- تفسير سورة الحجر للدكتور محمد راتب النابلسي على رابط الموقع: http: //www.nabulsi.com /blue /ar /print. php?art=٢٨٥٢



الفهرس

